

HABASHI

AL-HARB AL-SALIBIYAH AL-ULA

2269
3954
343
1947

Princeton University Library



32101 062267784

2269.3954.343.1947

Habashi

al-Harb al-salbiyah

DATE _____

ISSUED TO

[illegible]

الحرب الصليبية الأولى

أليف

مهدي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم في التربية وعلم النفس
وماجستير آداب بدرجة جيد جداً

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفكر العربي

123

al-Ḥarb al-ṣālihiyah
al-ūlā

عمر حبیبی

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم في التربية وعلم النفس
وماحستير في الآداب بدرجة حاد جداً

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفکر العربی

الإهداء

إلى

C. A.

نحية ود وإخلاص

.ع.ع

65-14

2269

3954

343

1947

المراجع

المصرية :

- ١ — ابن الأثير ، الكامل في التواريخ (طبعة R. H. Or. Cr. t. I.)
- ٢ — ابن العديم: منتخبات من تاريخ حلب (طبعة R. H. Or. Cr., t. III.)
- ٣ — ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (طبعة أمدرود، بيروت ١٩٠٨ م) .
- ٤ — ابن ميسر : أخبار مصر ، (طبعة R. H. Or. C.)
- ٥ — أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر (طبعة R. H. Or. Cr. t. I.)
ونسخة أخرى منه في مجلدين طبعة الأستانة .
- ٦ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) ج ٤ ، ٥
- ٧ — الدوري ، الدكتور عبد العزيز ؛ العصر العباسي الأول ،
بغداد ١٩٤٥ .

- ٨ — سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، مجموعة R. H. Or. Gr. t., IV.
- ٩ — المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، ج ١ .
- ١٠ — ياقوت : معجم البلدان .

الفرنجية :

1. Albert d'Aix; Liber Christianae expeditionis pro erptione, emundatione, restitutione sanctae Hierosolymitanae ecclesiae, (Rec. Hist. Occ. Cr., t IV.).
2. Baynes, N.; The Byzantine Empire, (Home Univer. Libr.).
3. Brehier, L.; L'Eglise et L'Orient, au moyen âge (Paris 1928).
; Le schisme oriental du XI^e siècle, Paris 1899.

4. **Chalandon** : a) Essai sur le règne d'Alexis Comnène, Paris 1900.
b) Histoire de la première croisade, Paris 1925.
5. **Delarc** : Les Normands en Italie, Paris 1884.
6. **Dussaud** : Topographie Historique de la Syrie, Paris, 1936.
7. **Fliche** : a) La Chretienté Medièvale (Paris 1936).
b) L'Europe Occidentale de 888 à 1125 Paris 1930.
8. **Foucher de Chartres** : Gesta Francorum Jerusalem expugnantium (R. Hist. Occ. Cr., t. IV.).
9. **Gibb, H. A. R.**, Damascus Chronicle of the Crusades.
10. **Grousset, R.** : Histoire des Croisades et du royaume de Franque au Jerusalem, t. I. (Paris 1934.)
11. **Guillaume de Tyre** : Historia rerum.... gestam (R. H. Occ. Cr., t. I.).
12. **Hagenmeyer** ; Chronologie de la première croisade, (R. Or. Lat., t. VI—VIII).
13. **Heyd, W.** ; Histoire du Commerce de Levant au moyen âge. t. I. Paris 1885.
14. **Jorga, N.** ; Brèves Histoire de croisades. (Paris 1924.)
15. **Lacroix** : Vie militaire et religieuse au moyen-âge.
16. **Leib** : Rome, Kier et Byzance. (Paris 1924)
17. **Matthiew d'Edesse**, Documents Armeniens, t. I.
18. **Migne, L'Abbè** : Nouvelle Encyclopedie Théologique.
19. **Neumann** : La situation mondiale de l'empire Byzantin avant les croisades.
20. **Powicke** : Christian Life In The Middle Ages.
21. **Raimond d'Agiles** ; Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem (R. H. Occ. Cr., t. III).
22. **Riant, P.** : a) Inventaire des lettres historiques des croisades (Arch. Or. Lat., t. I.).
b) Les Scandeniviens en Serre-Sainte.
23. **Robert le Moine** : Hierosolymitana expeditio (R. H. Occ. Cr., t. III.)
24. **Rousset, P.** : Les origines et les caractères de la première croisade (Génève 1945).

25. **Schlumberger** : a) Un Empereur Byzantin au IX^e siècle.
b) L'Epopée Byzantine.
26. **Stevenson W. B.**, : The Crusaders In The East.
27. **Vasiliev** : Histoire de l'Empire Byzantin, (Traduction Fr.),
2 vols.
28. **Wiet** : Précis de l'histoire d'Egypte, t. II.

فهرست

الفصل الأول

ص

١

الصليبيون والشرق الاسلامي وبيزنطة :

الحروب الدينية والحروب الصليبية . تعريفها . الحج والحجاج المسيحيون في العصور الوسطى . حروب بيزنطة الصليبية . السلاجقة . الحرب الصليبية فكرة بابوية . الحرب الصليبية حج مسلح . إربان الثاني ومؤتمر كليرمونت . تخوف ملوك أوروبا . ألكسيس كومنين واتفاقية ١٠٩٧ م . نيقية . إسكي شهر . بلدوين والرها الأرمنية . الرها إمارة لاتينية . العنصر الأوربي في الشرق .

الفصل الثاني

٤٨

الصليبيون في أنطاكية :

موقف الأرمن والسريان . تحصين أنطاكية . تهاون المسلمين . دفاع حلب وحمص ودمشق عن أنطاكية . المجاعة في صفوف الصليبيين . رجوع تاتيكوس . السفارة المصرية إلى الصليبيين . نهوض العراق لنجدة أنطاكية . خيانة فيروز . فشل النجدة وأسبابه . الحرب المقدسة . أثرها المعنوي . استسلام أنطاكية . شرعية امتلاك أنطاكية . تنازع الأمراء الصليبيين . طلبهم تدخل البابا .

الفصل الثالث

٧٠

الصليبيون في بيت المقدس :

بيزنطة وفتح بيت المقدس . مقاومة معرة النعمان للصليبيين . مطامع الأمراء الشخصية . كونت صنجيل قائد الحملة . موقف البلدان الإسلامية الشامية . ابن عمار في طرابلس . عرقة . الزحف على القدس . وحشية الصليبيين . وقع سقوط المدينة على المسلمين . النجدة المصرية تأتي متأخرة . النزاع بين الأمراء الصليبيين . الدين أم الدولة ؟ اختيار جودفروي ملكا . جودفروي حامي الضريح المقدس . مغزى اختياره . انتخاب بطريرك لاتيني للمدينة . الروح الإقطاعية . الفرسان الاستبارية والدواية .

الحوليات

- ص
- ١٠١ — ١ تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس :
الدعوة للحرب الصليبية . الحملة الشعبية . جماعات الصليبيين ووصول جودفروي
للقسطنطينية . حملة بوهيمند ونرمان إيطاليا الصليبية . بلوغهم نهر الوردار .
- ١٠٩ — ٢ من وقعة الوردار إلى الاستيلاء على نيقية :
سير نرمان إيطاليا ورحيل بوهيمند إلى القسطنطينية . الزعماء الصليبيون في القسطنطينية
وقطعهم اليمين للامبراطور . وصول الصليبيين إلى نيقية . حصار نيقية والاستيلاء عليها .
- ١١٦ — ٣ زحف الصليبيين في آسيا الصغرى :
وقعة دوريلم أول يوليو ١٠٩٧ .
- ١١٩ — ٤ زحف الصليبيين إلى أنطاكية :
عبورهم آسيا الصغرى وذهاب بلدوين وتانكريد إلى طارس . عبور أرمينيا الصغرى
وإقليم كبادوشيا . بلوغهم أبواب أنطاكية .
- ١٢٥ — ٥ بدء حصار أنطاكية :
بدء الحصار وأخذ حصن حارم . المجاعة في معسكر الصليبيين .
- ١٢٨ — ٦ حصار أنطاكية :
هجوم الترك على الصليبيين وحملة التموين . فرار بطرس الناسك ووليم النجار . رحيل
تاتيكوس . انتصار بوهيمند على الترك قرب بحيرة أنطاكية
- ١٣٣ — ٧ حصار أنطاكية
الحملة على السويداء . تشييد حصن المحمرة .
- ١٣٦ — ٨ نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها
تانكريد يحتل حصنا بحرى المدينة ، ويسد جميع المسالك على المحاصرين . المفاوضات
بين بوهيمند وفيروز . الاستيلاء على أنطاكية .
- ١٤١ — ٩ حصار الترك لأنطاكية
وصول أم كربوغا إلى أنطاكية . رسالته للخليفة عن الجيش المسيحي . موقف أم كربوغا

ص

وميلها للنصارى . هجوم كربوغا على أنطاكية . قصة الحلم . يمين الزعماء الصليبيين .
رؤية بطرس بارتلمى . حريق أنطاكية والمجاعة فيها . هروب إثنين دى بلوا واتصاله
بالإمبراطور . العثور على الحربة المقدسة . سفارة بطرس الناسك وهرلوان إلى المعسكر
الإسلامى . انتصار الصليبيين .

١٦٠

١٠ — من تخلص أنطاكية إلى وقعة عسقلان

الزحف على بيت المقدس . حملة ريموند بيليه وموت أسقف پوى . حملة ريموند الصنجيلى
على ألبارة . اختلاف الزعماء بشأن أنطاكية . استيلاء ريموند وبوهيمند على المعرة .
زحف ريموند وروبرت الزمندى على أورشليم . الوصول أمام عرقة . اتحاد الأمراء
عدا بوهيمند . حصار عرقة . رفع الحصار عنها . الوصول لبيت المقدس ومحاصرتها .
الاستيلاء عليها . انتخاب جودفروى وموقعة عسقلان .

مقدمة

الكتاب الذى بين يدى القارىء دراسة تاريخية لسير الحرب الصليبية الأولى وطبيعة هذه الحرب ، وتحليل للعوامل المختلفة التى دعت إليها ، سواء ما كان منها نابعاً من الشرق نفسه أم صادراً عن الغرب ؛ بعضها ظاهر للعيان بفضل ظروف جمة عملت على إبرازه وإخفاء البعض الآخر عن قصد ، على أن مهمة المؤرخ — وقد بعد به الزمن عن تلك الحروب — هى أن يفتش عما ظهر منها وعما بطن ، متجرداً من جميع المؤثرات التى دفعت أصحاب المذكرات الشخصية إلى سلوك ناحية معينة يهدفون إليها من وراء تلك المذكرات ، وكذلك الحال فى الحوليات ، يستوى فى ذلك ما كتبه المسلمون والمسيحيون المعاصرون لتلك الحروب . والاقتصار على فريق دون آخر يبعد الحكم النهائى عليها عن جادة الحقيقة ، وهى رائد البحث العلمى .

والواقع أن دارس الحروب الصليبية لن يجد تحقيق إربته تحقيقاً كافياً يرضيه من وجهة البحث العلمى الخالص إذا هو اقتصر على كتابات المسلمين وحدهم أو المسيحيين وحدهم ، فكتاب الفريق الأول قلما يعنون بالتفاصيل ، ولم يكن ثمة أحد منهم قد ساهم فى القتال ، على حين أن فى المصادر الأوربية ما يمكن الباحث من درس الجوانب المختلفة إلى حد ما ، ومرجع الأمر أن بعضهم كان ممن تهيأت له الفرصة للخروج فى الحرب ، فحاول أن يكتب لنفسه مذكرات يومية أو يدونها رسائل يبعث بها إلى ذويه فى أوربة ، وبمجموعة مؤرخى الحروب الصليبية بشقيها الأوروبى والشرقى حافلة بما يحلى هذه الحقيقة ويزيل الشك عند من يعتوره الشك فيها .

على أنه لا بد من الجمع — لاسيما للكاتب العربى — بين وجهتى النظر ،

والاطلاع على ما كتبه الفريقان ، وغربة تلك التفاصيل غربة دقيقة لا يقف منها إزاء روح التعصب التي تبدو من الجانبين ، إذ العصر وقتذاك عصر إيمان وحرب ، — أو هكذا يبدو للعيان — ونزاع حول أما كن ينزلها الفريقان منزلة القداسة أو ما يقاربها ، وكل يدعى صحة الحجة فيما يدعى ؛ وليس يهم الباحث المتجرد للبحث الخالص أن يصادف هذه الروح من التعصب ، لأنها لا تزيد عن كونها حشائش لا يعتد بها بل تجرفها المياه الجارية فلا تقوى على مصارعة التيار ، ولا يعبأ بها الملاح ، فلا تلبث أن تذهب للعدم ، أو هي كالزبد إن لم تكن الزبد بذاته — يذهب هباء ، أما ما يبق فهو الأحداث بصورها الزمانية والمكانية وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية والثقافية ، على ألا تساق هذه الأحداث سوقا جافا ، بل يربط الباحث بين ظاهرها وجوهرها ، وبين مسبباتها وخواتيمها ، وبين علتها ومعلولها . وأحب أن أقول في هذا الموضوع إن روح التعصب التي تبدو من الفريقين قد لا تكون صادقة تمام الصدق وإنما هي مجارة لروح العصر ، وإلا فلما طالع للحوليات الفرنجية التي ترجمناها يرى كيف لا تمنع المؤلف عصبية الدينية من الإشارة إلى سوء سيرة جماعته في النواحي المختلفة ، بل ومعاتبتهم أحيانا معاتبه عنيفة .

ولقد رأيت كعربي أن الواجب يقتضى أن أساهم بقدر — ولو ضئيل — في وضع هذه الوسائل الأولى بين يدي القراء والباحثين والكتاب ، ممن يعنىهم أو يلذ لهم الوقوف على مجريات الحوادث والأمر في كتلة البلدان العربية إبان عصر التجريدات الصليبية والهلالية ، ووسيلتي هي ترجمة ما يمكنني الفراغ من ترجمته من النصوص والمذكرات والحوليات والوثائق المتعلقة بالعصر الوسيط ، ولست أهدف من وراء هذه المحاولة إلا تغذية البحث العلمي بالعناصر الأولية الضرورية لقيامه بما يلائم النهضة العلمية العربية ، والنزعة الجامعية الخالصة .

ثم إن هناك نقصا بيننا في مكتبتنا العربية الحديثة هو عدم وجود كتب علمية - أو حتى شبه علمية - تتعلق بالحروب الصليبية عامة ؛ والكتابات العربي معذور في إحجامه عن الخوض في هذا الموضوع الجديد القديم ، لضعف ما بين يديه من المراجع ، ولأن معظم تلك المصادر لا يزال في لغاته الأولى ؛ وهنا ينبغي أن ننوه بالمجهود العلمي القيم الذي قامت به فرنسا في النصف الأخير من القرن المنصرم ، من نشر جانب كبير من تلك المصادر الأولى بلغاتها الأصلية ، بالعربية والسريانية واللاتينية واليونانية ، وأردفت بعضها بترجمات فرنسية قديمة وحديثة . وهو عمل علمي مفرد ، يحتل بين أمثاله مكانة الصدارة بالإجماع ، ثم ما قامت به في العصر الحديث من نشر أمثاله بإشراف الباحث المدقق مسيولويس هالغن الأستاذ بكلية الآداب بجامعة برودو بفرنسا .



وهذا الكتاب دراسة تاريخية موجزة للحرب الصليبية الأولى ، ثنيته بترجمة لمذكرات شاهد عيان ، تكاد تحتل الصدارة بين جميع ما كتب في تلك الناحية بالذات ، وأحسب أن أمثال هذه المصادر الأولى هي أول ما ينبغي أن يوضع بين أيدي الباحث في مثل ذلك الموضوع ، لما تهيأ لصاحبه من رؤية الأحداث الجارية ، ولا ينبغي ، مثل شاهد عيان .

ويرجع اهتمامي بالنظر في الحوليات والمذكرات الشخصية إلى العهد الذي كنت إبانها طالبا بقسم التاريخ بكلية الآداب ، أدرس بعض نصوص العصور الوسطى اللاتينية ، على يد العالم الفرنسي «مسيودبوا» ؛ فلما نلت إجازة الليسانس واشتغلت للتحضير لدرجة الماجستير ، صرفت بعض وقتي في مطالعة عدد لا بأس به من المصادر الأولى ، المتعلقة بالنزاع الصليبي الإسلامي في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر للميلاد ، وتتهيأ لي النظر في بعض ما كتبه

مشاهدو العيان لأحداث تلك الحقبة، التي تركت أثرا عميقا في شتى جوانب الحياة، يلبسه دارس العصور الوسطى في غير تغنت أو عسر أو إهمال، ورأيتني أقع على صور جديدة، وإشارات دقيقة، تجلى جوانب غامضة في سير العلاقات وتحديد النظم المختلفة في الحياتين الإسلامية والمسيحية، في البقعة التي كانت مسرحا مثلث عليه مأساة هذا النضال الأسمى. وكان من بين ما طالعتُه هذه الحوليات، التي يرضيني أن أقدمها كحلقة من سلسلة خاصة في لغتنا العربية لأول مرة للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب، وهي عبارة عن يوميات مؤرخ لا أشبهها إلا «بمذكرات صحفي عصرى»، ساير القوات الصليبية منذ خروجها من أوربة سنة ١٠٩٥ م حتى بلوغها بيت المقدس، واستخلاصها إياه من أيدي الفاطميين.

أما الوثائق التي ختمت بها بحثى عن الحرب الصليبية الأولى فهي المعروفة عند المشتغلين بتاريخ تلك الحروب باسم *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*، والتي عني بنشرها وترجمتها كثيرون من البحاث المشتغلين في ذلك الحقل أمثال بونجارس وهاجنمير وبريه. أما مؤلف هذه الحوليات فمجهول عند المؤرخين، وما تسميته عند بعضهم إلا محاولات اجتهدية، يعوزها الممنذ التاريخي. ولسكن الثابت هو أنه من أهل إيطاليا، وأنه كان في حملة بوهيمند بن روبرت جسكارد.

وبعد فأرجو أن يجد فيه المشتغلون بتاريخ العصر الوسيط عامة، والحروب الصليبية خاصة، ما يمكنهم من الانتفاع به.

حسن حبشي

منيل الروضة
القاهرة في ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧

الفصل الأول

الصلبيون والشرق الإسلامي وبيزنطة

الحروب الدينية والحروب الصليبية . تعريفها . الحج والحجاج المسيحيون في العصور الوسطى . حروب بيزنطة الصليبية . السلاجقة . الحرب الصليبية فسكرة بابوية . الحرب الصليبية حج مسلح . إربان الثاني ومؤتمر كليرمونت . تخوف ملوك أوربة . ألكسيس كومنين واتفاقية ١٠٩٨ م . نيقية . اسكى شهر . بلدوين والرها الأرمنية . الرها إمارة لاتينية . المعصر الأوربي في الشرق .

شهدت العصور الوسطى عامة — والقرنان الثاني عشر والثالث عشر خاصة — حركة من أخطر الحركات في تاريخ الإنسانية ، لما تمخضت عنه من النتائج الفعالة في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية ، وأعنى بتلك الحركة ذلك الصراع الطويل الذى شغل الناس في الشرق والغرب أمداً طويلاً ، وتآلف المشتغلون بالتاريخ على تسميته « بالحروب الصليبية » وترقيمها بأرقام عددية ، تبدأ أولها سنة ١٠٩٥ م ، والهدف المعروف لتلك الحروب هو تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وتهيئة جو مسيحي خالص للحجاج النصارى ، يؤمنهم في أدائهم فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة التى تنطوى على ذكريات عزيزة غالية على أنفس جميع المسيحيين رغم تباين أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم .

أما قصة هذا النضال الدينى المظهر ، المسمى بالحروب الصليبية ، فينسبها الناس إلى التأثير العميق الذى استولى على نفوس السامعين للخطبة الغنيمة^(١) التى ألقاها البابا إربان الثانى في مؤتمر كليرمونت بفرنسا يوم ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م ، على حين أن استعراض قصة الصراع بين أتباع المسيحية والإسلام في العصور الوسطى يدل دلالة واضحة على أنها أقدم من ذلك بزمان طويل^(٢) ، يرجع

(1) Rob. Mon., t. III, p. 727—728; cf. Fliche : La Chrétienté Médiévale, p. 312.

(2) Jorga : Brève Histoire des Croisades, p. 1—3.

إلى مستهل القرن السابع للميلاد حين ظهر الإسلام وبسط سيطرته السياسية والدينية على ما كان بيد دولة الروم الشرقية من الأقطار والولايات المطلة على البحر الأبيض المتوسط في غربي آسيا وشمال أفريقيا ، غير أن الأخذ بهذه الفكرة يؤدي بنا إلى اعتبار جميع الحروب التي التحمت فيها السيوف بين المسلمين والمسيحيين حروباً صليبية ، ويجعل مدار البحث غير محدد زمانياً ولا مكانياً ، ومن ثم يندرج تحت هذا الاسم كل حرب اختلفت فيها ديانتا المتقاتلين منذ بدء الدعوة الإسلامية حتى عصر متأخر يدخل ضمن نطاق العصور الحديثة .

ولقد شهد الغرب حركة « شبه صليبية » في محاربة البابوية للفرمان رغم تنصّرهم^(١) ، كما شهد مثل هذه الحركة في الحرب التي شنها الفرنسيون وملوك النمسا في الولايات الشمالية بإسبانيا محاولين طرد المسلمين منها^(٢) ، كما أن البابوية عاينت — في عهود مختلفة — على تحريض أتباعها على استئصال شأفة المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا على الإطلاق ، ونهـج هذا النهج كل من البابا إسكندر الثاني والبابا جريجوري السابع^(٣) ، ومع ذلك فيصح عدم نعتها « بالصليبية » لأنه ينتقصها جانبان لتصح التسمية ، أولها عدم اتجاهها نحو الأماكن المقدسة بفلسطين ، وثانيهما عدم حملها الصليب . ولعل أصدق تعريف للحروب الصليبية يحدد ماهيتها هو تعريف الكونت ريان^(٤) الشامل من أنها « حرب دينية خالصة ، دوافعها دينية ، وترى إلى استرداد الأماكن المقدسة عن طريق مباشر أو غير مباشر » . وعلى هذا الأساس يمكن إرجاعها إلى زمن متأخر نسبياً ، فنرى أن البيزنطيين هم أول من فكروا في هذا

(1) Delarc : Les Normands en Italie. p. 202 et seq.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 550—555.

(3) Rousset : Les origines et les caractères de la première croisade, p. 49—51.

(4) Riant : Inventaire des lettres Hist. des Croisades, t. I, p. 2.

المشروع وساروا فيه شوطاً بعيداً ، وذلك منذ أوائل النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد على يد الإمبراطور نقفور فوكاس أولاً (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ، ثم على يد خلفه حنا الشمشيق من بعده (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ؛ لكن الحروب التي قامت بها الأباطورية البيزنطية لم توسم بالصلبية ، على حين أن هذه التسمية أصبحت علماً على ما قام به الغرب المسيحي منذ نهاية القرن الحادى عشر ، ومنذ أن توجهت حملاته الحربية لتخليص الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة من أيدي المسلمين ؛ ولعل انفرد حروب معينة متتالية بهذا الاسم راجع إلى ما عمد إليه جمهور السامعين لخطبة البابا إربان الثانى من وضع الصليب على أكتافهم (٢) .

كذلك لم يحمل البيزنطيون على حربهم دوافع دينية خالصة ، بل أكثرها سياسى محض ، على حين أنه ظهر فى القرن الحادى عشر عامل أدى إلى تسكتل العالم المسيخى الغربى تسكتلاً حربياً ضد الإسلام فى الشرق ، وهذا العامل هو « الحج » إلى بيت المقدس الذى لم ينقطع طوال العصور المختلفة سواء أكان ذلك قبل ظهور المسلمين كقوة فعالة على مسرح السياسة العالمية أو بعد استيلائهم — زمن عمر بن الخطاب — على فلسطين ، ويكاد الإجماع بين المؤرخين ينعقد على أن زوار الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة — من أهل الغرب والشرق على السواء — لم يكونوا يصادفون شيئاً من العنت أو الإرهاق أو الشدة من جانب المسلمين الأوائل ، على أنهم وجدوا كل هذه المتاعب مجتمعة زمن ضعف الحكام المسلمين وتفكك الخلافة ودخول جماعات جديدة فى الدين ، حملها تحمسها له على أن تسلك سبيل العنف .

ولقد لعب « الحج » أكبر دور فى توجيه الغرب النصرانى إلى الشرق الإسلامى سنة ١٠٩٥ م ، ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس

(1) Baynes : The Byzantine Empire, p. 55.

(٢) Foucher, I, p.325. لكن ينبغى ألا يفهم من هذا أن وضع الصليب كان فى أثناء

انعقاد جلسة مؤتمر ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ . انظر Rob. Mon., p. 730

حائلا دون القيام بالحج ، بل كلما زادت الشقة بعداً أمام الحاج ، والطريق مشقة زادت نفسه اطمئنانا إلى غفران خطاياہ وحو آثامہ ، وما قيمة التعب الذى يصادفه ؟ أليس المسيح هو القائل ^(١) « هذا المرض ليس للهوت بل لأجل مجد الله ! » وإذن فلا محمل للشكوى من أهوال الطريق ، وما يصادفه « الحاج المسيحى » من متاعب جثمانية مظهرها الجوع والظما وتشقق الأيدي والأقدام ، والعرى أحيانا ، والسير فى حمارة القيظ أو تحت زمهرير الشتاء ، فكل هذه المتاعب ليست إلا تمجيذاً للرب وللعقيدة الدينية الخالصة ، وهذا هو إيمان المسيحى الماضى إلى فلسطين ، حيث يعد تعفير قدميه فى تراب البقعة التى شهدت مولد المسيح وتكريزه وآلامه فى سبيل الإنسانية راحة نفسية عميقة تصاحبه فى دنياه ، وزاداً يتقوت به فى أخراه ، كما يرى فى هذه الزيارة مولداً جديداً تطمئن له نفسه .

كذلك لم يقف الحج عند فترة معينة من التاريخ بل استمر متواصلاً طيلة العصور المختلفة ، واشتدت حرارته عقب تشييد قسطنطين كنيسة القيامة التى يدخلها الزائر اليوم فتطالعه أجيال وأجيال من الشرق والغرب حيث يشعر زائرها برهبة عجيبة ، فى ظلال الصمت الخيم على أجوائها وحجراتها المختلفة قرون من الزمان تشير إلى مالعبته هذه الكنيسة وما بها من الأيقونات من دور خطير فى حياة العالم دهرأ طويلا ، وإن تمثال العذراء بما حمل من ذهب وجواهر كريمة لتعبير مادية لإيمان روحى عميق يستوى فى الشعور به الملوك والسوقة على السواء ، والدين ليس وقفاً على طائفة من الطوائف ، نبه الجيل باسمها أو لم ينبه ، وإذا كان فى قدرة الأباطرة والملوك والأمراء ومن على شاكلتهم أن يملسوا تمثال العذراء هذه الحلى ، فى قدرة الفقراء أن يقدموا تعبهم قرباناً كريماً هو أصدق تعبير عن إيمانهم العميق .

ولما جاء القرن العاشر للميلاد شهدت فلسطين حجاجاً لم يقدر لها أن تشهد مثلهم قط من قبل ، ذلك لأن الاعتقاد ساد يومذاك بأن نهاية العالم قد

دنت ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به على رأس الألف من السنين التي غبرت ، ولم تقف رغبة هؤلاء الحجاج عند الزيارة فحسب ، بل أراد بعضهم البقاء بفلسطين حتى يوافيه الأجل ، واستولت على الناس صوفية عميقة ، حتى ليقال إن أحد الحجاج واسمه Lethbald استلقى على الصليب هاتفاً ^(١) « أيها السيد المسيح ، يامن تفضلت بالنزول عن عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشرى ، ويامن ارتفعت إلى السماء على شكل آدمى ، أتوسل إليك بعظمتك القوية أن تقبض روحي في نفس المسكان الذي شهد صعودك » .

على أن الحجاج لا قوا عنتاً كبيراً بعضه من الدولة البين نظية ^(٢) ذاتها وبعضه من المسلمين ، وصادفوا مشقة عظمتهم زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، والواقع أن سياسة الحاكم من أعجب السياسات في التاريخ على الإطلاق . على أن المحنة لم تقتصر في زمنه على المسيحيين وحدهم بل تعدتها إلى اليهود والمسلمين أيضاً ، حتى ليذكر الذهبي أن الحاكم « أمر بقتل الكلاب في مملكته ، وبطل الفقاع والملوخيا ، ونهى عن السمك وظفر بمن باع ذلك فقتلهم ، ومنع من بيع العنب وأباد كثيراً من الكروم ، وأمر النصراني أن تعمل في أعناقهم الصليبان وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرتال بالمصرى ، وأمر اليهود بأن يحملوا في أعناقهم قرأى الخشب في زنة الصليبان أيضاً ، وأن يلبسوا العمام السود ، ولا يكتروا من مسلم بهيمة ، وأن يدخلوا الحمام بالصليبان ، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمر بهدم الكنيسة المعروفة بالقيامة . . . وطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك ثم بدلاه فقتلهما صبراً » ^(٣) .

وكان للحج في العصور الوسطى تقاليد خاصة به لا سيما في الغرب ، إذ يتحتم على الراغب فيه أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزوداً ،

Migne : Nouv. Ency. Théol., p. 818.

(١)

Brehier : Le schisme oriental du XIe siècle, p. 21-22.

(٢)

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة مصر) ج ٤ ص ١٧٨ .

يستوى في ذلك الغنى والفقير ، حتى أن روبرت دوق نرمنديا خرج حافي القدمين سنة ١٠٣٥ م وبصحبته كثير من « الفقراء » الذين كان يعيّلهم من جيبه الخاص .

أما العصا فتكاد تبلغ طول الحاج وفي وسطها عقدة ، وقد تزداد أخرى في أعلاها ، وكثيراً ما يعقد هذا الطرف على شكل صليب ، وأما المزود فيعلق برباط ، ويزود الحاج بكتب توصية إلى جميع الأديرة التي يمر بها ، فإذا جاء يوم الرحيل خرج أهله وأحباؤه وكاهن القرية مرتلين الأناشيد الدينية ، ثم يقفل الراكب راجعاً ويخب الحاج في طريقه منفرداً بروح ملؤها الإيمان والشوق للغاية التي غادر من أجلها أهله ووطنه ، وقد تكون الشقة بعيدة ، لكن يعوض عليه ذلك وثوقه من ترحيب كل من يصادفه به .

وقد يعتمد الحاج في بعض الأحيان للتعريح على رومة فيتناول من يد البابا ذاته الصليب ، ويتلقى بركاته ، ثم يمضي إلى إحدى الموانئ الإيطالية ويركب البحر إلى القسطنطينية ، وينتحر منها عبر آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ^(١) . وظل الحجاج من القرن الثالث على هذا المنوال ، ثم أخذوا منذ أواخر القرن العاشر يسلسكون عبر بلاد المجر بعد اعتناق أهلها النصرانية ، وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسم الدخول عند باب يعرف « بباب الحجاج » ، وحينذاك يؤذن لهم بالتجول في نواحيها وأداء مناسك الحج ورسومه الدينية ، ومعنى هذا أن أبواب المدينة لا تفتح على الأكثر إلا للأغنياء أو من في حكمهم ^(٢) ، ويعرج الحاج بعدئذ على كنيسة القيامة والضريح ويصعد جبل الزيتون ويمضي إلى مغارة بيت لحم ، ثم يستحم بماء الأردن ، ويأخذ بعض سعف النخل ويحمله معه إلى بلده حيث يضعها على مذبح الكنيسة . وأصبح الحجاج يرسمون على ملابسهم علامة الصليب ^(٣) .

(1) Migne ; Nouv. Ency. Théol , p.806-813.

(2) Lacroix : Vie Militaire et Religieuse au moyen — âge, p. 110.

(3) Ibid., p. 400.

هذه هي تقاليد الحج في العصور الوسطى إلى الأماكن المقدسة .

لم يدخل عامل الحج في توجيه البيزنطيين لحرب المسلمين ، على أن حركتهم لم تقتصر على فكرة استرجاع بيت المقدس وحدها ، بل طمعوا في أخذ مكة (١) ذاتها كرد فعل لاستيلاء المسلمين على الأراضي المقدسة بفلسطين ، وهناك من يذهب للقول بأن بعض أباطرتهم كان يهدف للاستيلاء على بغداد (٢) أيضا ، وقد شجعهم ضعف الخلافة العباسية على التقدم في مشروعاتهم الحربية الجريئة على حساب القوات الإسلامية المبعثرة في بلاد الشام وشمال العراق ، فاستطاع نفقور فوكاس طرد العرب سنة ٩٦٤م من جزيرة أفرطش (٣) كما استولى على عين زربة وسيس من أرض قيليقية ، وعينتاب ومنبج من بلاد الشام ، وقصة هذا الصراع معروفة لدى قراء تاريخ الأدب العربي حيث وقع أبو فراس الحمداني الشاعر المجلي أسيراً في يد الإمبراطور البيزنطي (٤) أكثر من مرة ، وتباطأ سيف الدولة — رغم إرادته — في فك سراحه مما أثار حنق أبي فراس ، فكانت له قصائد جمّة في عتابه ، يهينها منها في مجلى التاريخ

Schlumberger : Un Empereur Byzantin, p. 430.

(١)

(٢) نشر Schlumberger : op. cit. p.428 ترجمة فرنسية لقصيدة عربية مخطوطة هي عبارة عن كتاب أرسله الإمبراطور نفقور فوكاس إلى الخليفة العباسي جاء فيها « واتعسا لاكم يا ساكني الصحراء ، عودوا إلى مهاجركم بهنعاء ، وإلا فسأفتح مصر بمجد سيفي ٠٠٠ ولأني لم أرسل قواتي إلى بغداد ، محتلا الطاق [يعنى إيوان كسرى] وجانب السكرخ ، وسأحرق نواحي بغداد ، وسأنهر في كل مكان دين الصليب » ، راجع أيضا في هذا الصدد ما جاء في Schlumberger : L'Épopée Byzantine, p.257. كذلك يمكن للقارئ مراجعة صورة من الرسائل المتبادلة بين الإمبراطور نفقور وبين الرشيد ولهجتها العنيفة في كتاب العصر العباسي الأول للدكتور عبد العزيز الدوري ، ص ١٤٦ .

(٣) كانت السفن التي خرجت لهذا الغزو تحمل أعلاما رسم عليها صور المسيح والعذراء والقديسين جورج وديمترى وتيودور ، ومن هذا نستدل على أنها كانت حربا دينية ، راجع

في ذلك Rousset : La première croisade, p. 29.

(٤) راجع أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، (طبعة الآستانة) ج ٢ ص ١١٠ ،

والدائرة مادة « أبو فراس » .

تصويرها للحالة العامة القائمة إذ ذاك ، ومبلغ ضعف القوة الإسلامية عن دفع
الخطر البيزنطى عما يهدد هيبتها ، ولعل فى قوله :

وقد كنت أخشى الهجر ، والشمل جامع

وفى كل يوم لقية وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر

وللبحر حولى زخرة وعباب

ما يدل دلالة صريحة على بأس الإمبراطور البيزنطى وقوة الدولة المعادية
التي استطاعت أن تبلغ ذروة الفتح على حساب المسلمين سنة ٩٦٩ م (٥٣٥٩)
باستردادها أنطاكية واستكثارها من العنصر المسيحى فيها ، وإلقاء مقاليد
الأمر بها إلى عمال بيزنطيين . وزادت الأحوال الإسلامية فى تلك البقعة
سوءاً بانتصار أحد القواد المسلمين على سيف الدولة وباستنجاهه بالقوى
النصرانية المجاورة ودفعه الجزية لها ، واعترافه بالتبعية السياسية لبيزنطية (١) .
غير أن حركة التقدم البيزنطى الصليبي أصيبت بتوقف لفترة وجيزة من
جاء الفتن الأهلية الداخلية ، التي ختمت بالمؤامرة التي خلعت نفور عن
العرش ليحل محله القائد الحربى حنا الشمشيق (٢) John Zimiskes ، وتولى
حنا الأمور تنتقل حركة الفتح إلى الجنوب ، قاصدة بيت المقدس ذاتها ،
ونستدل على ذلك من رسالة الإمبراطور الصريحة إلى « أشود » (٣) الثالث
ملك أرمينيا التقي ، من أن « رغبة (الشمشيق) هي تخليص الضريح المقدس من
أيدي المسلمين ، والصلاة فيه (٤) » وكان سمعة حنا الحربية كانت معواناً له فى
سرعة تقدمه حيث دخل نصيبين يوم ١٢ أكتوبر ٩٧٤ م ، فغادرها أهلها
خوفاً منه .

(١) Schlumberger : Un Emp. Byzantin, p. 728—731.

(٢) وتسميه المراجع العربية أيضاً بالدمشق ، انظر أبو الفدا المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٩

(٣) Schlumberger : L'Epopée Byzantine, p. 254—255.

(٤) Mat. d'Edesse : (Doc. Arm.) t. I, p. 13—20.

وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥ م (= ٥٣٦٥) على طول البلاد الشامية ،
فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، وأراق الأفتكين صاحب دمشق
ماء وجهه إبقاء على ولايته ، فقد ترجّل هو وأصحابه عند قريتهم من « حنا »
حين زيارته دمشق ، وقبلوا الأرض بين يديه ، « ولعب أفتكين لعباً استحسنه
منه ابن الشمشق ، وشاهد من فروسية الأفتكين ما أعجبه ، فتقدم إليه بالزيادة
في اللعب ، ففعل ، وأثنى الملك عليه وقال « هذا غلام نجيب وقد أعجبنى
ماشاهدته منه » فترجل الأفتكين وقبل الأرض وشكره ودعاه ، فوهب له
حنا الشمشق الخراج (١) .

على أن موجة الفتح على حساب البلدان والإمارات الإسلامية لم تلبث
أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر (٢) واصطدمت بقوة الفاطميين الذين
أمدوا الإسلام بدم جديد وعصر قوى يتدفق حياة ويتطلع للفتح ،
وساعدتهم موارد مصر الداخلية على تنفيذ تلك الخطة ، وحاولوا أن يبرهنوا
على صدق دعواهم في عدم اعترافهم بخلافة بغداد ، وذلك بقيامهم بعمل إيجابي
يكون له وقعه وصداه في شقّ العالم الإسلامي ، فاستردّت مصر دمشق ،
وحاولت أكثر من مرة الإغارة على حلب والاستيلاء عليها لولا صلابه
الحامية البيزنطية ، ومن هنا يمكن أن يقال إن موجة الفتح البيزنطي ارتدت
وقعت من المجد الحربي بالدفاع ، هذا على الرغم من أن باسيل الثاني — الذي
خلف حنا الشمشق — لم يكن تنقصه الجرأة ولا الرغبة الصادقة في نهج
السيبل الذي شقه سلفه ، فما علم في سنة ٩٩٥ م (= ٥٣٨٥) باستيلاء الفاطميين
على حلب حتى بادروا وخلصوها منهم ، ثم سلب منهم شيزو وحمص ، ولم يستطع
قهر حامية طرابلس الفاطمية فاضطر للرجوع ، وقد نظم باسيل الثاني حين نسيم
استرداده لتلك البلاد بالنصر الحاسم ، لأن ذلك النصر حمل في طياته بذور

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، (نشره أمدرود) ص ١٣ — ١٤ .

(٢) Neumann : La Situation Mondiale de l'Empire Byzantin avant les Croisades (Rol., 1903), p. 128.

الضعف الشامل ، إذ ما كاد الإمبراطور يثوب إلى بلاده حتى وثب الفاطميون على عامله بأنطاكية وقتلوه في أفامية ، وتبع ذلك تقلص النفوذ البيزنطي في بلاد الشام ما عدا أنطاكية ، واضطر باسيل في سنة ١٠٠١ م (٣٩٢ — ٣٩٣ هـ) لعقد معاهدة مع الحاكم بأمر الله ، واشتد النفوذ الفاطمي هناك ، وإن أصيب بنكسة عارضة سنة ١٠٢٣ (٤١٤ هـ) لقيام أسرة صالح ابن مرداس في حلب ^(١) واستقلالها بالأمر حتى سنة ١٠٧٩ م .

على أن هناك عنصراً قوياً جديداً دخل في الدولة العباسية وشد من قواها ، ونعني به السلاجقة الذين وفدوا على العراق من سهول آرا ، وكان تحمسهم للإسلام وللهذه السني على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ، ووجدوا في بلاد العراق الخصيصة ما حملهم على الاستقرار ، حتى كانت سنة ١٠٣٨ (= ٤٣١ هـ) حين قام زعيمهم طغرل بك فاحتل جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوي ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان ، وتدرجت القوة السلجوقية في معارج البأس حتى بلغت الذروة ، واصطنع طغرل بك سياسة المهادنة مع البيزنطيين ، فأرسل سفارة إلى القسطنطينية لعقد السلام إجابة لطلب الإمبراطور ^(٢) ، وسار على خطته من بعده ابن أخيه السلطان ألب أرسلان من مناصبته الأرمن العداء واستيلائه على بعض مدنها ، كما أخذت جيوشه القدس والرملة من الفاطميين ^(٣) ، وعاصره الإمبراطور رومانوس ديوجين (١٠٦٧ — ١٠٧١ م) الذي حاول تقوية الجيش البيزنطي بضم عناصر مرتزقة مؤملا طرد السلاجقة من الأناضول ^(٤) ، ونجح في

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٢) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور مصطفى زيادة) ج ١ ، ص ٣٢ ، وراجع Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. XXIX ، وكذلك الدائرة ، مادة « طغرل بك » .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٣٣ ، وابن الفلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ — ٩٩ .

Vasiliev : Hist. de l' Empire Byzantin, t. I, p. 466 — 471.

(٤)

إخراجهم من منطقة قيصرية بأرمينيا ، إلا أنهم هزموا قائده الأرمني فيلارتوس في ملطية وسلبوها منه ، حتى إذا كانت سنة ١٠٧١ م تقدموا إلى قونية ولم تعز عليهم سوى الرها (١) فمضى عنها لمحاربة حلب ، واستطاع التغلب على أميرها رشيد الدولة محمود بن مرداس (٢) .

قام رومانوس ديوجين في ربيع ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) بمحاولة استرداد أرمينيا ، وجمع جيشاً ضخماً قوامه المرتزقة والتركمان (٣) ، حتى إذا بلغ بهم أرضروم قسمهم قسمين ، مضى أحدهما لمهاجمة خلاط بقيادة قائد البيزنطي يعاونه « رسل دي باليول » (٤) Roussel de Bailleul النرمانى ، والآخر بقيادة الإمبراطور قاصدا ملازكرت واستردها ، مما حمل ألب أرسلان على السير إليه ومنازلته يوم ١٩ أغسطس ١٠٧١ م جنوب المدينة (٥) ، وجد من الأمور مالم يجر قط في حسابان رومانوس ، إذ تحركت عصبية الدم عند مرتزقة التركمان ، فتركوه وانضموا إلى السلاجقة ، وكأن المقادير أرادت أن تسخر منه وأن تهون على نفسه موقف التركمان فأنته الخيانة على يد قواده ذاتهم ، وانفض عنه جميع من حوله إلا الأقلون ، بيد أنه أبلى مع هذه القلة البلاء الحسن حتى نفق من تحته جواده . وسبق أسيراً إلى ألب أرسلان الذى ما لبث أن رده ، بعد أن أخذ العهود عليه والمواثيق بترك التعرض لشيء من أعمال الإسلام وإطلاق الأسارى ، كما أخذ منه عشرة آلاف ألف دينار . ولكن ماجد بعد ذلك من القبض عليه على يد قواد ميخائيل السابع قرب « أطنة » يدخل ضمن نطاق التاريخ البيزنطى الخالص (٦) . وهكذا

Grousset : op. cit. loc. cit.

(١)

(٢) ابن الفلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠١ — ١٠٤

Vasiliev: op. cit. t. 1, p. 468.

(٣)

(٤) فيما يتعلق بالدور الذى لعبه هذا القائد الطامع ، وتعمده بعد قاتل على مولاة

الشرمى ومحاولة الاستقلال راجع 167 — 168 Neumann : op. cit. p.

Ency. Isl. article. "Malazgerd"

(٥)

(٦) كل هذه الحوادث مذكورة بالتفصيل فى ابن الفلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ،

ص ٩٩ — ١٠٥ ، وراجع أيضا 108 — 105 Neumann : La Situation Mondiale, p.

خسرت الامبراطورية البيزنطية وقعة ملازكرت التي يعدها معظم المؤرخين نقطة الانتقال في تاريخ الدولة والحروب بين الإسلام والمسيحية^(١). كما أدى إلى قيام الحروب الأهلية في بيزنطية وتنازع الطامعين في العرش. وليس من المبالغة في القول بأن الفضل في تمسك السلاجقة من الاستيلاء على كثير من مدن الأناضول راجع إلى الأحداث البيزنطية الداخلية.

ولما تولى «تتش» الأمر ضم جنوب سورية إليه. فاستولى على دمشق سنة ١٠٧٩ (= ٤٧١ هـ). واستقام له الأمر فيها وأحسن السيرة في أهلها^(٢)، ثم جد النزاع بينه وبين أخيه ملكشاه فخاف منه تتش ولم يحرك ساكناً ضد مافله ملكشاه من إقطاعه حلب لقسيم الدولة آق سنقر جسد بن زنجي، والرها لبران، وأنطاكية لياغي سيان. غير أنه بعد موت ملكشاه تحرك تتش في يونية ١٠٩٤ (جمادى الآخرة ٤٨٨ هـ)، وقصد حلب، فاجتهدت قوات بران وآق سنقر، وأمهدهما السلطان بركياروق بقوة من عنده بقيادة كربغا فلم تجدد نفعاً إذ انعقد لواء النصر لتتش، وإن حمل في طياته كل دلائل الضعف في وقت استعدت فيه أوربة لحمل السلاح لنجدة بيت المقدس، وهبت عليها ريح من التعصب والمطامع الشخصية، والرغبة في بسط سلطان الكنيسة اللاتينية على الكنائس في الشرق^(٣). إلا أن تتش مالبت أن قتل فتقاسم البلاد ابنه: رضوان (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ = ١٠٩٥ - ١١١٣ م) ومقره حلب، ودقاق (٤٨٨ - ٤٩٨ هـ = ١٠٩٥ - ١١٠٤ م) ومركزه دمشق، ودبت الشحنة بين الأخوين^(٤). ولم تخف حالة الضعف على الدولة الفاطمية في مصر، فأرسلت في أغسطس^(٥) ١٠٩٨ م الأفضل لأخذ بيت المقدس من يد بني أرئق إذ

(١) Vasiliev : op. cit. t. I, p. 499; Baynez : op. cit p. 138.

(٢) ابن الفلاس، شرحه، ص ١١٢

(٣) Rousset : la Première Croisade, p. 56.

(٤) توجد صورته من هذا النزاع في ابن الفلاس، الذيل، ص ١٣٣، وراجع أيضاً

أبو الفداء، المختصر، طبعة أوربة ج ١ ص ٣.

(٥) راجع في تحقيق التاريخ Hagenmeyer : Chronologie de la première croisade, p. 322, note 312.

نهض الوزير الفاطمي في شعبان سنة ٤٩١ هـ إلى بيت المقدس وفيه بنو أرتق ،
فراسلهم ملتمساً منهم تسليمه القدس من غير حرب ولا سفك دماء فلم يجيبوه
إلى طلبه ، وحينذاك قاتل البلد ونصب عليه المناجيق فهدمت ثلثة من سورته ،
واستطاع الفاطميون امتلاكه وتسلم محراب داود^(١) ، وهذا مظهر جلي من مظاهر
الضعف الشامل الذي ألم بالدولة السلجوقية ، واقترن زمنيا بظهور الإمبرطور
ألكسيس كومنين .

على أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لخطر جديد هو ظهور الزمان
كقوة فعالة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتطلعهم للاستيلاء على
بعض جزائرهم ، واحترافهم القرصنة فيه في وقت السلم ، ثم اتخاذهم سياسة
فتح جديدة وجهتها الشرق ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم
البيزنطيين ، ووضحت هذه النية صريحة منذ قيام روبرت جيسكارد حيث
أصبح دوق أبوليا وقلهورية من أعمال إيطاليا سنة ١٠٥٩م ، وتدخل في الأمور
الدينية^(٢) ، وانتهى أمره سنة ١٠٧١ م باستيلائه على مدينة « باري » عاصمة
الأملاك البيزنطية في جنوب إيطاليا^(٣) . ثم صرح روبرت جيسكارد بنواياه
في عزمه على الزحف على القسطنطينية ذاتها والتطلع لضرب الإمبراطورية
الشرقية في عقر دارها ، فكان ذلك العمل منه نواة للحملة الصليبية الرابعة ،
وقد حمل موقفه هذا ألكسيس كومنين على الاستنجد بسلیمان بن قطاش أمير
سلاجقة الروم ، فأمدّه بجيش كامل قوامه سبعة آلاف جندي في أتم معداتهم .

* * *

جرى الزعم على أن الدولة البيزنطية استنجدت في أواخر القرن الحادي
عشر بالغرب الكاثوليكي ضد المسلمين مما أدى إلى نهوض الحملة الصليبية الأولى

(١) راجع ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ .

Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 126.

(2)

Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis Comnène, p. 83 — 84; (3)

Vasiliev : op. cit. t. I, p. 474 — 475; Delarc : Les Normands en Italie, p. 438 — 439,

نحو الشرق ، وهو زعم قائم على فكرة الخطاب^(١) الذي أرسله الإمبراطور ألكسيوس كومنين إلى روبرت كونت فلاندر (١٠٧١ - ١٠٩٣ م) ، وإلى استنجاهه بالبابا ضد السلاجقة ، ويتشكك السكونت ريان^(٢) في صحة هذه الرسالة فيتساءل مستنكراً « أمن المعقول أن يطلب ألكسيوس النجدة من الغرب ، وأن يطلبها بالذات من كونت فلاندر ؟ » ، ويذهب في تحليل فكرة الرسالة إلى أبعد من هذا فيرى أن الإمبراطور لم يقصد بحال ما من الأحوال الاستغاثة بالغرب ضد الأتراك ، ذلك أن لفظ « الوثنيين » الوارد في رسالته إلى روبرت لم يعن به السلاجقة أبداً ، بدليل أن « حنة كومنين » ابنة الإمبراطور لم تسمهم قط بهذا الاسم^(٣) ، ثم هناك من يشك في تاريخ هذه الرسالة فيجعلها بعض المؤرخين سنة ١٠٨٨ (= ٤٨١ هـ) ، ويؤجلها البعض الآخر إلى سنة^(٤) ١٠٩١ (= ٤٨٤ هـ) والمدة بين آخر التاريخين وبين دعوة البابا إربان الثاني للحرب الصليبية ليست بالقصيرة . وقد ناقش شالاندون^(٥) فكرة استنجاه الإمبراطور بالبابا ، ودحضها دحضاً تاريخياً ، وهو يبنى رأيه على أن الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت بالذات لم تكن في حاجة « إلى مساعدة الغرب لها ، وأن تلك الفترة كانت أهدأ فترة في تاريخها منذ أن تولى الحكم بها ألكسيوس كومنين » وأن الغرب اللاتيني هو أول من يدعو لمثل تلك الحروب ، لما يلاقيه حجاجه من العنت . على أن هناك مؤرخاً روسياً^(٦)

(١) ترجمة هذا الخطاب اللاتينية واردة في 132 — 131 ، Albert d' Aix, t IV, وقصته إن صحت — هي أن كونت فلاندر كان قد حج في سنة ١٠٨٧ إلى الأراضي المقدسة ، ومرّ في عودته بالدولة البيزنطية حيث التقى بالإمبراطور ألكسيوس كومنين ، ووعدته السكونت بمساعدة بحماسة فارس من أوربة ، ولم يكن اصطلاح الإمبراطورية البيزنطية للجنود المرتزقة بالأمر الجديد فيها ، أنظر Vasiliev : L' Empire Byzantin, t. I, p. 468.

(2) Riant: Inventaire, p. 74 — 75 et 82.

(3) Riant : Inventaire, p 84, note 24.

(4) Vasiliev : Op. Cit. t. II, p. 15 — 18.

(5) Chalandon : Essai sur le règne d' Alexis Comnène, p. 155 — 158.

(6) Vasiliev : L' Empire Byzantin, t. II, p. 19.

محدثا يقف موقف الوسط ، فيرى أن الإمبراطور أرسل في طلب قوة من الغرب ، وأنه كان يتأهب سنة ١٠٩٥م لمحاربة السلاجقة في الوقت الذي علم فيه بنهوض الحملة إلى الشرق . والواقع أن اختلاف الرأي بين المؤرخين حول هذا الموضوع مما يلفت النظر ، فالقائلون بصحة الاستغاثة ضد السلاجقة يهدفون من وراء ذلك إلى بيان ما انطوت عليه الإمبراطورية البيزنطية من الضعف الشديد إبان هذه الحقبة بالذات ، وهو قول يدحضه الواقع التاريخي حتى إننا نلاحظ أن كل حرب لم تساهم فيها القوات البيزنطية كانت فاشلة أو شبه فاشلة ، ويهدفون من وراء ذلك أيضا إلى الاعتراف الضمني بسلطة الغرب وقوته .

أجل ! لقد كانت هناك علاقات بين بيزنطة ورومة اتسمت بالود والمصافة لاسيما إبان النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد ، وحاولت البابوية استغلال هذه الصداقة لصالحها الخاص ، وذلك بإظهارها نفسها حامية المسيحية في العالم بشطريه ، وأنها تهدف لرعاية النصارى مهما تباينت مذاهبهم ، فقد كتب البابا جريجورى السابع رسالة إلى هنرى الرابع ملك فرنسا ينبشه فيها باعتزامه تجهيز حملة تنهض للشرق رحمة بنصاراه وتخليصا لهم مما يكابدونه من ضروب العسف ، وأنه معتزم قيادة هذه الحملة ^(١) شخصا حتى تدرك كنيسة القيامة . ومع ما قد يُبنى على هذا من الحكم بالموادعة السكريمة بين بيزنطة وبين الغرب ، إلا أن اعتزام البابا المضى إلى بيت المقدس يفصح عن أطماعه الخاصة في بسط سلطان كنيسة رومة على الكنائس الأرثوذكسية في بلاد الشام على الأقل . ومهما يكن الأمر فقد كان ذلك كله تمهيدا لحملة ١٠٩٥م الغربية البابوية .

والواقع أن الحملة الصليبية الأولى — على وجه التخصيص — ليست سوى حجّ مسلح إلى الأراضي المقدسة ، شجعت عليه البابوية مستغلة الشعور الديني ، ومصورة المحنة القاسية التي تمر بها الكنائس في الشرق ، وما

(1) Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 15.

ترسف فيه بيت المقدس من الذل وما يؤدي إليه ذلك من أهوال جمّة يعانينا حجاجه^(١).

«عَبَدُوا طريق الرب ، واصنعوا سبله مستقيمة» .

لا سبيل إلى ذلك التعييد إلا بنهوض المسيحيين من مختلف أقطار أوربة الغربية بعائلاتهم وأولادهم والاستقرار في فلسطين حتى يحل العنصر المسيحي محل العنصر الإسلامي ، وحتى لا يجد الحجاج أنفسهم فيما بعد غريبين عن وطنهم الروحي . . . تلك هي فكرة البابوية التي حاولت أن تنبث في الأذهان ونححت فيها إلى حد بعيد ، يدل عليه اشتراك كثير من شعوب الغرب في الحملة ، وخروج كثير من القادة والفرسان والمخاطرين إلى الشرق على رأس هذه السكتائب الكثيفة .

ولقد احتضنت البابوية فكرة الحج المسلح ، فأناب البابا عنه أسقف پوى : أديماردى مونتيل Adémar de Monteil . وفتح كونت تولوز فيما عقده من الأمل في أن يكل البابا إليه القيادة الحربية ، فلم يغن عنه ماله وحسبه وسلطانه ومعاونته الكنيسة مراراً ، ولم يحمله ذلك الرفض من جانب البابا إربان الثانى على التراجع بل نهض لما أزمعه بنفس راضية وعزيمة قوية^(٢) ، ولعل ذلك راجع إلى أن القواد الصليبيين المختلفين كانوا يعلمون علم اليقين بأن الحملة مشروع بابوى محض ، وليس أدل على اعتناق الجميع هذه الفكرة من أنهم حين مات أديمار - كتبوا إلى البابا يسألونه المجيء لقيادة الحملة^(٣) ، كما أنهم بعثوا إليه رسالة ينبئونه فيها بنحز منازلهم حامية عسقلان المصرية^(٤) . على أن في إمكاننا القول بأن الحملة الصليبية الأولى كانت الامتداد الطبيعي لحركة الاسترداد الاسباني في الغرب المعروفة بالـ *Requista* ، وغرضها

(1) Cf. Fliche : L'Europe Occidentale, p. 546; Foucher, t. IV. p. 323.

(2) Raim. d'Ag., t. III, p. 235 — 236.

(3) Leib : Op. Cit. p. 221; Hagenmeyer : Chronologie, No. 314.

(4) Hagenmeyer: Chronologie, No. 429.

إضعاف القوات الإسلامية في شمال إفريقيا ، وطردها من إسبانيا . وكل هذه الأحداث ليست سوى تمهيد لاسترداد بيت المقدس .

* * *

كان البابا إربان الثاني يتحين الفرصة الملائمة لإثارة الغرب ، وقد نظمه إذا قلنا أن الدين كان هو كل شيء في الحركة ، بل الواقع أن البابوية — كقوة في أوربة (١) — كانت تخشى أكبر الخشية من زيادة بأس الزرمان (٢) ، ولعلها وجدت الفرصة مواتية للتخلص منهم بتوجيه نشاطهم الحربي لخدمة الدين والكنيسة في الشرق وإبعادهم عن مسرح السياسة الأوربية (٣) ، ومهما يكن الأمر فالظاهر الثابت هو عقد مؤتمر كليرمونت ، حيث خطب إربان خطبته المعروفة ، مما ظهر أثرها في صيحة السامعين جميعا « هكذا أراد الله (٤) ، Deus vult » ، وجاء إليه « إديمار دى مونتيل » وركع عند قدميه وكان أول من حمل الصليب ، فجعله البابا قائد الحملة الروحية ، وكان لإديمار من التأثير على المساهمين في الحرب قصد تخليص بيت المقدس ما تفصح عنه كتابات المؤرخين ممن شاهدوا الحملة ، يستوى في هذا التأثير الأشراف والدهماء على السواء .

وقد تخوف البعض من دعوة البابا إربان الثاني لعقد مؤتمر كليرمونت الذي حدد له يوم ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ ، فخال ملك إنجلترا بين رجال كنيسه وبين المساهمة في المؤتمر ، وحضرت قلة من أكليروس ألمانيا (٥) . أما ملك فرنسا فجهد في حث جميع طبقات شعبه على المساهمة فيه (٦) ، ورغم ما هو معروف عند الناس من أن مؤتمر كليرمونت عقد لبحث المسألة الصليبية إلا

Powike : Christian Life in the Middle Ages, p. 22. (1)

Rousset : La première croisade, p. 47—48., Delarc : Les Normands en Italie, p. 202—237. (2)

Delarc : op. cit., p. 143—144, 192—194, 312. (3)

Rob. Mon., p. 729. (4)

Rob. Mon., loc. cit. (5)

Chalandon : Histoire de la première croisade, p. 25 et note 2 (٤) ناقش المؤرخ

عدد الأساقفة والمطارنة الذين اشتركوا في المؤتمر ، معتمدا على المصادر الأولى في هذا الموضوع ، فبين اختلافها حول عددهم ، وهم ما بين ١٩٠ ، ٤٦٣ ، والفرق شاسع .

أن دراسته تبين لنا أن البابا انصرف في جلساته الأولى التي استغرقت مدة أسبوع لمناقشة المسائل الدينية التي تهم الكنائس ورجال الدين عامة ، ولم يتخذ المؤتمر قرارا بشأن إنفاذ الحملة الصليبية للأراضي المقدسة إلا في جلسة قصيرة بعد أسبوع (١) ، وذلك في خطبة له واردة على شيء من الاختلاف باختلاف المصادر التي ذكرتها (٢) .

لم يقتصر البابا على مؤتمر كليرمونت بل تعددت المؤتمرات التي خطب فيها من أجل حمل القوم على الانخراط في الجيش الماضي إلى فلسطين (٣) ، وراح يذرع أرجاء فرنسا عاقدا المجامع (٤) مكرزا للدعوة التي استولت على نفسه ، وطبيعي أن تجد هذه الدعوة آذانا صاغية وقلوبا واعية لاسيما عند طبقات الشعب الدنيا وهم غالبية السكان ، هذا إلى أن بعضهم كان يطمع في أن يتحرر من ملازمته أرض السيد حسب النظام الاقطاعي المألوف وقتئذ ، كذلك قوبلت الدعوة بالتأييد من جانب « الجنوئية » البحرينيين الذين وعدوا بالمساهمة ببعض السفن لنقل الحجاج والذخيرة والأقوات ، ودخل أهل « بيزا » إلى جانبهم لقاء بعض الامتيازات التي قدروها وحققها لهم النصر الصليبي في بلاد الشام وفلسطين كما نرى هذا الأمر جليا في اشتراك الأسطولين جنبا إلى جنب في حصار أرسوف وعكا فيما بعد (٥) . وإذا كان العامل المادي قد أغرى الجمهوريات الإيطالية التجارية على المساهمة في حملة الحجاج المسلحين للشرق فقد وجدت إلى جانب هذا العامل روح من التصوف الديني ترجمت عن نفسها في شخصية بطرس الناسك الذي اختلطت الحقيقة بالخرافة في تاريخه ، والذي كان تأثيره الشديد على سامعيه — لاسيما من الطبقات الدنيا والجاهلة — أكبر معوان على تحقيق الفكرة العامة التي اختمرت ولم يبق إلا

Rob. Mon., loc. cit.

(1)

(٢) أنبه القارئ هنا إلى أنني أوثر الاعتماد على روايتين هما الصدارة في هذا الموضوع

Rob. Mon., t.III, p. 727 ; Foucher, p. t IV, 323. ما :

Riant : Inventaire, p. 109—110, lettre No. XLIV.

(3)

Riant : Inventaire, p. 116.

(4)

Heyd : Hist. du Commerce, t. I. p. 139 note 3, et p. 146.

(5)

تنفيذها^(١). فقد خرج في أبريل ١٠٩٦ ومعه خمسة عشر ألف صليبي ، حتى إذا بلغ مدينة كولونيا شجب نزاع بينه وبين جوتيه سانز أقوار Gautier Sans- avoir ، وذلك لما رآه جوتيه من وجوب متابعة السير إلى القسطنطينية ، مما أدى إلى انفصاله بمن معه عن بقية الجيش الصليبي ، حتى إذا بلغ بلغراد حامت شبهاة المسئولين هناك حوله وحول رجاله فكشفوا أيديهم عن تموين أصحابه مما حملهم على السلب والنهب ، وتعقدت الأمور تعقدا اضطر جوتيه معه للبادرة إلى الرحيل شطر القسطنطينية حيث تلقى أمر الإمبراطور يوم ٢٠ يوليو ١٠٩٦ م بالتريث وانتظار جماعة بطرس ، ثم التقى الاثنان عند العاصمة واتفقا على العمل معا وتوحيد جهودهما للغرض المشترك .

طمع ألكسيس كومنين أن يستغل القوات الصليبية لصالحه ، ورأى منذ اللحظة الأولى أن تشرع هذه السيوف المصلطة لرد ما فقدته الإمبراطورية البيزنطية من قبل ، ومن ثم بعث إلى بطرس وتلقاه لقاء كريما ووعداه بمساعدته في سبيل الغاية التي جاء من أجلها من أوربة^(٢) ، فقطع بطرس العهد على نفسه أن يسير جنده سيرة تليق بهم كفرنسان مسيحيين في أرض مسيحية ، إلا أن رجاله لم يحترموا هذا العهد وعاثوا في الأرض فسادا ، فطلب إليه الإمبراطور أن ينتقل بجماعته إلى آسيا الصغرى ، وبعث إليهم بمراكب نقلتهم يوم ٧ أغسطس ١٠٩٥ ، ولم تكن هذه الجماعة بالفئة المنظمة ، بل همها التمتع بكل ما تطلع إليه فارتكب رجالها من الأهوال والمباذل في إزنيق ما لا يتفق قط والتعاليم المسيحية ، وقاتلوا إخوانهم في الدين وانتصروا على أهل Xerigordon^(٣) .

كذلك قدم جودفروي دي بويون Gaudefroi de Bouillon وأخوه

Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 69.

(1)

Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 193—194.

(2)

(٣) فيما يتعلق باختلاف تحديد موقعها راجع : Chalandon : Histoire de la première croisade, p. 82, note 2.

بلدوين^(١)، وكان ألكسيس مهتما غاية الاهتمام بأن يأخذ من جودفروى يمين الولاة له، وأن يقسم له برد ما يتم على يده من فتح بلاد كانت تابعة من قبل للإمبراطورية ثم سلبها منها المسلمون فى العصور المختلفة، وبعث إليه برصولين^(٢) من قبله طلبا منه أن يأمر جنده بكف أيديهم عن أعمال التخريب والسلب، ويدعوه أن يعسكر هو وجيشه أمام القسطنطينية، فعسكر جودفروى يوم ٢٢ ديسمبر ١٠٩٦، غير أن بقية ما طلبه ألكسيس أثار مشكلة أمام الفارس الصليبي، إذ كيف يقطع يمين الولاة لإمبراطور شرقي؟ ألا يترتب على ذلك تبعيته الإقطاعية له؟ ثم إنه كاثوليكي المذهب، والامبراطور أرثوذكسى؟ لقد رأى فى هذه اليمين خيانة منه لهنرى الرابع وللبابا إربان الثانى، لذلك عمد لتأجيل البت فى كل تلك المسائل حتى تفقد بقية الجيوش، وحينذاك لا يستطيع الإمبراطور أن يفرض عليه هذا الطلب الجائر، ولم يخف مقصده بطبيعة الحال على ألكسيس كومنين، فكف يده عن تموينهم، لكنه ما لبث أن نسخ ما قرر حين أبصر بلدوين يعيث نهباً فى نواحي المدينة، مما أثار الفوضى وفزع أهل تلك النواحي الآمنين^(٣)، فسمع لهم بالعسكرة فى يرا المطلة على القرن الذهبى.

بقى جودفروى حيث هو حتى شهر مارس ١٠٩٧ دون أن يلتقى بالإمبراطور، وتوترت العلاقات بينهما لا سيما حين سمع ألكسيس بقرب مقدم بوهيمند النرمنى أمير تارنت وابن عدوه روبرت جسكار، لذلك فكر فى اتخاذ خطة حاسمة منذ البداية، وهى المبادرة إلى محاصرة الجيش اللوثرانجى، فضيق الحناق عليه، واضطر جودفروى فى النهاية للنزول على رأى خصمه^(٤) وقطع يوم ٨ أبريل ١٠٩٧ يمين الخضوع له أمام رهط غفير من كبار رجالات الدولة، وتبعه من معه من كبار الصليبيين^(٥).

(1) Leib : op. cit. p. 196—197, 215—217.

(2) Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 16.

(3) Alb. d'Aix, p. 300.

(4) Alb. d'Aix, p. 307—308.

(5) Ibid., p. 310.

أما أخوه بلدوين فلم يحضر هذا الحفل لتوليه الجيش مكانه ، وكان معنى هذا القسم أن الحملة — أوقسما من الحملة على الأقل — خرج من بلاده بأذلا روحه في سبيل استرداد الإمبراطورية البيزنطية ما سلبه السلاجقة منها ، وكان الغرب الكاثوليكي لم يعتقد أن يكون كف قط لتحقيق مطامع بينطة السياسية وأحلامها. صبح ما توقعه جودفروي من مجيء الجماعات الصليبية ، فوفدت حملة ريموند الصنجيلي كونت تولوز بعد قليل من مقدم النرمان برياسة بوهيمند الذي أخلف موقفه ظن الصليبيين فيما كان معقوداً عليه من الآمال في إرهاب الإمبراطورية وحملها على اتخاذ سياسة المودعة نحوهم وتزويدهم بالذخائر والإمدادات ، بعد أن لقوا في سفرهم هذا نصباً ، وكانت الإمبراطورية من جانبها هي الأخرى تخشى كل الخشية من مقدم النرمان لأنها تدرك الدوافع التي تحركهم للمجيء إلى الشرق وهي دوافع أبعد ما تكون عن الدين أو التحمس لتخليص بيت المقدس ، لأن سياسة النرمان التقليدية تنزع نحو مناظلة الإمبراطورية البيزنطية ، وسلب ما في يدها من الأملاك في الغرب ثم التحرك نحو القسطنطينية ذاتها .

على أن بوهيمند كان يطمع في تأسيس إمارة شرقية زمرانية ، ورأى الحكمة في اصطناع اللين والمودة مع الإمبراطورية البيزنطية ، فنبذ جانباً ما توقعه الجميع منه ، فلم نعد نرى من جانبه شيئاً من العداء لبيزنطة أو إقامة العراقيل والمشكلات أمامها في تلك الفترة ، وسيله التودد إلى البلاط ، وهل أدل على إثارة المودة والعافية من مقدمه على الإمبراطور يوم ١٥ أبريل ١٩٠٧ ، حيث أقسم له يمين الولاء والخضوع دون أن يبدي أية معارضة ، فخلع عليه الكسيس الخلع الثينة ووصله بالهدايا الغالية . ولم يكن ما حدث متوقفاً من بوهيمند^(١) ؛ لذلك خشي تانسكريدوريتشارد أمير سالرنو أن يحملها بوهيمند على الاقتداء به فيما فعل ، فرحلا سراً وعسكراً عند خليج نيقوميديا إلى جانب جيش جودفروي^(٢) . وقد دلت هذه السياسة على أنه يطمع في تكوين

(1) Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 79.

(2) Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 137.

إمارة في الشرق خاضعة للإمبراطورية البيزنطية ، ولا شك أنه كان يهدف إلى أنطاكية ذاتها ، مما سيفسره مجرى الحوادث بعد قليل .

كذلك وصل ريموند الصنجيلي كونت تولوز بحملته إلى القسطنطينية في النصف الثاني من أبريل ١٠٩٧ ، وأنكر على الإمبراطور أن يطلب منه أن يقسم له اليمين المطلوبة ، ولكنه كان حنيكاً حين أوقف هذا الشرط على أن يخرج الإمبراطور بنفسه على رأس الجيش الصليبي وأن يقوده إلى الغاية التي من أجلها خلف وراه وطنه وبنيه^(١) . إلا أن ألكسيس حاول تبرير تقاعده مؤقتاً عن قيادة الصليبيين باضطراب الأمور في الأملاك البيزنطية اضطراباً يحمله قسراً على البقاء حيث هو^(٢) . وأراد ريموند الشار لجيشه مما لحقه في أوربة على يد عمال الدولة البيزنطية ، يئس أن جودفروي من الاستسلام لغضبه ما دام هدفه نصر الصليب ، مبيناً له مقدار الخطر الذي تتعرض له القوات الصليبية من التفكك والانصراف عن متابعة الزحف إلى فلسطين ، لاسيما والسلاجقة قريبون منهم في أزيق^(٣) ، فرضخ ريموند على كرهه منه ، خصوصاً وأنه كان يدرك تحت أي الظروف اضطر جودفروي لقطع تلك اليمين واضطراره عليها .

ثم لم تلبث قوة صليبية أخرى أن غادرت فرنسا قاصدة القسطنطينية بقيادة الكونت روبرت كورتهوز بن وليم الفاتح وأخوه هنري الأول ملك إنجلترا ، وضمت هذه القوة كثيراً من قواد النرمان وأشرفهم أمثال إيتين كونت بلوا ، وأيود أسقف بايو ، وفيليب بن هوتجمري ، وصحبها المؤرخ فوشيه الذي ترك لنا صورة مشرقة الجوانب والألوان عن حسن استقبال البيزنطيين للصليبيين ، ودعوتهم إليهم للصلاة في كنائسهم ، كما أعجبه رخاء الدولة وغناها وتعدد مصادر الإنتاج فيها ، وبادر الزعماء لقطع اليمين

(1) "Et tamen fore, si imperator cum exercitu iret Iherosolimam, quod se et suos et sua omnia illi committerat." Raim. d'Agiles, p. 238.

(2) Raim. d'Agiles., p. 238.

(3) Raim. d'Agiles, p. 238.

للإمبراطور وإن لم يمنعه ذلك من التخوف منهم، فلم يأذن لهم بالمسير جميعاً مرة واحدة، بل أمر أن يكون دخولهم المدينة في شراذم ضئيلة، لا تعدو الواحدة منها ستة حجاج، بين كل جماعة وأخرى فترة من الوقت ترقى إلى الساعة حتى لا يكون تجمعهم مغرياً إياهم على اصطناع العنف مع الأهليين^(١).

من كل ما سبق يتضح لنا بجملاء أن القوات الصليبية المختلفة التي وفدت إلى الشرق في الحملة الأولى استجابة لدعوة البابا إربان الثاني اعترفت صراحة أو ضمناً بولائها للإمبراطور، وتبعيتها له، وتلى ذلك يمينها بإرجاع كل ما كان في يدها من أرض استولى عليها السلاجقة، الأمر الذي لم يخف على الكتاب المسلمين أيضاً^(٢).

على أن المودة التي توشجت ظاهرياً في البداية — وإلى فترة غير قصيرة نسبياً — بين ألكسيس وبوهيمند، قد حملت كثيراً من الزعماء على الاقتداء بابن جسكارد والنسج على منواله في اصطناع سياسة الولاء والطاعة والتبعية نحو الإمبراطور الذي عقد مع بوهيمند في مايو ١٠٩٧ م إتفاقية تعهد فيها الصليبيون بطرد السلاجقة من نيقية ومن أنطاكية أيضاً^(٣)، ويقول ابن القلانسي إن «الأفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلبوا إليه أول بلد يفتحونه، ففتحوا نيقية وهي أول مكان فتحوه»^(٤)، وكذلك استطاع ألكسيس عقد اتفاقيات مشابهة لهذه في روحها مع كثير من زعماء الصليبيين بفضل تأثير بوهيمند عليهم، واتفق الإمبراطور معهم على أن يخرج هو على رأس إحدى الحملات، كما تعهد بحماية الحجاج أثناء مرورهم ببلاده في طريقهم إلى الأراضي المقدسة^(٥). وحين تم هذا الاتفاق العجيب بين الإمبراطورية من جانب وبين بوهيمند والقادة الأوربيين من جانب آخر، خرجت القوات الصليبية بقيادة تنكريد وجودفروي دي بويون، كما أنفذ معها الإمبراطور كتيبة بينظية

(١) Chalandon : Histoire de la première Croisade, p. 157.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٣٥.

(٣) ابن الأثير، السكامل في التاريخ، ج ١ ص ١٩١.

(٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥.

(٥) Chalandon : Essai sur le règne d' Alexis Comnène, p. 188 ; Hist. de la première croisade, p. 161.

بكامل معداتها بقيادة تاتيكوس Tatikios ، وقصد المحاربون أزميدحيث بقوا بها ثلاثة أيام انضم إليهم بعدها بطرس الناسك بمن نجى معه من كوارث الطريق . أما بوهيمند فقد بقي في القسطنطينية إلى جانب ألكسيس كومنين يدبر معه مسألة التموين البرى والبحرى للقوات الصليبية ، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الصلات الوثيقة بين العاهل البيزنطى والقائد النرمنى ، وإن كان كلاهما مماذقاً لصاحبه ، ثم إنه يشير من طرف خفى إلى زعامة بوهيمند غير المباشرة على القوات والقواد معا .

أما بقية الصليبيين فقد رحلوا ومعهم جودفروى الذى أرسل ثلة من عسكره شقت مخرجاً وسط الجبال المطلّة على الطريق من نيقوميديا إلى نيقية التى بلغوها يوم ٦ مايو ١٠٩٧ م ، وحاصروها من جميع النواحي ماعدا المنطقة الجنوبية حيث توجد بحيرة هرسك ، التى كانت المنفذ الوحيد لقوات السلطان قلاج أرسلان ، إلا أن هذه النجذات اصطدمت بقوات ريموند الصنجيلى وأديمار التى وقفت عند المسالك المختلفة ، وقصّر قلاج أرسلان فى مساعدة عساكره مما حملهم على الاستسلام^(١) للقوات البيزنطية التى أنقذها ألكسيس كومنين ، وقد اصطنع الصليبيون منتهى القسوة إزاء جميع من وقع فى أيديهم من أسرى عدوهم ، فعمدوا إلى قطع رؤسهم وإلقائها وسط المعسكرات الإسلامية ، وطال انتظار السلاجقة للقوات التى أملوا أن تصلهم فلما يشبوا أدركوا أن لا بد لهم من التسليم أن أجلاً أو عاجلاً^(٢) . والواقع أن استسلام القوات السلجوقية للبيزنطيين يكشف عن حقيقة نظرة الإمبراطورية لحلفائها المفروضين عليها ، وهذا الاستسلام نتيجة اتصال سرى بين الترك وبين مانويل بوتوميتس القائد البيزنطى ، إذ شكسهم فى كل أمان يقطعه لهم

(١) Math. d'Edesse, (Documents Armeniens), p. 28. وذلك كما يقرر لانشفاله

بمعاربة ملطية التى كان يتولى أمرها فى ذلك الوقت بالذات الأمير خوريل الأرمنى ، على حين أن هناك من يدحض هذه الفكرة نظراً لبعدها ملطية عن مجلى الصراع ، راجع

Daulaurier : Doc. Arm. t. I, p. 28, note 1.

(2)

الصلبيين الذين كانوا يجهلون ما يدور في الخفاء ، فلا عجب إذا اشتدت دهشتهم حين بوغتوا بالأعلام البيزنطية تخفق على أسوار نيقية يوم ٢٦ يونيو^(١) ١٠٩٧ م ، على أن الإمبراطور استعد للأمر من قبل ، وأدرك أن معظم هؤلاء المحاربين من « فقراء المسيح Pauper Ghristi » ، فدأب على إرسال الهدايا إليهم والعناية بهم؛ مما حملهم على الاطمئنان إلى جانبه والانخداع به ، حتى لقد أقسموا ألا يغادروا نيقية أو يستردوها ويردوها لآلكسيس^(٢) فهل كانوا في عملهم هذا أكثر من جنود مرتزقة يذلون دماءهم وأراحهم في سبيل استرجاع الإمبراطورية ما كان لها من قبل^(٣) ؟ لقد استطاع الإمبراطور البيزنطي بسياسة العجيبة أن يصيب من التوفيقات ما لم يكن يدور قط بخلد أحد ما ، ولعله لم يدر بخلده هو الآخر أيضا ، فقد تهيأ له من النصر القريب ما يتمثل في قطع الأمراء الصليبيين يمين الولاء له ، زد على ذلك تغلبه بدهائه على بوهمند الزماني — عدو الدولة التقليدي — ، ثم ختم ذلك — في بداية المرحلة — باستماتته « شعب الفرنجة » — على حذوق المؤرخين الصليبيين — إلى جانبه ، واستماتتهم في الدفاع عن مصالحه الخاصة . ولم يفت ذلك الأمر جماعة من المقاتلين ، فترى مؤرخنا المجهول قل أن يذكر اسمه إلا مقرونا بنعوت تفصح عن مبلغ إدراكه لحقيقة الواقع .

تولى بوتوميثس القلعة ، وحينذاك عاد بعض القواد إلى الإمبراطور للاتفاق معه على تحديد وجهة الحملة ، فتم الرأي على قصد أنطاكية ، كما اتفق على مساهمة الإمبراطور ذاته في الحملة ، بيد أنه أناب مرة أخرى قائده تاتيكوس وبذلك تخلى عن الميدان .

غير أن الصليبيين انقسموا في الطريق شطرين ، أحدهما بقيادة أديمار وريموند وجودفروي ، والآخر ضم زمان إيطاليا وفرنسا بقيادة بوهمند وتنكريد وروبرت بن وليم الفاتح ، والظاهر أن ذلك الانقسام كان رغبة

(1) Guillaume de Tyre, (R. Hist. Occ. Cr.), t. I., p. 125—128. Stevenson : Crusaders in the East, p. 12

(2) Ram. d'Ag., p. 240.

(3) Chalandon : Essai sur le règne d' Alexis Comnène, p. 191—192.

منهم في تيسير تموين قواتهم . ولما سمع قلعج أرسلان بزحف الجيوش الصليبية وتقدمها نحو « إسكي شهر » خرج على رأس قوات كبيرة ضمت أشتاناً مختلفة من السلاجقة والعرب والتركمان ^(١) وكان أقرب إلى الصليبيين داراً فوافاه من التركمان مع عسكر أخيه العدد الكثير ، وقويت بذلك نفسه واشتدت شوكمته ، فزحف إلى معابرههم ومسالكهم وسبلهم ، فأوقع بكل من ظفر به منهم بحيث قتل خلقاً كثيراً ، واصطدم الجيش الإسلامي يوم ٤ يوليو ^(٢) ١٠٩٧ بقوات بوهيمند منفردة ، وأوشك الجيش الصليبي على الهزيمة لولا أن أنجده قوات جودفروي حين وصلها الخبر ^(٣) ، ثم تلتها قوات إديمار ، وأدى مقدم هذه القوات إلى تغيير دفة القتال ، وتنفس بوهيمند الصعداء ، ورتب الصليبيون أنفسهم على شكل مروحة في ميمنتها ريموند وأديمار وجودفروي وكونت فلاندر ودوق ثرماندوا ، وفي ميسرتها قوات تنكريد وروبرت ابن وليم الفاتح ، فلما رآهم المسلمون تفرقوا ، وتواصلت الأخبار — كما يقول ابن القلانسي ^(٤) — بهذه « النوبة المستبشرة في حق الإسلام — أعظم القلق ، وزاد الخوف والفرق ، واشترى ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً وحملهم إلى القسطنطينية » .

استراح الصليبيون مدة يومين ثم مضوا يتوغلون في مناطق انعدم فيها الماء ، فهلك عدد غير ضئيل من جيادهم ، ولحقوا من الأهوال ما انطبعت صورتها في أذهانهم ، وخرجوا بعدئذ إلى ناحية قونية في منتصف أغسطس ١٠٩٧ م ، فوجدوها خالية ليس فيها من يدافع عنها ^(٥) ، وغادرها أهلها

(١) فيما يتعلق بالمدلول التاريخي لهذه الكلمات راجع Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 41, note 2 .

(٢) تحديد التاريخ الميلادي وارد في Gibb : Op. Cit. p. 42 أما ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ، فيورده يوم ٢٠ رجب ٤٩٠ هـ .

(٣) G. T., (R. H. Occ. Cr.), t. 1, p. 138.

(٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ وراجع أيضاً : Math. d'Edesse ,

(Documents Armeniens), t. 1, p. 29 et note 1.

G. T., op. cit. loc. cit.

(5)

بعد أن حملوا معهم كل ما قد يستطيع الجيش المغير الارتفاع به . أما السلاجقة فقد قاموا بآخر محاولة في صد الصليبيين عند مدينة إرجلي ، إلا أنهم لم يحققوا ما أرادوه ، بل سرعان ما فروا من أمام الفرنجة الذين بقوا في تلك المدينة بضعة أيام للاستجمام ، ثم انقسموا شطرين ، خرج فريق منهم بقيادة بلدوين وتسكريد ، ووجهته قيليقيا ، وذلك يوم ١٤ سبتمبر ١٠٩٧ ، للاستيلاء على طوروس ، والآخر إلى أنطاكية .

* * *

لم تكن فكرة ذهاب بلدوين إلى أرمينيا والانشعب عن الهدف الرئيسي للحملة بالأمر الطارىء عليه ، ونخطئ التقدير إذا أرجعنا ذلك إلى المصادفة بل ونظلمها ، فليس للمصادفة دخل ما في هذا التوجيه ، إذ الواقع أنه تنفيذ لخطة دبرها بلدوين من قبل مع زعيم من زعماء الأرمن عارف بمسالك البلاد وطرقها جميعاً ، واتفق معه على المضى بقسم من الحملة إلى هناك ، ومن ثم تقدم تنكريد منفرداً بجيشه حتى بلغ طارس فحاصر حاميتها السلجوقية يوم ٢١ سبتمبر ١٠٩٧ ، وإذ ذاك وصل بلدوين مع ثلة من القادة الصليبيين الذين تكشفوا نواياهم عن رغبتهم في ربط مصيرهم بالشرق والإقامة فيه والانصراف عن تحقيق الغرض الظاهري الذي جاءوا من أجله ، وأدّى مقدم هؤلاء القادة إلى إيقاع الرعب في قلب الحامية السلجوقية ، فأثرت السلامة في الحرب متخذة من الليل ستاراً ، فلما تنفس الصباح قدم سكانها الأرمن واليونان إلى تنكريد — وكانوا أميل إليه من غيره^(١) — يسألونه أن يدخل هو وعسكره الحصن وأن يرفع عليه على أسواره ، وكان تنكريد هو الآخر على اتصال سرى بأهل البلد ، وهكذا كان كل من القائدين الصليبيين يعمل لحسابه الخاص ، ونسى كلاهما تخليص بيت المقدس والضريح وكنيسة القيامة ، وكل الأغراض الدينية التي خرج «فقراء المسيح» من أجلها من أوربة .

(1) Albert d'Aix, p 344 ; G. T., Op. Cit., p. 140.

لم يكن من اليسير على تنكريد تحقيق هذه الرغبة لا لعدم حرصه عليها ، بل لأن ما انطبع عليه بلديون من طمع في توليه الأمور واعتاده على قوة جنده لا بد وأن يفسد عليه ما يتمناه ، فأنكر الأمر على تنكريد واضطره لمغادرة طارس قاصداً أذنة ، وما كان لتنكريد إلا أن يركب هذا المركب السكريه إلى نفسه نظراً لضعف جيشه إذا قيس بجيش منافسه وقريبه بلديون ، غير أن جماعة من جنده تبلغ الثلاثمائة اضطرت للعودة إلى طارس للتزود ، فمنعها بلديون من الدخول خوفاً من أن تحدثها نفسها باحتلال قلعتها ومدافعة جنده عنها ، فبقيت خارج الأسوار ، فوثب عليها فريق من الترك في غلس الدجى وذبحوا رجالها على بكرة أبيهم ، فكان ليل وكان صباح تنفس عن جثث لا حراك بها علفت دماؤها بعنق بلديون .

مالث بلديون أن استعان بجماعة من الاسكندناويين^(١) ، ثم رتب أموره على احتلال المناطق التي يسكنها الأرمن وتوحيدها جميعها تحت سلطانه ، وكره بطبيعة الحال أن يظهر له منافس ما في تلك المنطقة لاسيما ومنافسه زمامي مثله ، لذلك قصد أذنة التي أغلق تنكريد أبوابها في وجهه فاضطر بلديون أن يقيم خارج أبوابها تلك الليلة ، فاهتبل خصمه فرصة الظلام وكرّ على معسكره طامعا أن يزيله عن مكانه وعما ييده ، بيد أن الفشل لازمه ودارت الدائرة عليه فهرب إلى المصيصة ، وكان قد سلبها من الترك من قبل ، وتعمدت الأمور بينهما ، ثم أدرك أن الخير في أن يتوطد السلم بينهما ويحل محل القتال ، وتطلعا بعين المستقبل فإذا الشرق أكبر من أن يضيق بمطامعهما لاسيما وهما في بدء الطريق ، فنبذا الخصومة جانبا ، ومد كل منهما يده للآخر ، ورحل بلديون حين ترامى إليه خبر جرح أخيه جودفروى في الطراد ، وبذلك الرحيل خلى الجو لتنكريد لمتابع الفتح ، غير أن غيبة بلديون لم تطل أكثر من عشرة أيام عاد بعدها يوم ٢٥ أكتوبر ١٠٩٧ م إلى الأراضي الأرمنية ، حيث مضى

(١) قدمت هذه الجماعة بقيادة جيتار البولوني الذي كان من قبل قرصانا ، راجع في تحقيق هذه المسألة Riant : Les Scandenivians en Terre Sainte, p. 134 et seq.

إلى تل باشر واستطاع تخليصها من يد السلاجقة فلما سمع بذلك توروس أمير الرها الأرمني بعث في طلبه للوقوف إلى جانبه^(١).

وقعت هذه الدعوة من نفس الفارس الصليبي موقع الرضا وتلقاها بنفس مستبشرة، وأذكت فيه مطامع الفتح والإمارة ورأى بعين الغيب نفسه أميراً مستقلاً، لاسيما وهو يعلم أن ليس لتوروس من ولي خلفه على العرش^(٢) الأمر الذي تنبه له بلديون حيث طلب فيما بعد من توروس أن يشاطره الإمارة إذا أراد بقاءه إلى جواره، وغير بعيد أن يكون توروس قد خاف من بلديين، وأدرك ألا قبل له بدفعه أو معارضته، فلبى إرادته واستجاب لوعته على كراهية منه لهذا الطلب، وأقام حفلاً أعلن فيه تبنيّه لبلديين ورحب به الأهليون، كما رحب هو بهذه الفكرة لبُعْد الرها عن مجلى الصراع بين الإسلام والمسيحية.

فرغ البلد من الترحيب بالفارس الصليبي المخاطر الذي انصرف لتكريس جهوده الحربية لخدمة الرها، أو بوجه أدق لخدمة مصالحه الذاتية وتثبيت مركزه الجديد بها وتأمين أهلها وحدودها، وذلك بالزحف على سيمسطة في فبراير ١٠٩٨م مستعيناً بالجيش الأرمني الذي لاقى الكثيرون منه مصرعهم في هذا الزحف^(٣).

قبيل توروس مشاركة بلديين إياه، على أن هذه المشاركة لم تلبث أن أنضجت مطامع الفارس الصليبي في الاستقلال بشئون الولاية دون أن يكون إلى جانبه أحد ما حتى ولو لم يكن له من السلطان شيء، وإلا فكيف نفسر قيام جماعة من الأرمن بالثورة والتمرد على أميرهم توروس يوم ٧ مارس ١٠٩٨؟ وإذا قيل إن علة ذلك ترجع إلى استعانتهم ببلديين فكيف نعلل

Stevenson : Crusaders in the East, p. 22.

(1)

(٢) يقال إن توروس زوجه ابنته «أردة» التي طلقها بلديون سنة ١١٠٤ حين تولى عرش

مملكة بيت المقدس وأرغمها على دخول الدير راجع، Documents Arm., p. 25, 35; Foucher, t. IV, p. 338; G. T., Op. Cit. p. 156.

Alb. d'Aix, p. 353; G. T., p. 157—158; Math. d'Ed., (Doc. Am.), t. I, (3) p. 36—37.

مطالبة الثوار أنفسهم بأن يتولى بلدوين الأوربي حكمهم ؟... إن مجرى الحوادث يدل على أن بلدوين هو المدبر للفتنة ، إذ أى حق يخول له أن يقف وسط الثوار فى الكنيسة وأن يقسم لتوروس وزوجته بالمحافظة عليهما وهما فى طريقهما إلى ملطية التى اختارها منى لها ؟

ألم يكن الواجب يقتضيه — وقد أنزله توروس منه منزلة الابن — أن يرد عنه عادية المتمردين ؟ أولا أقل من أن يبذل جهده فى المحافظة على حياته وفاء باليمين المقطوعة ؟... هذه الأسئلة وأمثالها ترد على الخاطر حين نساير الحوادث الجافة فنقول إن توروس اغتيل على يد الثوار بعد يومين فقط من الفتنة ، وانفرد بلدوين وحده بالأمر فى الرها ، على أنه أراد أن يكسب هذه التولية الصفة الشرعية فسار فى تمثيل الرواية تمثيلا عجيبا إن وجد من مؤرخى عصره — أمثال ألبرت ديكس — من رواها كحقيقة مفروغ منها ، إلا أنها لا تستقيم مع النقد ، وما تأثر القارىء بها فى مظانها الأولى إلا بمقدار تأثر المشاهد لتمثيلية عنيفة يندج مع أبطالها وهم يغدون ويروحون أمامه على المسرح ، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسه عقب الفراغ منها ، ويعلل بعض المؤرخين أن أهل الرها كرهوا استبداد توروس ؛ ولم يقدم لنا هذا البعض دليلا على طغيانه ، ومن ثم فكروا فى التخلص منه وسوق الحكم لبلدوين ليدفع عنهم الخطر السلجوقي ، ويشير المؤرخ الصليبي إلى موقف النبيل — وما أعجبه — من جانب بلدوين حيث رفض أن يذهب معهم لقتل توروس ، الأمر الذى ينهض دليلا — وإن فات مؤرخه — على أن لبلدوين علما سابقا بما دبر^(١) ،

(١) Alb. d'Aix, p. 354 seq. ، وإنه ليجمل عنوان فصله الثانى والعشرين كالآتى :

"Conspire plebis consilium in ducem suum Baldwinus reprimere

volens, nil proficit." ويلاحظ أن هذا المؤرخ يحاول تبرير موقف بلدوين ، فيقدم من الأحداث مالا يصعب معه على الناقد أن يرى بين السطور يد بلدوين تحرك شخصيات الفتنة ، ويخرج منها ملوث اليدين بدماء توروس ، وإن أخفاها فى قفاز يمحاه تحتها ، وهذه الحوادث واردة بالتفصيل فى Math. d'Ed., op. cit. p. 37—38.

ومهما يكن الأمر فقد تمكن بلدوين من تثبيت أقدامه في الرها ، وأقسم أهلها له يمين الولاء ، وإذ ذاك أراد أن يبرهن لهم على حسن اختيارهم إياه ، فاشترى سيمسطاء من أميرها التركي بعشرة آلاف دينار ، وأطلق أسرى الرها الذين كانوا في قلعتها ، ثم انصرف إلى «سروج» ، فاحتل قلعتها في ربيع الأول (يناير ١١٠١م) ووضع بها حامية صليبية بقيادة المؤرخ المعروف فوشيه^(١). كانت سياسة بلدوين تهدف — كما رأينا — إلى توثيق العلاقات بين جماعات الأرمن والصليبيين ، على ألا ترقى إلى جعل مقاليد الأمور في البلد بأيدي أصحابه الشرعيين ، وكان في الوقت ذاته يخشى أن تتحرك عوامل الوطنية في نفوسهم فيتمردون عليه ، ورأى أن خير وسيلة لذلك إنما هي موازنة العنصر الأرمني بجماعات أوربية يصطنعها في فروع الإدارة المختلفة ، ولم يفت الأرمن ما تنطوي عليه تلك السياسة من شل أيديهم فلم يرحبوا بها بل نظروا إليها نظرة الكراهية ، لاسيما وقد أفصح الكونت الصليبي عن نواياه حين اتخذ من هؤلاء الصليبيين مشاورين له وأقصى الأرمن عن الحكومة ، وأغدق على أولئك الوافدين الأموال الجمة ، وأقطعهم الأراضي الواسعة فكوّنوا طبقة أرستقراطية دخيلة على البلاد ، فلا عجب إذا تخشنت صدور الأرمن على الصليبيين واحتسكت الغيرة في نفوسهم منهم ، وظهرت هذه الغيرة في صورة عملية حين عمد بعضهم لتدمير مؤامرة اتصلوا فيها بالسلاجقة ولم تفلاح ، إذ سرى خبرها إلى بلدوين ، فألقى القبض على المتآمرين ومثّل بهم يوم ٢٦ ديسمبر ١٠٩٨م ، وألقى في السجن كل من حامت حولهم الشبهات ، وصادر كثير من أملاكهم وأموالهم وفرض على بعضهم جزية كبيرة ، فبدأت الأحوال واستقرت الأمور في البلد .

(1) Matthieu d'Edesse, Op. Cit., p. 53, et note 1.

الفصل الثاني

الصلبيون في أنطاكية

موقف الأرمن والسريان . تحصين أنطاكية . تهاون المسلمين . دفاع حلب وحمص
ودمشق عن أنطاكية . المجاعة في صفوف الصليبيين . رجوع تانيكيوس .
السفارة المصرية إلى الصليبيين . نهوض العراق لنجدة أنطاكية .
خيانة فيروز . فشل النجدة وأسبابه . الحرب المقدسة .
أثرها المعنوي . استسلام أنطاكية . شرعية امتلاك
أنطاكية . تنازع الأمراء الصليبيين .
طلبهم تدخل البابا .

وجد الصليبيون في طريقهم إلى أنطاكية معاونة كبيرة من جانب الأرمن
والسريان إذ كانوا يثبتون على حاميات المدن ويطعنونها من الخلف ، وبذلك
يسرون السبيل أمام الفاتحين الأوربيين حتى إن قوات الصليبيين لما أغارت
على أعمال أنطاكية وجدت الأمور هيئنة أمامها بفضل وثوب الأرمن على
الحاميات ، مما شجع أهالي بقية النواحي الأخرى ، كما فعل أهل أرتاح مثلاً ،^(١)
وليس هناك من المؤرخين — القدماء والمحدثين على السواء — من ينكر
التيسيرات الجمّة التي تهيأت للمغير بفضل هذا الوثوب .

أما أنطاكية فكانت أكثر المدن تحصيناً ، عني بها البيزنطيون عناية فائقة
طول مدة بقائها تحت سلطانهم (٩٦٩ — ١٠٨٤ م) ، ففيها ما يقرب من
أربعمائة حصن وبرج ، هذا إلى قيام المرتفعات التي تحتضنها وتجعل اقتحام
المغير عليها عسيراً كما يتبين الناظر إلى الخريطة ، وقد وصفها ابن بطلان في
رسالة أنفذها سنة ٤٤٣ هـ إلى أبي الحسين هلال بن المحسن الصابي بقوله
« لها سور وفسيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة

(١) كمال الدين ، منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٥٧٨ . ابن القلانسي ، ذيل
تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ .

أربعة آلاف حارس... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ،
والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم دائرة ، وفي رأس الجبل داخل السور
قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وهناك من السكناثس ما لا يحد ، كلها معمولة
بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع^(١) . وكان عليها وقت
مقدم الصليبيين القائد التركي ياغى سيان فما شعر بالخطر الجديد حتى أرسل
مستنجداً بدقاق أمير دمشق وبكر بغا أمير الموصل وبالسultan بركياروق ،
غير أن تقدم العدو نحوها كان أسرع من استعداد المسلمين لدفع الخطر عنها .
كان بوهيمند النرمانى على رأس أول جماعة وفدت على أنطاكية حيث
عسكر فى الطرف الشمالى من المدينة وعسكرت القوات الأخرى التى بقيادة
روبرت النرماندى وإتين دى بلوا فيما بين باب بولص وباب الكلب ، وعسكر
ريموند الصنجيلى وأديمار إلى الغرب ، وعسكر جودفروى بجنده فى الشمال
قرب باب الجنيثة .

خشى ياغى سيان من الصليبيين وخاف تمرد المسيحيين داخل أنطاكية
فعمد إلى حيلة عجيبة ذلك أنه أخرج جميع الذكور منها حتى لا يشبوا عليه من
الخلف إذا جد الجدد بما اضطروهم للفرار^(٢) إلى عدوه ، وهى رواية تختلف كل
الاختلاف عما ذكره مؤرخنا المجهول فى حوارياته من أن الأرمن والسوريين
المسيحيين الذين كانوا داخل المدينة كانوا يخرجون منها كل يوم متظاهرين
بالفرار ويأتون إلى معسكرات الصليبيين ، بينما بقيت نساؤهم فى البلد ،
ويذهب مؤرخنا أكثر من ذلك فيزعم أن هؤلاء البلديين الوافدين على
معسكرات إخوانه كانوا يهدفون لتقصي أحوالهم ثم يحملونها إلى ياغى سيان ،
وهكذا حامت الشبهات من الجانبين حول موقف الأرمن والمسيحيين
عامة . وقد يسكون من الطبيعى أن يتسرب الخوف إلى نفس ياغى سيان

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ١٩٢ ، Chalandon : Hist. de la Première Croisade , p. 163 .

من هؤلاء الأرمن ، وحينذاك يصح ما يقال عنه من إخراجهم إياهم من البلد ، أما القول بأن بوهيمند قد اصطنع معهم العنف فصحيح هو الآخر ، ولكن تفسيره هو ما كان يحتك في صدر بوهيمند من الشك حول جميع الآخرين . على أن الصليبيين ظلوا مقيمين على حصار أنطاكية قرابة ثمانية أشهر (٢١ أكتوبر ١٠٩٧ — ٣ يونيو ١٠٩٨ م) لم تكن خالية من عمل يذكر يهدف إلى إضعاف القوة الإسلامية أو تقوية عزائم الحجاج الأوربيين ، أو إقامة حصون وأبراج متحركة يمكن بها تذليل الصعاب التي تعترضهم ، ولقد عملت حامية أنطاكية الإسلامية على مساعدة العدو — عن غير قصد — في تمسكه من البلد ، إذ ظلت أمداً طويلاً بلا عمل جدي قانعة ببقائها في الحصون والقلعة ، فأدرك الصليبيون من ذلك الموقف السلبي تخوف الحامية وشجعهم ذلك على مضاعفة الجهد ، ولعل قوتهم المعنوية زادت أضعافاً ، ومظهر ذلك انصرافهم بكل قواهم لبناء جسر من القوارب على نهر العاصي ، ولعل ياغي سيان كان يخشى في الوقت ذاته تمرد الأهليين نظراً لما يعرفه فيهم من كراهيتهم له ، الأمر الذي لم يكن يخفى عليه وذلك لما جـبـل عليه من العنف الشديد إزاءهم ^(١) . وقبل انقضاء شهر على بدء الحصار ، أعفى يوم ١٨ نوفمبر قام بوهيمند بمهاجمة حصن حارم الموصل بين حلب وأنطاكية ، وفاجأه على حين غفلة من المسلمين وأسر جماعة منهم قادهم إلى أنطاكية وقتلهم ، وليست أهمية هذه الإغارة في أن الصليبيين قتلوا بعض المسلمين ، ولكنها تدل على ما هو أبعد من ذلك ، إذ تشير صراحة إلى تقوية عزائمهم وخروجهم من عزلتهم وأمنهم على ما بيدهم وتطلّهم لمضايقة المسلمين في النواحي المجاورة ، كما أنهم لم يحدوا مقاومة تحد من غلوائهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أقاموا حصناً آخر قبالة باب بولص دعوه بحصن مالرجارد ^(٢) ، ومن هذا نتبين أن المهاجمين لم يقصروا قط في التحصن والاستعداد لحرب أنطاكية وأخذها من أيدي

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٥٧٨

Raimond d' Agiles, p. 247.

(٢) أنظر الخريطة ، ص ٦٥

أصحابها ، كما ساعدتهم الظروف بمجيء أسطول جنوى إلى ميناء السويدية^(١) في النصف الثاني من نوفمبر حاملاً إليهم بعض الإمدادات من الرجال والذخيرة ، ومع ذلك فقد جابهوا مشكلة عويصة هي قلة الأقوات بما تشير إليه « جست » بقولها « إنه حدث قبل عيد الميلاد أن شح القمح وجميع المواد ، وأصبح الصليبيون لا يجرؤون على مغادرة المعسكر ، وفقدوا في المنطقة المسيحية كل ما يمكنهم أن يمسكوا به رمقهم ، وأهمية هذا النص قائمة على أنه وصف شاهد عيان كان في نفس المعسكر وكان واحداً من أملت بهم المجاعة التي حملتهم على إعفاء فريق منهم من مهمة الحصار للقيام بنهب النواحي المجاورة .

غير أن السلاجقة تحركوا أخيراً ، لكن تحرك الخائف ، فتربصوا لهم في العودة . وفي ذلك الوقت بالذات كان المسلمون في النواحي المختلفة قد أدركوا جانب الجد في نوايا الصليبيين ، وعرفوا أن سقوط أنطاكية في أيدي هؤلاء المخاطرين يعرض بقية بلاد الشام لخطر الغزو الأجنبي ، فنهض العسكر الإسلامي^(٢) قرب شيزر بقيادة دقاق أمير دمشق ، وأتابكة طغتكين وجناح الدولة بن ملاعب أمير حمص ، وانضم إليهم ابن ياغي سيان وفريق من بني كلاب حيث قتلوا جماعة من الصليبيين ، فاضطر الناجون للعودة إلى « الروج » وعرجوا منه على معرة مصرين^(٣) ، وإذا كانت العبرة بالخواتيم فقد رجحت كفة الصليبيين يومذاك (٣١ ديسمبر ١٠٩٧ م) رغم الخسائر الجمة التي كبدتهم إياها دقاق ، ومر الصليبيون بمحنة شديدة من جراء نقص الأقوات وهطول الأمطار^(٤) مما أضعف معنوياتهم ، ولم يجد الفقراء منهم مالا يشترون به طعامهم ، وضعفت العزائم حتى لقد أثر بطرس الناسك الهرب هو وجماعة

(١) Dussaud: Topographie Historique, p. 341.

(٢) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ، Gibb: Damascus Chronicle of the Crusades, p. 43.

(٣) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٧٨ — ٥٧٩ .

(٤) Matthieu d'Edesse, Doc. Armeniens, t. I, p. 34; Foucher, (R. H. Occ. Cr.), t. III, p. 341.

من طارت قلوبهم شعاعا ، لولا أن تعقبهم تنكريد وأرجعهم إلى المعسكر وهم في أشد حالات الخزي ، وابتلى الصليبيون بأنواع من المحن شديدة فسَّروها تفسيراً دينياً بغضب السماء عليهم من مبادئهم وعدم رعايتهم الطريق المستقيم ، فهم لم يعبدوا طريق الرب كما ينبغي ، ورأوا أنهم تنكبوا سبيل المسيحية . ألم يقل المسيح « أُمِّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها » ؟ وتذكروا قوله إن الأرض والسماء تزولان ولكن كلامه لا يزول ، وعلى هذا الأساس أدركوا أنهم ارتكبوا من الخطايا ما جعلهم يشعرون معه بالخزي والعار ، حتى أننا لنرى انعكاس هذه الفكرة في الحلم الذي رآه أحدهم قبيل عشوره على الحربة المقدسة كما سيأتي بعد .

إلا أن هذه المجاعة لم تكن إلا حادثاً عارضاً انصرفوا بعده لتركيز قواهم وتوحيدها لضرب أنطاكية ، ورأى الإمبراطور أن تساهم قواته في الفتح فيثبت حق الإمبراطورية في الإمارة ، ومظهر هذه المساهمة هو إنفاذه قائده « تاتيكوس » على رأس كتيبة بيزنطية ، وأشار تاتيكوس على الصليبيين بخطة حكيمة هي المبادرة إلى احتلال المدن والحصون المجاورة ، ونصحهم بعدم التجمع في بقعة واحدة حتى لا تواجههم مشكلة الأقوات ، لكنهم لم يستجيبوا لهذه النصيحة ، محمولين على ذلك بعاملين : أولها الشك في نوايا تاتيكوس ، ثم عدم قدرتهم على ذلك العمل .

لم يلبث تاتيكوس أن انصرف بقواته عن القتال إلى جزيرة قبرص ، مما قد يُفهم منه عدم اهتمام البيزنطيين باسترجاع أنطاكية ، لكن الواقع هو أن بوهيمند أدرك أن الإمبراطورية غير جادة فيما وعدته إياه من استعماله على أنطاكية ، ولم يفته تقدير الحقيقة الراهنة التي ينطوى عليها إرسال هذه الكتيبة البيزنطية ، وأدرك — في غير عسر — أن هدف الإمبراطور من وراء ذلك إنما هو إبعاد القوات الصليبية عن أنطاكية أو بمعنى أدق إبعاد

بوهيمند ذاته عن الإمارة، وردّها إلى بيزنطية ، ومن ثم جمع أمره على الخروج عليها والنكث بعهد لها ، واصطنع المكر في سبيل تحقيق بعيته ، فظاهر بعزمه على الرحيل إلى أوربة بمن معه ، لقلّة مافي يده من الأموال الكافية للصرف على المحاربين ، ، يخاف بقية الصليبيين أن تدور عليهم الدائرة إذا نفذ بوهيمند فكرته ، فانعقد إجماعهم — باستثناء كونت تولوز — على أن تكون أنطاكية تحت إدارة بوهيمند بعد فتحها^(١) ، على أن تحتل قوات الزعماء المختلفين جميع حصون الإمارة وأبراجها وقلعتها فلا ينفرد بها زلمان بوهيمند وحدهم^(٢) ، وبذلك لاح في الأفق أمل داعب خيال بوهيمند ؛ غير أن وجود تاتيكوس لابد وأن يحول بين بوهيمند وبين ما اتفق عليه الزعماء الصليبيون من تسليمه أنطاكية ، لذلك اتصل سرا بالقائد البيزنطي ، وأفهمه أن مولاه الإمبراطور قد اتفق مع سلاجقة الروم على إنفاذ جيش إسلامي دون أن يعنى بإخبار قائده ، ومن ثم فبوهيمند يرى نفسه مضطرا لمحاربتة ، يخاف تاتيكوس وتسلسل بمن معه مدعيا أنه ماض لتزويد الجيش بما يحتاجه من المئونة^(٣) .

وأرادت مصر اغتنام الفرصة بمواعدة الصليبيين ، وبذلك تأمن شرم وشر اقتحامهم بيت المقدس بحد السيف وفي الوقت ذاته تقضى على الجماعات المخالفة لها مذهبيا في بلاد الشام ، فأنفذ الأفضل^(٤) شاهنشاه بن بدر الجمالي في يناير ١٠٩٨ (صفر ٤٩٢) سفارة إلى الصليبيين بقيت شهرين ، تحمل مشروع اتفاقية تعقد بين مصر وبينهم ، تستقل فيها الأولى ببيت المقدس ، وينفرد الآخرون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة

Raimond d'Agiles, Historia Francorum, (R. H. Occ. Cr.), t. III, (1) p. 245 et seq.

Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 227. (2)

Raim. d'Agiles, op. cit. loc. cit. (٣) ، أما فيما يتعلق بمناقشة الآراء المختلفة حول

Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 192 — 194; هذه المسألة فراجع
et Essai sur le règne d'Alexis Comnène, p. 200—203.

(٤) راجع الدائرة ، الترجمة العربية ، مادة « الأفضل » .

بفلسطين ، وتكون لهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد إقامتهم بها أكثر من شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم^(١) . ومهما يكن من أمر هذه الوفادة فقد لقيت من الناحية النظرية ترحيباً كبيراً من جانب الصليبيين الذين أدركوا ما تنطوي عليه من معنى الانحلال العنيف والفرقة السائدة في المجتمع الإسلامي رغم أن الأحداث الملمة ببعض نواحيه كانت تستدعي تناسي الأحقاد والخلافات المذهبية والسياسية^(٢) ، وتتطلب تضافر الجهود لدفع الخطر المشترك .

على أن الصليبيين أرادوا أن يستغلوا هذه الفرصة فراسلوا دقاقاً أمير دمشق طالبين إليه عدم التعرض لهم ، زاعمين له بالألم مقصد لهم غير البلاد التي كانت بيد الدولة البيزنطية^(٣) ، وحينذاك أدرك رضوان أمير حلب رغبتهم في ضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض ، ليسهل عليهم تحقيق نصرهم دون أن يجدوا أمامهم تكتلاً ما ، لذلك رأى رضوان — بعد لآي — أن يتناسى — مؤقتاً — أحقاد الشخصية ، وأن يمد يده لشمس الدولة بن ياغي سيان الذي وفد عليه ملتصقاً منه المعونة الحربية بعد أن بلغت الدماء الثمن ، وبعد أن يئس من تحرك الدماشقة غب هزيمتهم في (ألبارة) قرب حلب ، لذلك نهض في فبراير ١٠٩٨م لحصار أنطاكية ، وانضم إليه سكان بن أرتق وأرسلان تاش صاحب سنجار وقوات من شيزر وحماة وحمص وعسكروا عند « مرج دابق » شرقي أنطاكية ، إلا أن رضواناً لم يتخذ الخطة ولم يفكر في أن جماعة من الأمن في حلب قد يتصلون سراً بالفرنجة في أنطاكية ،

(١) Guill. de Tyre, (R. Hist. Occ. Crois.), t. I, p. 191 et seq.

(٢) يرى Wiet : Précis de l'histoire de l'Egypte, t. II, p. 186 أن الانقسام المذهبي كان أكبر معوان للصليبيين في الاستقرار ببلاد الشام ، ويشير في مكان آخر (Ibid., p. 189.) إلى مبلغ ما وصل إليه الجيش المصري في الشام من الضعف ، على حين أن أبا المحاسن في النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ ، يعيب على الأفضل تقاعده ويقول « ما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم [عساكر مصر] مع قدرته على المال والرجال » .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، الطبعة الأوربية ، ج ١ ص ١٩٣ .

ويفضون إليهم بخروج القوات الإسلامية ومحاولتها مباغته المدينة على حين غفلة منهم . لذلك استعد الصليبيون للقتال وقسموا أنفسهم أقساماً ، فأقاموا بعضهم لحماية المدينة ، وجعلوا البعض الآخر لاعتراض المهاجمين إذا فكروا في اقتحامها ، وخرجوا متخفين بقطع من الليل تقيهم أعين الرقباء ، وضربوا خيامهم فيما بين نهر العاصى وبحيرة العمق ، وهو مكان حصين يصعب على الحلفاء المسلمين مهاجمتهم فيه لما يتطلبه من وجوب اقتحام نواح يشرف عليها الصليبيون أو جماعات ممن هوأها معهم كالأرمن ، على أن الجيش المسلم تقدم يوم ٩ فبراير محاولاً شق طريق له إلى المدينة من ناحية جسر الحديد ، فوقف لهم العدو بالمرصاد ولم يمكنهم من تحقيق إربتهم . وعلى الرغم من استئصال جماعة رضوان وسكان وبراعتهم التي شهد بها أعداؤهم إلا أنهم اضطروا للارتداد نحو حارم والصليبيون في أعقابهم يقصونهم أسراً وقتلاً ، ونهباً لما يتركونه وراءهم تخفّفاً ، حتى إذا شاهدتهم حامية البلد السلجوقية مغربين قد لوّحهم الجهد وأضنتهم مشقة الحرب وعار الهزيمة أخلت الحامية القلعة ، محاولة جعلها طعمة للنيران كي لا يجد فيها المغير المنتصر ما قد ينتفع به لاسيما بعد أن غلب عليهم أرمن حارم^(١) .

على أن نشوة النصر دفعت الصليبيين — كما رأينا — لتعقب جيش رضوان ، ودفعها الغنيمة إلى الابتعاد عن أنطاكية ، فحاولت حامية المدينة الانقضاض على المشاة الذين خلفهم الصليبيون على معسكراتهم ، ونشب القتال بين الجماعتين ، بيد أن جماعة ياغى سيان ما لبثت أن ارتدت إلى الحصن حين شاهدت بقية الصليبيين عائدة ، وبذلك توالى انتصارات الفرنجة وهزائم عدوهم ، ودلت هذه الواقعة على أن القوى الإسلامية لا تستطيع الصمود — وهى مبعثرة — أمام الصليبيين ، لاسيما وبقية نواحي العالم الإسلامى تشهد الصراع عن كذب دون أن تحاول — جدياً — مد يد المعونة للدماشقة

أولاً وللحليين ثانياً ، بل كان بعضهم لا يعنيه إلا الانكباب على ملذاته (١) ، وهل أدلّ على تفكك العالم الإسلامي من تلك السفارة المصرية الأفضلية للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة حتى لقد سرها أن ترى رؤوس القتلى المسلمين حين بعثها إليهم الصليبيون ، الأمر الذي ظلت ذكراه باقية في الأذهان أكثر من ثلاثة أرباع القرن ، فنسمع وليم الصوري (٢) يشير إلى فرحة سفراء الأفضل بما شاهدوا ، ويصف حسن استقبال الصليبيين إياهم وترحيبهم بهم . ويلاحظ أن الدولة الفاطمية في مصر نظرت إلى انتصار الصليبيين في أنطاكية وحلب والمعرة وألبارة كمانع للسلاجقة من محاولتهم التوسع جنوباً ناحية مصر (٣) . كما أن الأفضل ذاته — في رأى أحد المؤرخين المحدثين — كان يرى أن مهمة الصليبيين تنتهى عند بيت المقدس نظراً لأنهم يريدون تحقيق مشروع حنا الشمشيق ومن قبله نقفور فوكاس (٤) ، على أن الواقع أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن ليس ثمة عقبة في سبيلهم للاتجاه نحو مصر بعد فتح القدس ، لأنهم يعلمون ما بين الخلافتين العباسية والفاطمية من الشقاق وكرهية كل منهما للآخرى (٥) ، ولقد رأينا حالاً كيف أن الأفضل قدم لهم البرهان الملبوس على صحة هذه النظرية ، فالتفسير الواقعي لسفارته هو إيضاح الخلف والكرهية التي بين مدبري الشعوب الإسلامية حينذاك .

على أن الخلافة العباسية تحركت بعد طول سبات ، فأنفذ بركياروق قوة ضخمة بقيادة قوام الدولة كربوغا صاحب الموصل ، ولم يحاول أن يجعل

Wiet : Précis de l'hist. d'Egypt, t. II, p. 189.

(1)

G. T., p. 205.

(2)

(٣) لم تكن محاولة أئمز في الخروج من دمشق سنة ٤٦٩ هـ ، ونهوضه في الجمع العظيم إلى ناحية مصر طمعاً في امتلاكها بالعبدة عن الأذهان ، لولا قيام أمير الجيوش بدر بدفعه ، راجع ابن القلانسي ، الذيل ، ص ١٠٩ ، كما أن أئمز استولى على بيت المقدس وأخذها من مصر قبل سنة ١٠٧١ راجع ابن الأثير ، السكامل ، ج ١ ص ١٩٧ وكذلك

G. T., (R. Hist. Occ. Cr.), t. I. p. 191—192

Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 83.

(4)

G. T., Op. Cit. p. 191.

(5)

نهوض الحملة على الكتمان كما ينبغي ، بل سرى الخبر في جميع النواحي بقرب وصول النجدة العراقية السلجوقية إلى أنطاكية دفعاً للخطر الصليبي الذي رآته بغداد يوشك أن يغرز مخالبه في غرب العراق بعد أن أنشبهها في شماله ، حيث أسس بلدوين إمارة الرها اللاتينية واستقل فيها ، وما كان لهذا الخاطر الذي طرأ ببال سلاجقة العراق أن يفوت الصليبيين ، وأدركوا أن تحرك العراق معناه محاولته بسط سلطانه على تلك النواحي أولاً ، ولا بد له من الاستبسال في القتال لكي يضرب الخلافة الفاطمية في القاهرة ، فلا عجب إذا بذل الصليبيون غاية الجهد لصد النجدة الموصلية . لذلك عقدوا يوم ٥ مارس ١٠٩٨ مجمعاً ضم كبار القادة منهم للتداول فيما ينبغي اتخاذه للحيلولة دون وصول النجدة إلى أنطاكية ، حتى لا تقوى مغنوية المحاصرين وتشتد عزائمهم ويقع الصليبيون بين جماعة ياغي سيان في الداخل وقوات كربو غامن الخارج ، وسبيل تلك الحيلولة هو إقامة حصن على الشاطئ الأيمن للنهر عرف بحصن « المحمرة » أو حصن ريموند ، واستعانوا بعمال من أهل السفن الإنجليزية والجنوية المرابطة عند ميناء السويدية ^(١) حيث ذهب بوهمند وكونت تولوز لاستقدامهم .

على أن الصليبيين وجدوا أكبر عون لهم في شخصية عالج ، أرمنى الأصل في بعض المراجع وتركه في مراجع أخرى ، وكما اختلفوا حول أصله كذلك اختلفوا في اسمه وإن رجح أنه يدعى بفيروز ^(٢) ، وثق به ياغي سيان وعهد إليه بحراسة برج يعرف ببرج الأختين ، إلا أنه كان غاضباً على مولاه لمصادرتة بعض أمواله وأخذ غلبته ^(٣) ، وإن ذهب الرواية الصليبية ^(٤) للقول بأن

(١) Riant : Inventaire, p. 224.

(٢) راجع ابن القلائسي ، القليل ، ص ١٣٥ ، وابن الأثير ، الكامل ص ١٩٢ ، وابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٠ — ٥٨١ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، Guill. de Tyre, p. 212 و Raimond d'Agiles, p. 250.

(٣) ابن القلائسي ، شرحه ، ص ١٣٥ — ١٣٦ ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١

(٤) Guill. de Tyre, (R. Hist. Occ. Cr.), t. I, p. 221.

محافظة على شرفه دعتة إلى تسليم البلد لبوهيمند ، إذا اكتشف فيروز أن زوجته لم ترع حق الزوجية في خيانتها إياه مع أحد القادة الأتراك ، ومع أن المراجع لم تنص على اسم هذا القائد التركي إلا أنه — لو أخذنا بالرواية المسيحية — لكان لنا أن نتوقع أن يكون المقصود هو ياغي سيان أو أحد ولديه ، لذلك آلى فيروز أن يكون انتقامه شديدا ، وأى انتقام أشد وقعا من أن ييسر على الصليبيين دخول البلد ، فاتصل فيروز سرا^(١) ببوهيمند لما أدركه فيه من الحرص الشديد على أن يؤول إليه أمر الحكم في أنطاكية ، وكتب ببوهيمند الخبر عن بقية الزعماء الصليبيين لسكرته لوائح لهم بضرورة إلقاء القيادة إليه واصطناع كل وسيلة في سبيل دخول البلد واحتلاله ولولم تكن مشرفة لهم كفرسان ، مما رفضته أخلاق البقية ، على أنهم مالبشوا أن استجابوا لهذا التلويح حين عاد بوهيمند مرة أخرى مبينا لهم الخطر المحدق بهم من جراء اقتراب النجدة الموصلية ، ولم يشذ عنهم في قبول توليه أمرها سوى منافسه ريموند الصنجيلي ، إلا أن الشعور العام في المعسكر الصليبي باقتراب الخطر الموصلى السكر بوغى حمل الجميع على النزول على طلب بوهيمند وإيصال القيادة العامة إليه ، وقد تم ذلك يوم ٢٩ مايو ١٠٩٨ ، ولم ينقض أسبوع إلا وأسلمه فيروز^(٢) برج الأخنتين^(٣) ، ثم لم تلبث أنطاكية أن استسلمت يوم ٣ يونيو ، وجرت دماء حاميتها مطلولة على شعاف الوادى وفي سراديب الحصون وعلى سفوح تلال حبيب النجار ، تسطر خديعة فيروز وخيانتة ، وبطش المحتل

(١) ذكر ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١ أن ميمند جمع القوامس وقال لهم « هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟ » فاختلفوا ، وكل طلبها لنفسه فقال « الصواب أن يحاصرها كل رجل مناجمة ، فمن فتحت في جمعه فهي له » فرضوا بذلك .

(٢) Leib: Rome, Kiev et Byzance, p. 221.

(٣) أما أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، فيخطئ إذ يزعم أن الاتصال كان بين فيروز وبين كونت صنجيل . وهو ينسب كل دور في هذه الحرب إلى كونت تولوز ، والتعميم — من ناحية الحقائق التاريخية — مبالغ فيه مبالغة تؤدي إلى الخطأ .

وقسوته ، وطمع بوهيمند في الرياسة دون نظر إلى ماتنطوى عليه الوسائل التي يعتمد إليها من روح لا تتفق والشرف والفروسية .

وأطل ياغي سيان — وقد أطلع الفجر — فأبصر راية بوهيمند تحفق من عل فعرف جليلة الأمر ، وما كانت به حاجة إلى من يفضى إليه بالنبا الأليم : نبأ ضياع أنطاكية من يده وخروجها إلى أيدي الصليبيين ، وحينذاك أدرك ألا أمل له في البقاء أو الدفاع ، وانطلق مع جماعة قليلة من غلبانه مؤثرين الحرب وقد نال منه الجهد كل منال ، فلقبهم بعض الأرمن في الطريق قرب أرمناز فوثبوا على ياغي سيان وقتلوه وحملوا رأسه إلى معسكر خصمه^(١) . وبذلك انطوت صفحة من جهاد ياغي سيان ، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ أنطاكية .

على أن إلقاء نظرة عابرة على سير المدد الكربوغي وهو في طريقه إلى ياغي سيان يبين لنا علة سقوط أنطاكية ، ذلك لأن المدد بلغها يوم ٧ يونيو ، فأين كان منذ شهر ، منذ مغادرته الموصل ؟

لقد عرج كربوغا — وهو في طريقه لنجدة أنطاكية — على إمارة الرها وحاصرها مدة ثلاثة أسابيع وجد أثناءها من المقاومة العنيفة ما حمله على رفع الحصار عنها^(٢) ، وأسرعت النجدة لسكن بعد فوات الأوان ، ويممت شطر هدفها الرئيسي ، فلما بلغته وجدت الصليبيين قد احتلوا معظم حصونها وأبراجها ، فحاصرت يوم ٨ يونيو ١٠٩٨ حصن المحمرة ، فلما رأى روبرت كونت فلاندر أن الدائرة قد تدور عليه خرج برجاله مستخفيا تحت جناح الدجى وانطلق إلى داخل المدينة ، وفعل مثله جو دفروى في حصن مال رجار^(٣) ،

(١) ابن القلائسي ، شرحه ، ص ١٣٥ ؛ وابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ص ١٩٣ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، Raim. d'Agiles, Hist. Fran., t. III, p. 252, Matthieu d'Edesse, Doc. Armeniens, t. I, p. 40-41; G.T., t. I, p. 231.

(٣) Raim. d'Agiles, Hist. Franc., (R.H.Oc.Cr.), t. III p. 252; G.T., Op. Cit. p. 244.

واقترب الجيش المغير من أنطاكية وضرب حولها نطاقا من الحصار العنيف ، وخرج شمس الدولة بن ياغى سيان إلى كربوغا يستعجله الحرب ، ويبين له ما هو فى غنى عن معرفته ، وما تفصح الأحوال حينذاك عنه ، فاشتراط كربوغا أن يسلمه شمس الدولة القلعة قبل أن يزج برجاله فى القتال ؛ أفلا يدل هذا على انعدام الثقة بين الطرفين ؟ وإذا كانت النجدة لا ترمى إلا إلى مساعدة ياغى سيان فما الداعى لإصرارها على امتلاك القلعة ؟ ليس هناك سوى مبرر واحد هو رغبتها فى أن تكون آمنة على نفسها إذا اضطرت القوات الإسلامية المحلية للاستسلام للصليبيين تحت أى ظرف من الظروف ، وقد أنكر شمس الدولة هذا الطلب ، ثم حاول أن يؤجل التسليم إلى ما بعد المعركة ، ولم يكن الوقت ليسمح بمثل هذا الجدول والعدو على مقربة منهم ، فأنفذ كربوغا قائداً من قبله هو أحمد بن مروان فاحتلها ، وبذلك أصبح فى قدرة النجدة الموصلية أن تعيث فى نواحي أنطاكية كما تشاء .

حاول ريموند وبوهيمند إقامة العوائق فى سبيل النجدة فلم يفلحوا ، وراح بوهيمند يذرع المدينة ومعسكراتها ليلاً مفتشاً عن الخونة الصليبيين الذين ينسلون فى غشب الظلام إلى الخارج يلتمسون الفرار من هذه المحنة القاسية والتجربة المريرة التى أنزلها بهم كربوغا بتجويعه إياهم « حتى أكلوا الميتات والدواب »^(١) . وظل كربوغا مقيماً على مراقبة المسالك والمنافذ حتى لا يصل أحداً إلى معسكر الصليبيين ، فلا عجب أن ضعفت نفوس الكثيرين منهم والتمس بعضهم النجاة فى الحرب ، موكلين بيفاع الأرض يشرفونها من شدة الخوف ، ومضى البعض إلى ألكسيس كومنين فى مدينة « أقشهر » حيث كان يعد العدة للزحف على أنطاكية ومحاربة المضيقين عليها من أصحاب كربوغا ، فلما رأهم تعجب لمقدمهم ولم يحسبه هرباً ، لاسيما وفيهم إثنين دى بلوا^(٢) ، وهل كان حد الجبن

(١) متغيات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ .

(٢) Riant: Inventaire des lettres historiques des Croisades, p. 171-178.

إلا الضن بالحياة والحرص على النجاة؟ فرأوا تبرير مجيئهم بأن زعموا له أن المدينة سقطت في يد عدوهم ، فصدقهم الإمبراطور وكف عن متابعة الزحف ، وإذن فلابحال للومه من جانب الصليبيين ، وإنما يوجه اللوم إلى الهاربين من جماعتهم وفيهم إثنين ذاته ، وما كان للإمبراطور إلا أن يصدقه .

توالت الضربات على الصليبيين في أنطاكية ولكنها لم تكن بالضربات المهلكة ، وما كان لهم إلا أن يتحملوها — أبوا أم قبلوا — وإلا أن يعدوها تجربة دخلوا فيها ، وأدركوا أنه إذا هانت عزائمهم وتلاشت قواهم أدى ذلك إلى هلكهم وإلى ما هو أشد من الهلك . غير أن لكل قدرة طاقة لا تستطيع أن تتجاوزها ، ورأى الزعماء الصليبيون أن معنوية الجيش في انهيار مستمر لا تجدى إزاءه صلابة بوهيمند واستعماله العنف والشدة مع الهاربين ، وأدركوا أن لابد من حدوث معجزة .

كانت المعجزة هي الحربة المقدسة .

وتذهب الرواية الإسلامية^(١) إلى أن المسلمين ضيقوا الخناق على الصليبيين حتى أكلوا ورق الشجر ، « وكان صنعيل عنده دهاء ومكر ، فرتب مع راهب حيلة وقال : إذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك رأيت المسيح في منامى وهو يقول : في المكان القلاني حربة مدفونة فاطلبوها فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي » . وتفصيل هذا الخبر أن أحد الحجاج واسمه بطرس بارتلمى زعم أنه رأى في النوم القديس أندرية الذى أنبأه أن الحربة التى طعن بها المسيح مطمورة تحت كنيسة القديس بطرس^(٢) فذاع الخبر فى أنحاء المعسكر ، ووجدت الحربة يوم ١٤ يونيو وقويت نفوس الصليبيين بعض الشيء ، ولاحظ ذلك الكتاب المسلمون فيقول أحدهم « والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

(2) Raim. d'Agiles, p. 253 — 257 ; Chalandon : Histoire de la Première Croisade, p. 210—218.

وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة^(١) ، وأوفدو من قبلهم سفارة إلى كربوغا ، ويختلف المؤرخون حول حقيقة هذه السفارة ، فيزعم البعض أن الرسولين الفرنجيين بطرس الناسك وهولان المترجم عرضا على القائد المسلم أن يكون القتال على شكل مبارزة ، يختار فيها كل من الجانبين خير من عنده ؛ ويزعم البعض الآخر من المؤرخين أنهما أمراه برفع الحصار عن المدينة وخروجه منها سالما في نفسه ورجاله وسلاحه ومتاعه ، وربما كان الرأي الثاني أصح الرأيين لأنه بطبيعة الحال جاء عقب العثور على الحربة المقدسة وما أدت إليه من تقوية العزائم^(٢) . وكأن الحظ أراد أن يخدم المحتل فدبت الفرقة بين زعماء الجيش الإسلامي وانصرف أكثرهم تحت ظروف شتى ، منها محاولة رضوان في تفريق الجماعة إذ ترادفت رسله إلى كربوغا ، فتوهم دقاق الشر من ذلك ، كما خاف جناح الدولة ، وجرت بين الأتراك والعرب منافرة ، أدت إلى انقسام في الصفوف ، كما أن كربوغا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتسكبر عليهم «ظنا منه أنهم مقيمون معه على هذه الحال ، فأغضبهم ذلك ، وأضمرُوا في أنفسهم الغدر إذا كان قتال ، وعزموا على إسلامه عند المصدر^(٣) ، مما لم يخف على الصليبيين ، فرتبوا صفوفهم للقتال .

ماكاد فجر ٢٨ يونيو ١٠٩٨ يتنفس وتبين الحين ما أمامها حتى كان الصليبيون بقيادة بوهيمند أمام باب الحمرة ، وأعدوا كل ما استطاعوه من قوة ومن رباط الخيل ، ووقفوا صفوفًا في مقدمتها الفرنسيون والفلمنكيون بقيادة هيج دي فرماندوا وروبرت كونت فلاندر ، يليهم اللوثرانجيون بقيادة جودفروي ، ثم نرمان نرمنديا بقيادة روبرت كونت هيوز ، فأهل بروفسنسال

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

(٢) Raim. d' Agiles, p.270; Foucher, p.347—348.

(٣) راجع السكامل في التاريخ ، ص ١٩٤ ، متعقبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ — ٥٨٣ ،

وأبو الفداء ، المختصر (مطبعة R. H.Or. Cr.) ، ص ٤ .

بقيادة إديمار دى مونتل أسقف پوى ، والقول مختلف هنا حول حامل
الحربة المقدسة أ كان هو أديمار أم ريموند داجيل المؤرخ ؛ ثم كتيبة من
نرمان إيطاليا بقيادة تنكريد وبوهيمند وفي هذه الكتيبة الأخيرة كان مؤرخنا
المجهول بلا شك ^(١) . أما ريموند الصنجيلي فقد بقى فى المدينة حتى لا يدع
الترك يخرجون ويطعنون القوات الصليبية من الخلف ، كل ذلك وكربوغا لم
يحرك ساكناً ، بل إنه حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين
خروجهم فرادى ، مؤثراً أن يلقاهم جمعاً رتياً كأنما هو فى حفل فروسية ،
وكان بعض الأمراء ممن حوله أشاروا عليه أن لا يمكن الإفرنج من الخروج
بأجمعهم وأن يقتلوهم أولاً فاولاً فلم يلق إليهم ^(٢) سماعاً ، وبذلك أكثر الحز
وأخطأ المفصل وهو الفارس المعلم ، لكن قد يعثر الجواد .

كرت القوات الصليبية على جيش كربوغا وتمسكنت بهذا الترتيب المشار
إليه أن تحدى به وأن تنضحه بنبالها وسدت المنافذ عليه من جميع النواحي ، فلما
أطبق على المسلمين وبهم عليهم الأمر وباتوا لا يدرون كيف الخلاص من هذه
الهبجات التى تنوشهم من كل جانب ، لم يروا غير إضرار النار فى الحقول لصدد
العدو فلم يجدهم ذلك نفعا ، فلما رأوا أنفسهم عاجزين حيالهم لاذ كبارهم بالهرب
وفعل كربوغا نفسه مثل فعلهم ^(٣) ، وأبدى الصليبيون وحشية عنيفة بشهادة
فوشيه ^(٤) المؤرخ ، فلم يرحموا ضعف النساء بل قتلوا من عثروا عليهم ، فلما
رأى أحمد بن مروان ماحل بأصحابه لم يجد من الاستلام وطلب الأمان بدا ،
فأجيب إلى ما طلب وأبقى على حياته وحياة من معه بفضل السكونت تولوز

Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 105, Chalandon : La Première (١)
Croisade p. 221. على اختلاف فيما بينهما حول ترتيب الجماعات وقادتها ، ولكننى أوثر
الترتيب الذى ذكره الأستاذ جروسية .

(٢) منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ص ١٩٥

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ص ١٩٥

(٤) Foucher, p. 349.

الذى أعطاه رايته إيذانا منه بذلك ، مما كاد أن يؤدي إلى فتنة طخياء بين صفوف الصليبيين ، ذلك لأن كلا منه هو وبوهمند كان يرى لنفسه التقدمة في امتلاك البلد بفضل المجهود الذى بذله في الفتح ، ولا يخفى ما في إعطاء راية كونت تولوز لابن مروان من معنى « الحماية » والجوار ، ولا يكون الجوار إلا للقوى يبذله للضعيف . ثم إن في هذا الجوار معنى آخر هو اطمئنان ابن مروان والمسلمين لبأس السكونت ، مما يتضمن الاعتراف الصريح بعلو شأنه وسيطرته على بقية القوات الصليبية ، ولا مشاحة في أن ذلك العمل منه يغضب منافسه في الزعامة بوهمند الذى حمله غضبه منه على أن يتقدم وينزع علم ريموند وينهب عليه هو ، وإن احتل القلعة رجال ريموند وبوهمند وجودفروى وروبرت كونت فلا ندر^(١) ، ورضى أحمد بن مروان بما قرره الزعيم النرمانى ، ويقول مؤرخنا المجهول إن ابن مروان تنصر وتعمد ، على حين أن الحوليات الإسلامية لا تشير إلى تنصره بل تذكر أنهم أنزلوه دارا بأنطاكية وأطلقوا أصحابه ، وسيروا معهم من يوصلهم إلى حلب^(٢) .

ولقد عزا الصليبيون — أو جماعة منهم — هذا النصر إلى قدرة فوق طاقة البشر ، ولج بهم الزعم إلى حد القول بأن القديسين جورج وديمترى ساهما بنفسيهما في القتال ، حيث أبصر البعض كتبية تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور تقدمت الصفوف وتسلبت السلام والأسوار ورمت فأصمت ، وهذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم حينذاك ، أما المؤرخون المسلمون فكانوا أدق وأحكم من أمثالهم الغربيين فهم ينسبون هزيمة كربوغا إلى سوء معاملته لجماعته .

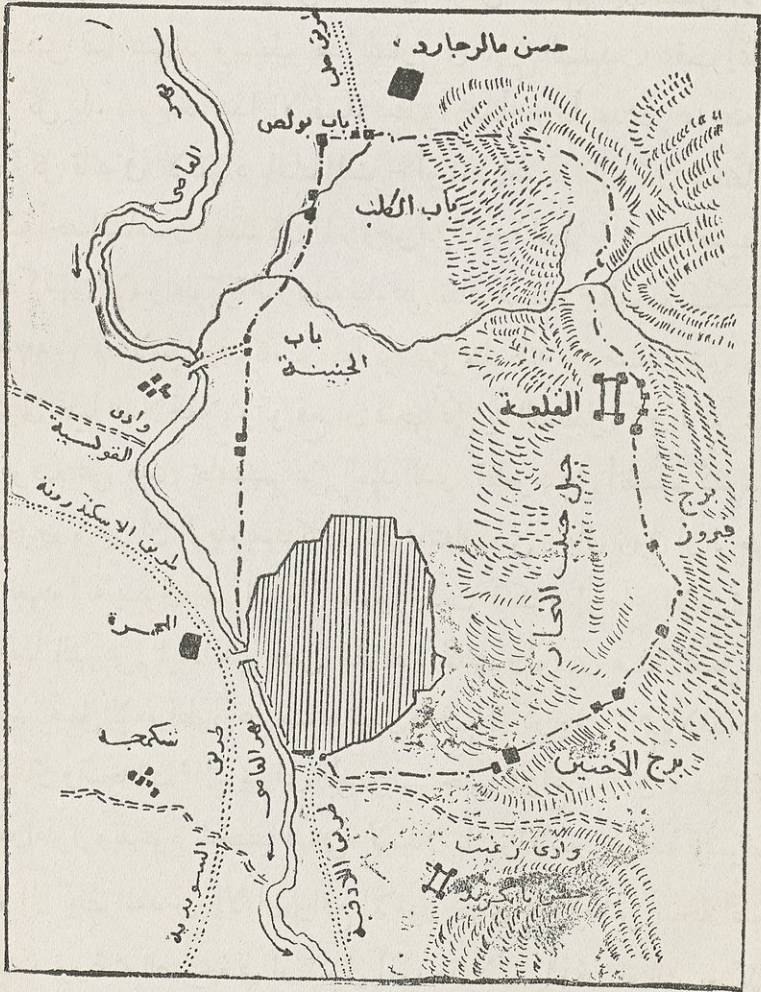
* * *

خاص الصليبيون من الخطر الإسلامى وتأت لهم هزيمة جميع القوات التى قدمت لضربهم ومضايقتهم ، وعدوا هذا النصر براعة استهلال فى

Raim. d'Agiles, p. 261—262.

(١)

(٢) ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حاب ، ص ٥٨٢



خريطة تخطيطية لأنطاكية زمن الصليبيين ١٠٩٨ م

الاستبشار بتيسير الأمور في البداية ، وأدركوا إلى جانب هذا أن العساكر الإسلامية لن تستطيع لهم دفعاً أو عليهم تغلباً ، على أن فتح أنطاكية يعتبر بداية عهد جديد من النزاع بين القادة كشف فيه القناع عن حقيقة الدوافع المحركة لهم ، كما أنه أذكى عوامل الحقد في نفوس بعضهم على البعض الآخر والتنافس فيما بينهم ، وسيظهر هذا التنزع في تاريخ الصليبيين عقب إتمامهم فتح كل بلد ، ويتخذ هذا الانقسام مظهراً عملياً حرياً يحدث عما تحته من رغبة كل قائد في الانفراد بالبلد المفتوح أو انضمامه — إن كان ضعيفاً — لتزكية أحد المتنافسين ، فقد كان المفروض من الناحية النظرية أن يرد الصليبيون أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية بناء على اتفاقية معظم عماثم مع الكسيس سنة ١٠٩٧ م ، لاسيما وقد كانت أنطاكية من ممتلكاته حتى سنة ١٠٨٥ حين استولى عليها السلاجقة ، والواقع أن فتحها على يد الصليبيين كان أكبر حث للوقوف على مدى محافظتهم على العهد الذي قطعوه على أنفسهم كفرسان مسيحيين ، غير أن الوفاء بعد كان أكثر مما يتطلب من رجال يرون أن الرجوع عما تعهدوا به يسوق لهم التاج^(١) ، ووجدت فكرة إرجاع الإمارة إلى صاحبها الشرعي تأييداً من بعض القواد ، لأنهم رأوا أن هذا العمل من جانبهم يحمل الإمبراطور على مساعدتهم في هدفهم الأكبر وتزويدهم بالإمدادات والذخائر والنجادات^(٢) . ورأى البعض — حسماً للنزاع — أن يذهبوا إلى الإمبراطور ويدعوه شخصياً للبحر لاستلامها ، والاشتراط عليه بالنهوض معهم إلى بيت المقدس إلا أن واقع الأمور جرى على العكس نتيجة لطمع بوهيمند ورغبته الصريحة في أن يتولى أمورها لاسيما وقد امتلك بعسكره معظم أبراجها وأكثرها ارتفاعاً ، كما استعمل الشدة في تجريد القلعة من

(1) Chalandon : La Première Croisade, p. 227.

(2) Albert d'Aix, p. 434.

رجال ريموند وكونت فلاندر ، وأحل جنده مكانهم ورفع عليه الخاص ، مما أغضب ريموند الصنجيلي^(١).

ولقد كتبوا حينذاك رسالة إلى البابا إربان الثاني ينبئونه فيها بما تم لهم من الفتح في الشام^(٢) ، وينعون إليه نائبه أديمار دى^(٣) موتيل ، ويدعونهم للقدوم لتولى الحملة في ذهابها إلى بيت المقدس^(٤) ، وقد جاء فيها قولهم «والآن فإننا — نحن أبناءك الذين يتَّمننا موت هذا [الأب أديمار] وحرمانا من الأب الذى وكلته بنا — نلوذ بك يا أبانا الروحى ، أنت الذى افتتحت الحملة... ولقد استجبنا لكلمتك فغادرنا بلادنا وخلفنا وراءنا جميع ما نملك فى سبيل حمل الصليب واتباع المسيح والعمل على تمجيد كلمة النصرانية ، كما أننا أنجزنا كل ما عينته لنا ، فانفض الآن للانضمام إلينا بكل النجيدات التى تستطيع جمعها...» على كل حال لم تعد الفرقة فى الرأى بين الزعماء الصليبيين بخافية على أحدهما من الحجاج المحاربين وانصرفوا — مؤقتا — عن فكرة الزحف على بيت المقدس ، واتخذ هذا الانصراف مظهر تأجيل الرحيل إليها بضعة أشهر حتى تخف حرارة الصيف ولا يتعرض «جند المسيح» للظما الشديد ، لكن الواقع هو أن الصليبيين — أو بمعنى أدق زعماءهم — عز عليهم أن يرحلوا عن أنطاكية ويتركوها غنيمة لبوهيمند ، كما أن جودفروى طمع فى أن يتولى باسم أخيه بلدوين أمير الرها بعض المدن التى تم لبلدوين فتحها مثل تل باشر^(٥) وراوندان ، وأما غيره فقد طمع فى أن تيسر له الأمور بفتح إحدى المدن أو القلاع الإسلامية الكثيرة الموجودة فى المنطقة الشمالية من سورية ، فينعم هذا الغير — بعد ذلك الجهد المرير — بخيرات الشرق ، وإذن فليس عجيبا أن يتأخر قيام الحملة تسعة أشهر ولكن العجيب هو قيامها وتغلبها على تلك

Albert d'Aix, p. 434; Raim. d'Agiles, p. 261—62, G. T., t. I, 274. (1)

Leib : Rome, kiev et Byzance, p. 221. (2)

Leib : op. cit. p. 268—269. (3)

Leib : op. cit. p. 269. (4)

(٥) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢

العوامل الفردية والمطامع الشخصية ؛ على أن الصليبيين لم يبقوا طوال هذه المدة ساكنين ، بل أخذوا في الإغارة على المناطق الشمالية من سورية وإحلال النفوذ الصليبي محل النفوذ الإسلامي دون الاحتكاك بالبيزنطيين . وانطوت هذه الخطة على براعة فائقة في تثبيت القوة الصليبية بتلك النواحي وإقامة سد منها في وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فسكرت في مهاجمة أنطاكية أو غيرها من الإمارات التي قد يفتتحها الصليبيون في المستقبل القريب أو البعيد ، كما أنها جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية ميسرا ، تستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور ، كما أنها أوجدت مجالا حيا لنشاط الفرسان والأدواق والكونتات الصليبيين ، فخرج في يوليو ١٠٩٨ قائد من أتباع ريموند الصنجيلي في جماعة من الفرسان قاصدا تل منس^(١) ، وتمكن بمعاونة أرمها وسريانها من التغلب عليها ، وأسكرته نشوة النصر وحملته على متابعة الفتح ، متشجعا بضعف الجماعات الإسلامية في تلك النواحي ، وعدم قيامها بأية حركة معارضة له ، لذلك قصد معرة النعمان^(٢) فصدته عنها قوات رضوان أمير حلب^(٣) .

كما تلقى جودفروي في أغسطس ١٠٩٨ م دعوة^(٤) من أخيه الكونت بلدوين يوليه فيها أمر تل باشر وراوندان ، فرحب بهذه الدعوة لعاملين أولهما الرغبة في تولى أمر إحدى البلدان ، وثانيهما هربا من الطاعون الذي اجتاح إذ ذاك أنطاكية وهلك به الكثيرون . وفي هذا الوقت بالذات كتب الصليبيون إلى البابا يينثونه بسقوط أنطاكية ، ويعلق شالاندون^(٥) على هذا بقوله « إنه من العجيب أن ينتظر الصليبيون هذا المدى الطويل في إنشاء البابا بسقوطها ، وربما كانت منازعاتهم هي السبب في ذلك التأجيل ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٩٦ .

(٣) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٤ ، والدائرة مادة « معرة النعمان » .

(٤) Raim.d' Agiles, p. 262.

(٥) Chalandon : La première croisade, p. 235.

وعلى كل حال فإن اقتراحهم على البابا بانتظارهم إياه للزحف على بيت المقدس يدع مجالا للقول بأنهم قرروا ألا يرحلوا ، بل أن يقوموا باحتلال النواحي المحيطة لهم ، وعلى هذا الأساس في تفسير الدواعي المستترة وراء دعوة الصليبيين للبابا يمكننا أن نفسر عودة جودفروي وأولاثم التقاؤه بريموند الصنجيلي ثانيا ، ومساهمتهم في مشروع إن دل على شيء فإنما يدل على أن القوة الصليبية في بلاد الشام أصبحت من القوة بالدرجة التي يرتجى بعض الأمراء المسلمين عطفها وتأييدها لهم في مشروعاتهم ، وفي استعانة بعضهم بها ضد البعض الآخر ، وذلك أن رضواناً أخذ في محاصرة «عزاز»^(١) من أعمال حلب والتضييق على أميرها بالنقوب والحروب ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى جودفروي دى بويون والاستغاثة به ضد رضوان ، مقدما إزاء ذلك الاعتراف بتبعيته للصليبيين ، ومظهر هذه التبعية هو تأديته الجزية لهم ، وطبيعى أن يرحب الدوق بهذه الدعوة وأن يستجيب لتلك الاستغاثة لما تنطوى عليه من الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين في بلاد الشام ، وما ترمز إليه من تفكك القوى الإسلامية وهو ما يهدف إليه الصليبيون ، ثم إنها فوق ذلك كله تتيح لهم الفتح على حساب المسلمين دون أن تدع مجالا لتدخل ما من جانب البيزنطيين . عرض جودفروي على كونت تولوز أن ينهض معه لتأييد عمر أمير عزاز فلم يتوان الكونت عن النهوض في سبتمبر ١٠٩٨ م (٥٤٩٢ هـ) ، وساعدهما بلدوين أمير الرها بإنفاد قوة ضخمة تبلغ ثلاثة آلاف فارس ، فلما تراجى الخبر إلى سمر رضوان أيقن ألا قبل له بالوقوف أمام هذه القوات الفتية ، وخاف أن تدور الدائرة عليه إذا التحم المصافان ، فبادر برفع الحصار عن عزاز والانقلاط إلى حلب ، وأدى «عمر» ما تعهد به لجودفروي^(٢) . وبذلك أصبح تابعا لإقطاعيا له .

(١) ياقوت معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٦٨ .

(٢) ابن العديم : منتقبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٦ ؛ Albert d'Aix, p 435-439 .

G. T., (R. H. occ. Cr.), t. I, p.283.

الفصل الثالث

الصلبيون في بيت المقدس

بزنطة وفتح بيت المقدس . مقاومة معرة النعمان للصلبيين . مطامع الأمراء الشخصية .
كونت صنجيل قائد الحملة . موقف البلدان الإسلامية الشامية . ابن عمار في طرابلس .
عرق . الزحف على القدس . وحشية الصليبيين . وقع سقوط المدينة على
المسلمين . النجدة المصرية تأتي متأخرة . النزاع بين الأمراء الصليبيين
الدين أم الدولة ؟ اختيار جود فروى ملكا . جودفري
حامى الضريح المقدس . معزى اختياره . انتخاب
بطرك لاتفى للمدينة . الروح الاقطاعية .
الفرسان الاستقبارية والداوية .

لقد رأينا كيف نهضت جماعة من الصليبيين إلى الإمبراطور ، عارضين
عليه القدوم إلى أنطاكية وتسلبها منهم بعد استردادهم إياها من ياغي سيان
وقضائهم على قواته وقوات النجدة التي جاءت لمعاوضته ، غير أن الإمبراطورية
البيزنطية أضاعت فرصة طيبة من يدها حين تأخرت عن قبول فكرة المشاركة
في الحملة الزاهية لاستعادة الأماكن المقدسة ، ثم تحركت من سباتها بعد هذه
المدة الطويلة من الانتظار المسمم معلنة اعتزامها الاشتراك معهم في شهر يولية
١٠٩٩ م ، ، ولا يعرف السر في هذا التأجيل إلا ما يمكن أن يقال من أن
الإمبراطور أراد أن يسير إلى النهاية في اتفاقية السرية مع الفاطميين
بمصر ^(١) . غير أنه يحق لنا أن نتساءل عن العلة التي حركت الإمبراطورية
بعد هذا السبات العميق ، والأرجح عندنا أنها نظرت بعين الخوف إلى
توسع الصليبيين في الفتح في نواحي سورية الشمالية ومتاخمتهم لحدودها ،
ورأت الخير كل الخير في أن يكونوا بعيدين عنها . وسواء أكانت
الإمبراطورية البيزنطية صادقة في عزمها على المساهمة في الزحف على بيت

(1) Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis Comnène, p. 206; Grousset :
Hist. des Croisades, t. I, p. 137—140.

المقدس أم غير صادقة ، فالثابت الذى لا يرقى إليه الشك هو أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن النهوض إليها أمر لا بد منه أن آجلا أو عاجلا ، وهو أمر تدعوهم إليه عوامل شتى ، أهمها ضيق أنطاكية عن أن تسع نواحي النشاط الصليبية المختلفة ، فقد وسعت كثيرا من أمرائهم ، ومنهم من يطمع فى تأسيس إمارة يستقل بها فى الشرق ، ومعنى بقائهم فى بقعة واحدة هو تحرك العصيات الإقليمية وتقديم المصالح الشخصية واحتكاكها بعضها ببعض ، مما يؤدى بطبيعة الحال فى النهاية إلى مقاتلة بعضهم البعض الآخر ، كما أدركوا أن طول لبشهم فى بلاد الشام منذ خروجهم من أوربة سنة ١٠٩٥ أضعف الحدة الدينية عند الكثيرين منهم ، وتجلى للعيان أن العامل الدينى تخلى عن مكانه للمصالح الفردى وللمطامع الذاتية عند الأمراء ، ولم يعد خافيا عليهم أن توسعهم فى الجنوب وما يقدر لهم من الانتصار على القوات الإسلامية الضعيفة سيؤدى حتما إلى شد عزائم المتقاتلين ، ويفتح لهم مجالا جديدا للحياة ، سواء فى التجارة أم السياسة . لكن لم يأخذ بهذه الفكرة كثير من الزعماء .

قر رأى بوهيمند على أن تنهض الحملة إلى بيت المقدس ، واختلفت الآراء فى بادىء الأمر حول هذا الموضوع ^(١) ، ذلك أن أكثر الزعماء لم يؤيدوا قلبياً فكرة النهوض إلى بيت المقدس لأن معنى هذا تخلى الأكرثية عما بيدها من أنطاكية وحصون النواحي القرية منها التى تهباً لهم فتحها وانتزاعها من أيدي أصحابها المسلمين ، عربا كانوا أم سلاجقة ، أما تحمس ريموند للزحف على القدس بعد قدوم الإمبراطور فراجع إلى اعتناقه الفكرة القائلة بوجوب رد أنطاكية لصاحبها الشرعى ألكسيس كومنين ^(٢) . ومهما يكن الأمر فقد استقر الرأى أخيراً على وجوب الزحف ، وتناسى الزعماء أحقادهم

(1) Rob. Mon., p. 843—844.

(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 239.

الشخصية ، لكن ما كادت الحملة تسير في طريقها حتى انحدرت جماعة كونت تولوز بقيادته إلى معرة النعمان^(١) يوم ٢٧ نوفمبر ١٦٩٨ . (١٤ محرم ٥٤٩٢ هـ) فوجد من أهلها مقاومة لم يكن يتوقعها أبداً ، وظلوا على مقاومتهم مؤمليين عبثا وصول النجدة من رضوان أمير حلب ومن جناح الدولة أمير حمص ، لكن جرت الأحداث بغير ما اشتبهت الأنفس ، فوصلت نجدة صليبية بقيادة بوهيمند لمعاونة ريموند ، فضاغف أهل المعرة مقاومتهم ، وأنكروا على العدو محاولته الفاشلة التي أدت الى مجاعة في صفوفه ، وضيق استولى على على رجاله ، فعمد كونت تولوز إلى بناء برج أعلى من أبراج البلد وأسندته إلى سورها تدفعه الكباش^(٢) ، وأخذ يرمى المقاتلين بالنار والأحجار فكشفهم عنه ، واضطر فريق من الأهالي لطلب الأمان فأجيبوا إليه ، لكن الصليبيين — لاسميا بوهيمند — مالبثوا أن نكثوا بعهدهم لهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ورفعوا الصليبان فوق البلد ، وقطعوا على اهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشيء مما قرروه^(٣) .

أدى هذا الفتح إلى تجدد النزاع بين الزعيمين الصليبيين^(٤) حول اقتسام الأسلاب والغنائم أولا ، وحول سوق الزعامة الدينية إلى بيبير التروبوني ثانيا ، فقد أصر ريموند أن يكون بطرك المدينة هو بيبير ، فلم يُرض ذلك بوهيمند لما رآه من تمسك البروقنساليين من جميع نواحي البلد من وجهة النظر الدينية ، كما قدر أن ذلك الاختيار بالذات يجعل ريموند صاحب اليد العليا ، ويحمل رجال الدين والمتشيعين له على الوقوف في صفه .

بهذا النزاع فضح بوهيمند نفسه في أعين الصليبيين ، ووضح لهم أنه لم يكن مخلصا في حمله الصليب بل محمولا عليه بأطماعه الخاصة ، وتجلي لهم أنه

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ . ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ،

ص ٥٨٦ — ٥٨٧ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

(٣) Raim. d'Agiles p. 268—271 ; Hagenmeyer : Chronologie de la première croisade, No. 316.

Raim. d'Agiles, p. 270.

(٤)

يستوى عنده أن يكون تابعا لبيزنطة أو مستقلا ما دام هو في كلتا الحالتين أميرا على ما يريد ويشتهي ، وأدرك عامة الفرنجة وفقراؤهم أنهم يبذلون أرواحهم ويهرقون دماءهم لغرض في نفس بوهيمند ، وتحقيق مأربه دون رعاية منه للصالح الصليبي العام ، أوللفكرة الدينية التي حرّكت الجمهور الأكبر منهم ودفعتهم على الدخول في تجربة قاسية في سبيل نصر المسيحية ورفع الصليب في بلدان ساحل الليفانت ، فلا جرم إذا انصرفوا عن بوهيمند إلى ريمند الصنجيلي وولوه قيادتهم في زحفهم على بيت المقدس ، لاسيما وأنه دلّ منذ مقدمه على صلابته وكان أحد اثنين رفضا أن يقسما يمين الولاء للإمبراطور ، وطبيعي أن يصادف هذا العرض هوى في نفس ريموند ، وتعهد بالهوض معهم في مستهل ١٠٩٩ م ، ثم أخذ في الاستعداد لهذه المهمة الجسيمة ، وطلب من الزعماء الالتقاء به في الروج فلبوا جميعا الطلب ، وتعهد لهم بأن تكون نفقات سفرهم على حسابه الخاص ، وقدم بوهيمند فأعلن استعدادده للمساهمة في الحملة إذا تخلى له ريموند عما بيده من الأبراج في أنطاكية فرفض الكونت شرطه ، وخرج ريموند من معرّة النعمان يوم ١٣ يناير ١٠٩٩ م (١٧ صفر ٤٩٢ هـ) حافي القدمين ، متحملا آلام الطريق ، متمثلا بالمسيح ؛ ومن العجيب المدهش أن ينصرف جميع الزعماء الصليبيين عنه يوم خروجه ، وانقلب كل إلى ناحية من النواحي التي تم لهم فتحها ، فزاد ذلك الانصراف من قدره في أعين الحجاج والمحاربين ، وكانت تلك أجل خدمة قدمها إليه منافسوه ، دون أن يدركوا ما تنطوى عليه من النفع له ، والإيقاص من قدرهم لدى عسكريهم .

بيت المقدس !!

ليس أحب إلى المسيحي من هذا الاسم ، فهو يحمل إليه صوراً من ماض بعيد بسنواته ، ولسكنه حتى بذكرياته ، وهو يمثل له البقعة الطاهرة التي درج بها المسيح ، وكرز في نواحيها ، ولقي أشتاتا من العذاب الجرم من

أجل هداية خرافها الضالة ، وكان طعامه أن يعمل مشيئة الذى أرسله .
أليست الحياة الأبدية — كما فى الإنجيل — لمن يسمع كلامه ويؤمن بمن
أرسله ولا يأتى مثل هذا قط إلى دينونة ، بل ينتقل من الموت إلى الحياة ؟
وأى شرف أجل فى نظر النصرانى من أن يعفر وجهه فى تراب تلك
النواحي المجيدة !

خرج ريموند بهذه القوات المؤمنة قاصدين أقدم بقعة عندهم ، ومروا
فى طريقهم على بلدان وإمارات عربية خالصة مثل كفرطاب وشيزر ، فلم
يجدوا منها إلا المبادرة إلى الخضوع والاعتراف بتبعيةها لهم ، أو على الأقل
موادعتهم وتأمين سيولهم وهم سائرون إلى الأماكن المقدسة ، وتزويدهم
داخل بلادها بما يحتاجون إليه ، وكان أول من قدم هذه العروض «سلطان»
أمير شيزر ، طمعا منه فى أن تحملهم سياسته اللينة على الابتعاد عن أرضه ،
فلم يراعوا ذلك بل ضربوا خيامهم على أبواب البلد مما أثار حق سلطان ،
وحمله على تهديدهم بقطع الذخيرة عنهم ، وإن كان فى الوقت ذاته قد أرسل
رسولين من قبله ليدلاهم على مخاضة نهر العاصى إلى وادى سروج حيث
يجدون المرعى الخصيب لجيادهم فلم يعارض الصليبيون ، وما كان لهم أن
يعارضوا حتى لا يحملوا بقية البلدان أو بمعنى أدق — الأمراء المسلمين —
على النظر لهم بعين السخط ومصارحتهم به ، وتجنبنا لما يؤدى ذلك إليه من
مضايقتهم ، لا سيما والطريق طويل ، والرحلة شاقة .

يم الصليبيون حينذاك شطرنج^(١) ودل مسلكهم هذا على أنهم يريدون
أن يتوجهوا إلى بيت المقدس عبر الشاطئ فيمرون إذ ذاك على طرطوس
فطرابلس فيبروت فصيда فعكا ، الأمر الذى لم يرق فى عين تنكريد لتناقص
عدد الصليبيين ، وما يستدعيه هذا الطريق من محاربة البلدان المختلفة ، مما هم
فى غنى عنه الآن ، وكان الحق فيما ذهب إليه تنكريد ، لأنهم فى مسيس
الحاجة إلى البقية الباقية من رجالهم . واتجهوا عقب هذا مباشرة إلى

(١) ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

« مصيف »^(١) فخرج إليهم أميرها يوم ٢٢ يناير ١٠٩٩ م وعقد مواعدة مع ريموند الصنجيلي ، رحل الصليبيون بمقتضاها إلى « بعين »^(٢) فرنية^(٣) ، فلم يجدوا مقاومة لأن أهلها رحلوا عنها ، وأصاب الفرنجة ذخيرة وافية فأقاموا حيث هم ثلاثة أيام ، نزلوا بعدها على البقيعة ، فلما علم سكانها وكلهم من العرب والبدو — بنزولهم استبد بهم الخوف ، وانطلقوا يلتمسون النجاة هرباً بما خف حمله وعلى ثمنه ، والتجأوا إلى أسوار « حصن الأكراد » فتعقبهم المهاجمون وشددوا الحصار عليه حتى سقط في أيديهم ، وفي اليوم التالي أقاموا احتفالاً بعيد ذكرى دخول المسيح إلى الهيكل ، كما وفدت عليهم رسل من قبل جناح الدولة صاحب حمص ، تحمل إليهم الهدايا وتؤكد المواعدة والاتفاق . كما توالى عليهم وفود النواحي المجاورة مستأمنة قاطعة لهم العهود بالمحافظة على سلامة الحجاج ، وأخذ الصليبيون بعد ذلك في التقدم شطر طرابلس ومتولى أمرها يومذاك أبو علي نحر الملوك بن عمار ، فلما تراءى إليه نبأ مسير القوم أدرك الخطر المهدد لإمارته ، ورأى سلامته وسلامتها في مصانعتهم ومداراتهم^(٤) ، لاسيما وهو يدرك أن السلاجقة أضعف من أن ينهضوا لنجدته . وقبل ريموند ما عرضه عليه ابن عمار وأرسل إليه سفارة صليبية عادت فأخبرته بغنى الأمير المسلم ، فشدد كونه تولوز الحصار على بعض المدن الطرابلسية وعاونته أمداد بحرية من سفن البنادقة^(٥) .

حينذاك لم يجد المسئولون غير الإرجاف بشائعة كاذبة استهدفوا من ورائها إلى بث الخوف في نفوس الصليبيين ليرفعوا حصارهم عن « عرقة » ، فرغموا أن خليفة بغداد والسلطان بركياروق قد أعلنوا « الجهاد » دفعا للغيرين وأنهما غادراها على رأس جيش لجب قاصدين طرابلس ، وصدق ريموند

(١) أو مصيب ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٧٩ .

(٢) ذكر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، أن صحتها « باوین » .

(٣) ياقوت : شرحه ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .

Raim. d'Agiles, p. 275.

(٤)

Raim. d'Agiles, p. 276.

(٥)

هذه الشائعة فطلب من جودفروى وكونت فلاندر القدوم عليه وضم قواتهما إليه ليكونوا جميعا يدا واحدة ازاء الخطر الجديد ، وللمبادرة للاستيلاء على عرقة (١) ، لكن سرعان ما تبين القوم كذب هذا الادعاء (٢) .

أما حقيقة هذه الشائعة التى ظنها جودفروى خديعة من ريموند حتى يدفعه لرفع الحصار عن جبيل (٣) فتتلخص فى ما ذكره ابن القلانسى (٤) ، من أن صاحب عرقة أنفذ سنة ٥٠٢ هـ رسوله إلى ظهير الدين أتابك يلتبس منه المعونة على دفع الإفرنج عنها وإنفاذ من يتسلها « فندب بعض ثقاته فتسلها وأقام واليا بها منتظرا وصول العسكر إليها والوفاء بما وعد به من الخانع والإحسان إليه ، وحدث فى الوقت من الثلوج والأمطار ماعاق المسير إليها ، وقلّ القوت بها وانقطعت الميرة عنها ، فبادر الإفرنج بالنزول عليها ، وتوجه ظهير الدين عندذاك إليها فصادفهم قد أحاطوا بها ولم يتمكن من دفعهم عنها . وعاد إلى حصن « الأكمة » ونزل عليه وقاتله ، فلما عرف الإفرنج ذلك نهضوا إليه فى تقدير ثلثمائة فارس لإنجاد من بالأكمة فوصلوا إليهم ليلا فقويت نفوسهم ، واقتضى رأى أتابك الرحيل عنها بحكم من صار فيها منهم فرحل كل من هزم وطمع فيه . . . وعاد الإفرنج إلى عرقة وعدم القوت فيها فلكوها بالأمان ،

لم يكن جودفروى بالحريص على معاونة ريموند الصنجيلى فى تشديد الحصار على « عرقة » لذلك أصر على وجوب النهوض حالا إلى أورشليم . أما ريموند فكان غير حريص على المضى لما يريده جودفروى . وشجب الخلاف فى رأى بين الزعيمين كل يدافع عن وجهة نظره ويؤيدها بما يتفق — فى زعمه — والصالح العام ، وكانت حجة ريموند أن القضاء على إمارة طرابلس يجعل القوات الصليبية آمنة من ضربة تأتيتها من الخلف إن هى

Rob. Mon., p. 853, Foucher, p. 352.

(١)

Raim. d'Agiles, p. 277; Alb. d'Aix, p. 453 ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير ، الكامل ،

(٢)

Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis comnène, p. 258.

(٣)

(٤) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٦٢ ، Rob. Mon., p. 853

تقدمت إلى الجنوب ، وكاد الخلاف بينهما يؤدي إلى افتراق الكلمة ، لولا أن شغلوا حينذاك بأمر سفارة وفدت من قبل الإمبراطور ألكسيس كومنين تحمل إليهم رسالة مؤداها : إن جميع البارونات كانوا قد أقسموا بالأنجيل المقدسة برد كافة المدن والقلاع التي كانت من قبل تابعة لإمبراطورية القسطنطينية بمجرد استيلائهم عليها هي وبقية الأراضي التي تمتد حتى بيت المقدس ^(١) ، والواقع أن الإمبراطور لم يكن بالمتعسف في طلبه هذا ، وإنما هو التفسير العملي لاتفاقية ١٠٩٧ التي تعهدوا له فيها بشرفهم — كفرسان مسيحيين — بإرجاع كل ما كان ملكا للإمبراطورية . ولدينا رسالتان متبادلتان بينه وبين بوهيمند بصدد هذه المشكلة ، فقد جاء في رسالة الإمبراطور إلى دوق تارنت قوله : « إنك تدري أنك وبقية الكونتات الإفرنج قد قطعتم يمين الولاء والإخلاص لي ، وأنت الآن يا بوهيمند أول من تنقضه باستيلائك على أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن الإمبراطورية ، فأخرج حالا من هذه المدن إذا كنت راغبا عن إثارة حرب جديدة » فأجابه بوهيمند : « إن الفرنجة لم ينقضوا عهدهم إلا لأن ألكسيس نفسه قد أخلف عهده معهم . ألم يقسم بمصاحبة اللاتين في الحرب ومشاركتهم الخطر ؟ لقد صادف المسيحيون العذاب في حصار أنطاكية دون أن ينهض الإمبراطور لمساعدتهم » .

بهذه اللهجة العنيفة كان كل من الإمبراطور وأمير تارنت يكتب الآخر ويغلظ له في القول ، ورفع كل منهما القناع وجاهر الآخر بالعداء ، وأظهر ما كان مطويا في دخيلة نفسه ، وعُرف أن كلا منهما كان بمادقا في صداقته لصاحبه مما دعى ريموند إلى القول بوجوب انتظار مقدم ألكسيس ومصاحبته في الزحف على الأماكن المقدسة ، وبذلك انتقل كونت تولوز من موقف المعارض لرغبات الإمبراطورية إلى المؤيد لأطاعها ، ولعله رأى في ذلك وسيلة لتحقيق إرثته من حيث استعماله على إمارة طرابلس ، ولم يخف

ذلك على جودفروى الذى مانع فى التريث ، متهماً الإمبراطور بخلف الوعد وعدم رعاية مصالح المحاربين ، واشتد الجدل بين الزعيمين الأوربيين شدة رنّ صداها فى المعسكر الصليبي بأجمعه ، وتناقله الجند ، واستحال الهمس إلى جلبة ، وراحوا يتناقشون فيما بينهم « مَنْ مِنَ الفارسين المخطيء ومن منهما المصيب ؟ » . واستعادوا فى ذاكرتهم موقف بوهيمند أمس من ريموند فإذا به يتكرر اليوم ، ولكن بين ريموند وجودفروى .

وحاول بيير بارتلى — صاحب معجزة الحربة المقدسة — أن يحمل الصليبيين على الوقوف إلى جانب صاحبه ريموند بوجوب الهجوم على عرقه مدعياً أنه أوحى إليه ذلك فى نومه فلم يفلح فيما حاوله لوقوف أحدهم ضده ، ورميه إياه بالكذب ، وتشكك البعض فى قصة الحربة المقدسة وعدّها خديعة منه فخاجهم بيير أن يمر بالنار فإن سلم كان به — وإلا فلا داعى للتريث فى طرابلس ، واضطر بيير لقبول هذه المباهلة لكنه لم يلبث أن مات بعد بضعة أيام^(١) (يوم ٢٠ أبريل ١٠٩٩) ، وطبيعى أن يؤدى موته فى مثل ذلك الوقت وبين مثل تلك الجماعة إلى انتصار فريق جودفروى وهو الفريق الأكبر ، ولم يكن ثم بد لريموند من الخضوع لرأى الأغلبية مخافة أن ينفض من حوله الكثيرون ، لاسمياً وقد أبصر تنكريد ينحاز إلى جانب جودفروى ، فاضطر كونت تولوز إزاء هذا الإجماع لرفع الحصار عن عرقه يوم ١٣ مايو عام ١٠٩٩ بين دموعه وآلامه أو على حد قول مؤرخه^(٢) *Conturbabatur*

comes usque ad lacrymas et usque ad sui atque suorum odium » وضاعت آمال ريموند واضطره موقف جودفروى للتخلي مؤقتاً عن إمارة كانت قطوفها دانية له ، وإذا كانت آفاق تلك الحادثة المكانية ضئيلة ، فإن ما يترتب عليها لجد خطير فى تقرير سياسة الصليبيين ، وفى بدء معرفة المسلمين

(1) Foucher, p. 344—345.

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 199 d'après Raim. d'Agiles.

بحقيقة موقف المغير المحتل ، وإن لم تعد هذه المعرفة أفق مسلي طرابلس فحسب .

لم يخف شيء من الفرقة في الرأي بين الزعماء على أمير طرابلس ، فعادت المقاومة من جديد من جانب أهل البلد ، لكنها ما لبثت أن هدأت ، وأمد ابن عمار الصليبيين بمبلغ ضخم من المال لقاء رفعهم الحصار عن عرقة ، ومضوا بعد ذلك في طريقهم — بفضل مرشديه — إلى بيروت ، تساعد السفن في البحر ^(١) .

لقد استطاع الصليبيون الاستيلاء على الرها وأنطاكية وهزموا القوات الإسلامية في كثير من بلدان سورية الشمالية ، ووقفت طرابلس وحيدة أمام قواتهم ، واشتمل اليأس على أهلها من جرّاء تأخر وصول الأسطول المصري والميرة والنجدة ، واستسلمت لهم فصار للجنويين ثلث البلد والثلثان لريموند الصنجيل ^(٢) .

— ٢ —

مر الصليبيون في طريقهم إلى بيت المقدس على بعض بلدان الساحل اللبناني ، فتلقاهم بعضها بالعطف والتأييد والمبادرة للاعتراف بالتبعية لهم على شرط فتح بيت المقدس كما فعل أهالي بيروت ، وأخذ آخرون في مقاومتهم كأهل صيدا ^(٣) . وإن جازاهم الصليبيون بالعنف والشدة ، ثم توالى الإمدادات الصليبية من الرها وأنطاكية ، وساروا في سبيلهم قدما فروا على صورو عكا واللد والرملة حيث عقدوا مجلس المشورة للتشاور فيما ينبغي عليهم اتخاذه ولتنسيق خطة السير ، وكان الوقت (يونيو) قد آذن بالحرارة ، والصيف قد اشتد ، فانقسم الرأي ، إذ مال فريق للزحف على مصر وحجته في ذلك أنه بمحاربتها والقضاء عليها وتحطيم قواها يضمن الاطمئنان من وثبات تأتيمهم من الجنوب بين حين

(١) Albert d'Aix, p 457—458 ; G. T., (R. Hist. Occ. Cr.) p. 310.

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ١٦٣ .

G. T., Op. Cit. p. 311—312.

(٣)

وآخر ، وتكفل لهم حرية التجارة البحرية والبرية وسلامة الشواطئ . وعدم تعرضها لخطر الأسطول المصرى ، وأما الفريق الآخر فقد رأى أن الحكمة وسداد رأى تحيّن عليه وجوب الزحف مباشرة على القدس والاستقرار بها والتحصّن فيها ، وزعيم هذا رأى جودفروى الذى ما كاد يصل إلى « القبية » حتى وفدت عليه جماعات كثيرة من مسيحيّ بيت لحم يحثونه على الإسراع لما نصب نفسه من أجله ، ويعدونه بالمعونة وهى فى أيديهم ميسرة ، وذلك لأن عمال الدولة الفاطمية يستعملونهم فى تحصين المدينة ، فأرسل جودفروى ربيّنة استكشافية ، تتحقّق له من صدق الأمر بقيادة بلدوين دى بروج وتنكريد الزمانى على رأس ثلثة ضئيلة من الفرسان ذهبوا إلى بيت لحم ، فبلغوها مع الفجر ، فلما علم بها مسيحيوها خرجوا « حاملين الصليبان والأناجيل ، مرتلين تراتيلهم الدينية مهللين بمجدين الرب » ، واستبدت بهم الفرحة فمضوا يقبلون أيدي الفرسان ، إذ رأوا فيهم مخلصين لهم « مؤملين أن أن تعود بملكه ابن السماء على أيدي فرسانه » ، وقدموا بهم إلى الكنيسة « التى قامت بها ذات المجد أم يسوع الطفل مخلص العالم ، وأرادوا إظهار ما فى نفوسهم من الفرح فرفعوا راية تنكريد وركزوها عالية على كنيسة أم الإله (١) » . وإذن فلم يعد ثمت شك يخامر نفوس الصليبيين فى نوايا مسيحيّ بيت لحم ، وهل أدل على إخلاصهم لهم من تعريضهم أنفسهم للخطر فى الوقت الذى لا تعدو فيه هذه الربيّنة أن تكون مائة فارس لم تقدم للفتح !!

والواقع أن بلوغ الصليبيين بيت لحم جعلهم يدركون أنهم أوشكوا على الغاية التى غادروا من أجلها أوربة ، وأنه قد آن لهم أن يستريحوا بعد رحلة دامت أكثر من عامين لاقوا فيها من الآلام والعذاب والأمراض والجوع ما تظل ذكراه باقية فى أذهانهم وأذهان مؤرخى الحملة الذين حفظوها لنا ، وشعروا جميعا بالعزاء الروحى والسكينة تنزل فى قلوبهم ، وعادت إلى أذهانهم ذكرى السيد المسيح .

(1) Foucher, p. 354—355 ; Albert d'Aix, p. 462, G. T., p. 316.

ألم تكن هذه القرية مهد طفل نفخ الله في أمه من روحه ؟
ألم يكن هذا الطفل هو الذى رأى بجوس الشرق نجمه فأتوا ليسجدوا
له ويقدموا له ذهباً ولباناً ومرّاً ؟
ألم تكن البلد الذى شاهد خروج المسيح مع أمه العذراء وخطيبها يوسف
النجار قاصدين مصر ملجأ كل مضطهد وملاذ كل خائف على عقيدته فى القديم
والحديث ؟

هذه هى بيت لحم !
هذه هى القرية التى خرج منها مدبّر يرعى شعب إسرائيل !!
وهذه هى بيت المقدس يبلغها جودفروى بالجندي يوم الثلاثاء ٧ مايو
١٠٩٩ م فتطالعهم قباها فتلعب نفوسهم حماسة ، وتشتد منهم العزائم .
اليوم يعود أتباع « الراعى الصالح » بعد ألف ومائة من السنين ، مهاجرين
محاربين ، ويدخلون البقعة المقدسة عند الأديان السماوية الثلاثة ، فلا عجب
إذا بكوا وجشوا على ركبهم معفرين وجوههم فى ترابها ولعلمهم فى هذه
الآونة بالذات تذكروا أنهم قد ورثوا الحياة الأبدية مصداقاً لقول المسيح^(١)
« كل من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أما أو امرأة أو أولاداً
أو حقولاً من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية » ، وإنا
لنسمع نغمة فى مؤرخ ليست فيها عبارة التاريخ ولكنها أقرب ما تكون إلى
المناجاة حيث يقول « سلام لك أيها السيد الكريم ، ما أغزر الدموع
المنسكبة من عيون شعبك حينما طالعوا أسوار وطنك وأسوار أورشليم ...
لقد مست جباههم الأرض محيين قبرك المقدس . أنت أيها الجالس عن يمين
الله الآب ! » .

فوجىء افتخار الدولة — — حاكم مصر على القدس — بمقدم هذه الجموع
اللجبة ، وأدرك ضعفه عن مقاومتها فعمد إلى تسميم الآبار وطم القنوات ،

وأخرج النصارى من المدينة، وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان (١).

أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساماً حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها فلا يمكنون المسلمون من الاتصال بالخارج (٢)، وشرعوا في الهجوم على القسم الجنوبي من المدينة، وطبعي أن تحملهم الحماسة الدينية على الاستبسال فلا عجب إذا انهارت الأسوار الأولى أمام هجماتهم العنيفة، ولكنهم قاسوا الكثير من نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو وشدة المحصورين في دفعهم عن البلد الذي هو عندهم من الأماكن المقدسة أيضاً حيث أسرى الله بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بآرك حوله (٣)، فالحرب هنا تختلف في طبيعتها وموحياتها ومؤثراتها عن كل حرب سابقة، فهنا تعاون الدين والدنيا في حمل الجانبين على القتال العنيف، وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون هذه المرة خصماً يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهكا لحرماته الدينية، فلا مشاحة إذا اصطنع الفرنجة كل وسيلة من وسائل القوة فقرروا بناء آلات الحصار والقتال ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور (٤)، وجرت الظروف رخاء وفق أهوائهم إذ قدم إلى ثغر يافا يوم ١٧ يونيو ١٠٩٩ م بعض أساطيل جنوية، وكان هؤلاء في العدد القليل لانشغال الجمهورية الجنوبية إذ ذاك بالحرب الأهلية، ويتراوح عدد هذه الأساطيل التي ساهمت في مساعدة الصليبيين في الفتح بين ست وتسع سفن (٥)، حملت إلى المهاجمين ما هم في حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨-٢٩٤. Raim. d'Ag. p. 291-294. Foucher, p 359 ;

(٢) يمكن للفارى مراجعة موقف كل زعيم صليبي في حصارهم لبيت المقدس في : Grousset Hist. des Croisades, t. I. p, 154 — 155. Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 269.

(٣) القرآن ، سورة الإسراء .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

Heyd : Hist. du Commerce, t. I, p. 134 et note 6.

(٥)

والعمال ، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا قوة من رجالهم أخذت نجوس خلال بعض النواحي مسترشدة بالجماعات المسيحية البلدية في الوقوف على الأماكن التي تتوفر بها الأخشاب ، وعمل الجميع في البناء فلم يتأخر عنه الزعماء بل عملوا جنباً لجنب مع أحقر الحجاج والمحاربين ، مما شدد من عزائم الجميع ، وأدركوا أنهم يحاربون من أجل المسيح ، وأقسموا على تطهير أرض السيد من الخطاة^(١) ، وأقاموا صلاة يوم ٨ يوليو ١٠٩٩ م (= رمضان ٥٤٩٢) ردت عليهم هدوءهم الروحي ، وأزالت — أو على الأقل خففت — ما كان قد شجر بين الزعماء من التنازع والخلاف .

شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩ م (٥٤٩٢) ، ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة ، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية حتى إذا كان صباح الجمعة بلغ القتال ذروته ، ولم يعد أحد يتبين أى الكفتين ترجح وأيهما تشيل ، واستمر القتال على هذا المنوال بضع ساعات انفلت بعدها جودفروي بجماعة من الفدائيين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذاً في ناحية لم يهتم المسلمون بتحصينها فدخلوا منها ، وفتحوا أبوابها للفرنجية الذين اندفعوا كالسيل الآتي ، يلع الموت في سيوفهم ، ويصرخون صرخات عالية ، فالتفت المسلمون إلى الوراء وإذا بهم يرون أنفسهم وقد أحرق المغير بهم من كل جانب فلم يجدوا وسيلة إلا الالتجاء إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى معتمدين به ، فتعقبهم الصليبيون بقيادة تانكريد وجودفروي ووضعوا السيوف فيهم ، وسالت الدماء حتى خاضوا فيها إلى ركبهم أو على حد تعبير مؤرخنا حيث يقول *Ut Nostri in sanguine illorum pedes usque ad cavillas mitterent* . مما أخذ على الصليبيين فيما بعد ، واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء كان منظرها مثيراً للبغرين ، حتى لقد نكثوا

(1) Albert d'Aix, t. IV, . p. 470; Raim. d'Agiles, p. 266 — 982, G. T., p. 337 — 340.

بعهد كان تانسكريد قد قطعه على نفسه لجماعة من العرب آمنهم على حياتهم^(١) . فكانت تلك الواقعة « لطنخة » في تاريخ الصليبيين كما يقول الأستاذ جروسيه^(٢) ، كما أنها جعلت « الصليبيين لا يذكرونها إلا وتتشعر أبدانهم فزعاً واشتمزأزاً منها » ، على حد تعبير المؤرخ الصليبي وليم الصوري ، ورن صدى هذا الحادث الجلل في الآفاق ، فقامت من دمشق إلى بغداد وفادة برياسة زين الدين أبي سعد الهروي مستغيثة بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وراح الشعراء يجرضون ، فكان مما قيل قول أحدهم^(٣) :

فإيهآ بنى الإسلام إن وراكم	وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
تحت السيوف البيض محمرة الظى	وسمر العوالى داميات اللهازم
وبين اختلاف الطعن والضرب وقعة	يظل لها الولدان شيب القوادم
وكيف تنام العين ملاً جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضخى مقيلهم	ظهور المذاكى أوطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأتتمو	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وتلك حروب من يغب عن غارها	ليسلم ، يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا	رماحهمو ، والدين واهى الدعائم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى	وتغضى على ذل كرامة الأعاجم ؟

وكثر التحريض من جانب الشعراء المختلفين ، وها نحن أولاء نسمع أخرى يقول فيها القائل :

أحل الكفر بالإسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ، وحى مباح	وسيف قاطع ، ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديراً	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب ^(٤)

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ ، Albert d' Aix ،

p. 485 — 207, G. T., p. 334.

Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 165.

(٢)

(٣) مرآة الزمان ، ص ٥٢١ .

(٤) مرآة الزمان ، ص ٥٢٢ .

والظاهر من هذه النغمة أن الخوف من الصليبيين سرى في الشرق الإسلامي ، وخطر الأعصاب فلم تجد هذه الصرخات صدى ، وقنع المسلمون بالتحسر وإبداء الآسى ، ونسبوه إلى المقادير ، وهل يقول العاجزون إذا ابتلوا إلا أنه أمر الله يانفس فاصبرى ؟

ومهما يكن أمر الجماعات الإسلامية خارج بيت المقدس ، فإن الجماعة التي كانت بها بقيادة افتخار الدولة لم تلبث أن استسلمت لكونت تولوز ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، وتعهدوا له بالمضى إلى مصر ، وخاف ريموند أن يثب عليهم الصليبيون فسار بصحبته حتى وصلوا عسقلان ^(١) .

بامتسلاهم فخر الدولة آلت بيت المقدس للصليبيين ليبدأ نوع جديد من الصراع استمر طيلة قرنين من الزمان حتى تهيأ للمسلمين استرداده .

على أن تملك الفرنجة للقدس آثار مشكلة داخلية هي انقسامهم فيما بينهم على من يتولى أمرها ، أيعهدون بذلك إلى ريموند الصنجيلي أم إلى جودفروي ؟ ولاشك في أن لكل من الفريقين رجاله الذين يؤيدونه ، كما أنه من الطبيعي أن يحاول كل فريق عمل كل ما من شأنه سوق الإمارة لصاحبه ، وإن وجدت جماعات كثيرة تطمع في العودة إلى أوربة بعد أن حققت الغاية التي خرجت من أجلها ، واشتد بها حنينها إلى موطنها الأول حيث خلفوا نساءهم وأولادهم وأحباءهم ومراتع صباهم ، ومن العجيب أن الفريق الأكبر من هؤلاء كان من البروقنساليين أتباع ريموند الصنجيلي ، مما يمكن أن نفسر به ما يزعمه أحد المؤرخين من أنه رفض تاج الإمارة وإن أنكر ذلك عليه غيره ودحضه ^(٢) ، وليس من اليسير علينا أن نقبل الرأي القائل برفض ريموند لولاية القدس إلا في شيء كثير من الحيلة ، وإن كان الإجماع منعقدا على أن جودفروي رفض التاج هو الآخر مبديا ، وإن عاد في يوليو ١٠٩٩ إلى قبوله تحت إلحاح

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ ، 361 ، Foucher

(٢) Albert d' Aix, p. 485, Raim. d'Agiles., p. 301.

الحجاج وإصرارهم مما أثار حفيظة ريموند ولم يحاول كتمانها ، فأبى الاعتراف بهذا الاختيار رغم حث كونت فلاندر وروبرت الترماني له ، كما أنه رفض الرحيل إلى أوربة حتى يحتفل بعيد القيامة ، ثم أصر أن تكون له بعض نواحي المدينة يربط فيها بقواته ، إلا أن أسقف « ألبارة » — وكان من أتباعه — رأى وجوب تسليم كل شيء إلى جودفروى لما رآه فيه من حرصه على الصالح الدينى مما أحق ريموند ، وخرج متخشن الصدر موغره على الجميع ، وغادر تلك الناحية إلى الأردن حيث عمده ، وبذلك بقي جودفروى تغلب عليه النزعة الدينية ، وكانت عنده أظهر من الناحية السياسية ، ولعل ذلك هو السبب الذى جعل رجال الكهنوت يؤثرونه بالولاية كي لا تغلب المصالح المادية الشخصية عند ريموند فتطوى تحتها المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية ؛ أما جودفروى فقد رفض أن يلقب « بالملك » وأبى أن يتوج بتاج من الذهب فى البلد الذى توج فيه المسيح بالشوك ، ورأى الفخر كل الفخر أن يسمى « بحامى القبر المقدس » .

* * *

لم يكن معنى ذلك استقرار الأمور نهائيا للصليبيين ، إذ ما كان لمصر أن تقف إزاء هذه الحوادث المفجعة مكتوفة اليدين ، لاسيما بعد أن رأت احتلال الفرنجة للبلد ولغيره من المدن ، وانضمام العناصر المسيحية إلى جانبهم مما يؤدى بطبيعة الحال إلى تقوية العنصر الأوروبى معنويا ، ومحاولته أخذ بقية ما فى يد الجاليات المصرية من المدن الساحلية ، وما يترتب على هذا من وفود الأساطيل الأوربية من جنوة والبندقية وأمالفى وإنجلترا ونمديا واسكنديناوة ، الأمر الذى يجعل من شرقى البحر الأبيض المتوسط وحدة بحرية صليبية تنازع مصر السيادة فيه ، فلا عجب إذا تحركت مصر وإن جاء تحركما متأخرا لوقوعه فى أغسطس ١٠٩٩ (= رمضان ٤٩٢ هـ) ، ولم يخف خبر التحرك عن سمع الصليبيين فتردد صداه فى القدس ، وسمع به جودفروى ، فأنفذ على جناح

السرعة رسولا إلى تنكريد — وكان في نابلس — يستدعيه هو والقوات التي معه للمساهمة في رفع الخطر الفاطمي ، وشاءت الظروف أن تذهب أبعد من هذا في خدمة الصليبيين ، ف وقعت في أيديهم ربيثة مصرية أرغموها على الإقضاء لهم بخطة سير الجيش المهاجم ، وعرفوا منها أن الأفضل^(١) خرج بنفسه على رأس المهاجمين وأنه قد بلغ عسقلان وهو في انتظار الأسطول والنجادات التي وعده العرب^(٢) بها .

بعث جود فرى إلى بقية الأمراء الذين ساهموا في فتح بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة ، ولم يتخلف منهم أحد ما حتى كونت تولوز على الرغم مما أبداه — حين وصلته الدعوة — من الرفض ، وبذلك وحّد الخطر الفاطمي جميع القوات الصليبية .

تجمعت هذه القوات في « بينا » التي تعرف في المراجع الفرنجية ب Ibelin واتجهت جنوبا قاصدة عسقلان ، وساروا وحدة ، في القلب روبرت الترماني وكونت فلاندر وتنكريد ، وفي الميمنة ريموند الصنجيلي ، وفي الميسرة جود فروي ، ولم يكن لدى القوات المصرية علم بتحرك الصليبيين ، ولم تكن تتوقع زحفها بمثل هذه السرعة ، فلا عجب إذا هي فوجئت ولم تجد الوقت الكافي لحمل السلاح ، وبأذر الصليبيون فلم يدعوا لها فرصة تتأهب فيها ، وكر كونت فلاندر على حامل العلم المصري فقطعه بسيفه ، وانطلق في إثره الصليبيون فدخلوا المعسكر المصري ونهبوه وتمت الهزيمة على الجند الفاطمي ، وهرب الأفضل في خواصه إلى مصر^(٣) ، أما البقية فهرب بعضها إلى إحدى الغابات فأضرم الصليبيون فيها النار فأنت عليها وعلى من بها^(٤) . وبذلك خلى البلد من المدافع عنه ، وأصبح من اليسير على القوات الصليبية أن تشق طريقها

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ رآة الزمان ، ص ٥٢٠ .

(٣) ابن القلانسي : شرحه ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٦٤ ، Albert d'Aix, p. 497 .

دون أن تخشى عائقا ما ، وأن تواصل الزحف حتى يستسلم البلد بأجمعه ، وهذا ما هدف إليه جودفروي ، لولا أنه اصطدم بظهور روح العداء ضده من جانب النافسين عليه تولى أمور بيت المقدس . والواقع أن جودفروي من جهته هو الآخر كره من ريموند ميل العسقلانيين إليه وتفضيلهم الاستسلام له دون سواه ^(١) ، معتمدين على محافظته على عهده الذي يقطعه لهم بالإبقاء على حياتهم ، وتأمينهم على حرياتهم ومقدساتهم وأموالهم ومعتقداتهم ، فطلب إليه جودفروي مغادرة البلد حالا ، وكان الصليبيون قد قرروا على أهلها عشرين ألف دينار ، وشرعوا في جبايتها ؛ إلا أن هذه الجفوة بين الزعماء أدت بهم للرحيل دون أن يقبضوا شيئا ما ^(٢) .

حينذاك وضح العداء بين الزعيمين الصليبيين وضوحا تاما ، فقد تراجع ريموند إلى الشمال شطر أرسوف ، وفي الوقت ذاته حث العسقلانيين على الشدة في مقاومة جودفروي منبثا إياهم بانقضاء العدد الجند من الجند من حوله ^(٣) ، فطال حصاره لها مدة تقرب من الشهرين ^(٤) ، هذا إلى قلة ماله من الرجال ، كما عز عليه حصارها بجرا ^(٥) ، ولم ينفذ الأفضل نجدة لها سوى ثلة ضئيلة لا تعدو ثلاثمائة مقاتل ، على حين وصلت الصليبيين نجادات بحرية من أساطيل بيزا ، مما حمل أهل أرسوف على الاستسلام أخيرا بالأمان ^(٦) .

لم يبق من القادة الصليبيين إلى جانب جودفروي سوى تانكريد ، فعهد إليه بقيادة الجند وأقطعه مقاطعة الجليلي وأمره عليها إذ وكل إليه فتحها فخرج في شردمة ضئيلين ، ولم تعز تلك الناحية عليه بل استسلمت له دون أن تهرق

(١) Hagenmeyer : Chronologie, no., 435.

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

(٣) Riant : Inventaire, p. 200.

(٤) Albert d'Aix, p. 497 — 499; cf. Hagenmeyer : op. cit. p. 496.

(٥) Albert d'Aix, p. 507 — 509.

(٦) ابن القلانسي ، شرحه ، ص ١٣٩ .

نقطة من الدماء واتخذ طبرية عاصمة لها (١). ثم تقدم فاحتل بلدة بيسان وحصنها وأرغم البدو على ترك هذه المنطقة فأمنت القوافل من غاراتهم .
غير أن القدر لم يمهل جوذفروى طويلا فما لبث أن مات سنة ١١٠٠ ،
وتولى مكانه أخوه بلدوين كونت الرها .

بهذا ختمت رحلة الحجاج الأوربيين المسلحين القادمين إلى الشرق على رأس القرن الحادى عشر لليلاد ، ويبدأ دور جديد من العلاقات المحلية والنظم المستمدة من عادات الشرق والغرب معاً . وينسب المغير الأوربى وطنه ليندج اندماجا كليا فى الشرق العربى ، وتتفتح آفاق جديدة فى التفكير والثقافة ، وتتعدد نواحي النشاط الاجتماعى والاقتصادى والترابط بين الشرق والغرب .
كان امتيلاء الصليبيين على بيت المقدس وإخراج أهله المسلمين منه خاتمة مطاف حربى استمر بضع سنوات ، حرم فيها الحجاج الأوربيون من رؤية أوطانهم وأولادهم ومرايع شهدت فترة من حياتهم وهلك الكثيرون منهم فى مناطق السير المختلفة ، أما الذين قيضت لهم الحياة فقد تنازعهم الحنين إلى أوطانهم الأولى ، وحبها إليهم أيام شبابه التى قضوها هناك ، كما استبد بهم الأسى على من قضى من رفاقهم . على أن هناك عاملا هدهد من أحزانهم ذلك هو امتلاكهم بيت المقدس ، وبذلك تحققت أمنية من أشهى أمنياتهم بل غاية أمنياتهم .
فتحت مدينة بيت المقدس الحافلة بالذكريات الدينية العميقة ، وهنا ظهر الخلاف واضحاً بين الصليبيين أنفسهم حول إدارة دفة الأمور بها ، أنشؤوا كسل إلى رجال الدين يدبرون شؤونها ويصرفون أمورها حسب وجهة نظرهم وبما يتفق وطبيعتهم ؟ أم يُختار أحد الفرنجة الأمراء ليكون ملكاً ؟

انقسم القوم فريقين لكل مؤيدوه ومناهضوه ، أما رجال الدين فقد أنكروا أن يتوج أحداً فى البقعة التى تألم فيها المسيح « وتوج فيها بتاج من الشوك » ، ثم إنهم قالوا إن بيت المقدس ليست كباقي مدن العالم وليكنها مدينة الرب Civitatis Dei ، وليس بنا من حاجة للقول بأن هذه الفكرة لم

تجد مكانا خصيبا في نفوس الأمراء ، ومرجع ذلك هو تغلب المنفعة الذاتية على الجانب الروحي ، فهم يرون أنهم قاموا بأجل عمل يشابون عليه ، ألم يخرجوا من بلادهم وأرواحهم على أكفهم لا يدرون متى يلاقون منيتهم ؟ ألم يغادروا الأهل والأوطان في سبيل نصره « الفكرة المسيحية » التي دعى إليها البابا إربان الثاني وعمل بطرس الناسك بشعوذته الدينية على تثبيتها بكل الوسائل التي تجوز على السذج لأنها تخاطب العاطفة أكثر مما تخاطب العقل ؟ وإذا كان المسيح هو القائل اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فما أجدر هؤلاء الأمراء أن يحنوا ثمار تضحياتهم في الميادين المختلفة بتوزيع أحدهم ملكا على بيت المقدس ، ثم إن في الملكية نوعا من الاستقرار والهيبة لا يتوافران في غيرها من النظم السياسية التي تبدعها الجماعات المختلفة ، وهي نظم ليس لها ما يدعمها من المنطق أو التطور التاريخي أو التقدم الاجتماعي ، إلا أن كل هذه الاعتبارات لم يكن لها أدنى قيمة عند رجال الدين الذين أرادوا أن لا تكون يد فوق أيديهم في تصريف أمور المدينة ، وما دامت هي « مدينة الرب » فهم أولى من غيرهم بأن يكونوا أصحاب السلطة العليا . هذا إلى أنهم كانوا يرون أن الحملة حملة دينية بدليل أن البابا آثر إلقاء قيادتها إلى « إدماردي موتل » ولم يقبل إيكالها إلى كونت تولوز ، هذا إلى أنه لم يختار أحدا لتولي قيادتها العامة بعد موت نائبه أسقف پوى ، ثم إن في الخطاب الذي أنفذه الصليبيون إلى البابا لدعوته لتوليها بعد موت إدمار اعترافا صريحا بالزعامة الدينية وترجيحها على الزعامة الدنيوية ، وطبيعي أن يشتد الجدل بين الفريقين حول هذه المسألة الخطيرة التي لا يستبعد أن تقسم الصليبيين إلى معسكرين مختلفين في الرأي تمام الاختلاف بصدد مشكلة لها أهميتها العظمى ، وكان أخشى ما يخشاه أصحاب التوفيق أن تذهب الفرقة في الرأي إلى إفساد ما بينهم من وشائج الود والصداقة ، لذلك رأى فريق منهم عقد مؤتمر يضم عشرة من رجال الدين والأمراء لتبادل وجهات النظر المختلفة والاستقرار على رأي يرضى إلى حد ما

الطرفين حتى لا تكون فتنة ، واتفقوا على وجوب اختيار واحد من الأمراء ليكون « رئيسا » ومدبرا لشئون بيت المقدس .

لم يكن ذلك نهاية للشقاق بل بداية نزاع جديد ولكنه ليس نزاعا بين البارونات وبين رجال الدين ، بل انحصر بين الأمراء أنفسهم ، فقد رأى كل منهم ذاته أهلا لتولى هذه الرئاسة ، ومهما يكن الأمر فقد انحصر النزاع بين شخصين هما جودفروى دى بويون وبين ريموند الصنجيلي الذي لم يكن ثم أنكد حظا منه في هذه الرحلة المسلحة منذ البداية حتى النهاية ، فقد فجعه البابا فيما كان يطمع فيه من تولى قيادة الحملة ثم إخراجيه من أنطاكية ، وهاهى الفرصة تلوح أخيرا لتعويض ما فقدته ، فهل ترى الحظ يؤاتيه بعد أن أخطأ مرتين ؟ وهل آن للأقدار أن تكفر عما حالت بينه وبين نواله فيتوج على بيت المقدس ؟ ليس بنا من حاجة لأن نقول إنه بذل غاية جهوده حتى يقع الاختيار عليه ، فهو لا تنقصه الشجاعة ولا المال ولا الرجال ولا الحماسة الدينية ، وهو إلى جانب هذا يبرز منافسه « جودفروى » في بعض هذه النواحي ، فجودفروى أقل اندفاعا للحروب من ريموند وأميل للسلم ، ثم إنه بادر حين مقدمه إلى القسطنطينية بقطع يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ، وريموند قبل كل شيء لا يعنيه أن يقف وحده في سبيل رأى يراه حتى ولو خالف الإجماع مادام يعتقد صحة الأمر ؛ لكن فاته أن هذه الميزات الأخلاقية الطيبة إنما هى التي تحول بينه وبين تولى شئون بيت المقدس ، لاسيما وأن جميع البارونات ورجال الدين يكرهون أن يتولى الأمور رجل له من شخصيته وقوته ما يحول بينهم وبين ما يطمعون في تحقيقه ، فالأمراء يريدون « ملكا » لا يقف حجر عثرة في سبيل مطاعمهم وأهدافهم الدنيوية ، وأدركوا في يسر أنهم لا بد وأن يرتطموا بشخصية ريموند القوية حينذاك لا يصدده شيء ما عن كبح جماحهم ، وأما رجال الدين فقد كانوا أميل لرجل يحسون فيه عطفًا على الدين ، ولا شك أنه هو جودفروى ، وسرى ذلك حالا في إعلان تبعيته لدامبرت بطرك

بيت المقدس الجديد . ولقد تم اختيار جو دفروى وإيثاره على منافسه ، وسيقت إليه مملكة بيت المقدس ولكن نزعته الدينية أبت عليه أن يلبس تاجا من الذهب « حيث توج السيد بالشوك » ، واكتفى كما رأينا بأن يلقب بحامى بيت المقدس .

ويذهب أحد المؤرخين المحدثين للقول بأن سبب رفض الأمراء لريموند إنما يرجع إلى أنهم كانوا يدركون فيه ميله للاتفاق مع بيزنطة ، وهو رأى قد يكون له ما يبرره ، لكن من اليسير استبعاد طرء هذه الفكرة على أذهانهم ، لاسيما وأن واحداً من أكبر رجالاتهم — وهو بوهيمند — لم يخجل في بداية الأمر من إظهار كل مظاهر الولاء والتبعية المذلة له ولرفاقه وخضوعه خضوعاً تاماً للإمبراطور رغم ما كان يرتجى منه من وقوفه موقف المناهض له المدافع عن الشخصية الصليبية ، فهل نرى هؤلاء البارونات أحرص منه على المصالح العامة ؟ وهل تراهم لا يبادرون إلى الانضواء تحت راية الإمبراطور إذا مالوح لهم بمقاطعة أو إمارة ؟ .. هنا قد تبدو مسألة أخرى وهى « كيف لم يتيسر لريموند أن يتولى مملكة بيت المقدس وهو أغنى الأمراء الإقطاعيين فى الحملة ؟ » وتفسير هذه المسألة عند مؤرخه « ألبرت ديكس » ، حيث يشير إلى أن رجاله خافوا — إذا سبق إليه تاج مملكة بيت المقدس — أن يمنعهم من الرجوع الى أوربة ، وأن يحملهم على الاستقرار فى فلسطين ، وهى وإن كانت عزيزة عندهم الا أن عاطفة الأسرة أجدر بأن تراعى بعد أن تهيأ لهم من النصر القشيب مامكنهم من تحقيق هدف الحملة الرئيسى ، ثم إن انصراف كونت فلاندر وكونت زمنديا عن المنافسة حول امتلاك تاج مملكة بيت المقدس وأوبتهما الى أوربة مع رجالهما وأتباعهما حرك الذكريات العميقة فى نفوس رجال كونت تولوز ، فسكرهوا أن يتحقق شيء ما يكون من ورائه إجبارهم على البقاء بفلسطين ، وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة إلى صرف التاج إلى منافسه جو دفروى ، وهكذا قد تواتى الأمانى الطيبة أبعد من لا يرتجىها .

توج جودفروى على بيت المقدس ، وحرّم كونت تولوز من هذه
الأمية ، فما مقدار الخطأ أو الصواب فى هذا الاختيار ؟

إن استعراض الأحوال السياسية والاجتماعية والدراسة الجغرافية لمملكة
بيت المقدس وما جاورها من الأقاليم المسيحية والإسلامية تبين لنا بوضوح
ما انطوى عليه هذا الاختيار من تجنب الصواب بالنسبة للصليبيين ، غير أن
مطامع كل من الفريقين صرفته عن رؤية ما يحوطه من خطر جسيم يهدد
بيت المقدس كما يهدد بقية الإمارات اللاتينية فى الشام وشمال العراق ، وهو
ما أثبتته الحوادث بعد بضع سنوات من ظهور حركة الجهاد على يد مودود
فايلغازى فبلك فآق سنقر فرنكى ، وانتهت هذه الحركة بقيام كتلة إسلامية
متحدة تمتد من شمال العراق وتشمل بلاد الشام ومصر زمن نور الدين ثم
صلاح الدين من بعده ، ولقد فانت المؤتمرين ظاهرة قوية هى أنهم يعيشون
ويتنفسون فى محيط إسلامى خالص ، وأن من معهم من الحجاج الأوربيين
إنما هم قلة إذا قيسوا بالجموع الإسلامية الكشيفة التى يحكمونها أو يحاورونها .

حقيقة أن هذه القوات الإسلامية المبعثرة لم تستطع الصمود فى وجه
الجماعات الصليبية ، لكن ليس معنى ذلك تجاهلها بالمرة ، فهى إنما تمر بدور
من الضعف لانتبث أن تنهض منه فتد اللطمة باللطمة وتحاول أن تدفع عن
أرضها المغير الأوربى وتآلف قواتها المختلفة فى شتى البقاع ، وإذن فعنى هذا
أنه كان ينبغى أن تكون مملكة بيت المقدس الجديدة مملكة «حرية» خالصة ،
والظاهر أن هذا الأمر لم يفت جودفروى ذاته حين سمى نفسه «حامى» قبر
المسيح ، وهل تكون «حماية» الشىء إلا حين يخشى عليه من مغير أو مهاجم ؟
ولعل هذا التفسير قد طرأ على بال جودفروى نفسه من ثمانية قرون ونصف ،
ومهما يكن الأمر فقد آل حكم مملكة بيت المقدس إلى جودفروى رغم
العوامل الجمة المزكية لمنافسه الذى مالبث أن رحل إلى أوربة .

لم يكن معنى خلو الجو من ريموند الصنجيلي الراحة التامة لجودفروى ،

بل الواقع أن الحزب الدينى رأى الفرصة مواتية للتدخل فى الشئون العامة ، وذلك لأنه لم يعد على مسرح السياسة الصليبية بيت المقدس سوى رجل حسن الطوية من اليسير اتخاذه لعبة فى يد القوى ، سواء أكان مصدر القوة دينيسا أم دنيويا ، مع أن ظواهر الأمور وبواطنها تتفق على أن جو دفروى كان يؤثر الناحية الدينية . ولو لم يكن جو دفروى أميراً لكان من رجال السكهنوت ، ولقد تم انتخاب بطرك لمدينة بيت المقدس هو أرنول الرهاوى وإن شاب انتخابه أمور تحط من قدر هذا الانتخاب وتسيء إليه لاسيما كرجل دينى فى بلدة تتجه إليها أنظار المسيحيين قاطبة ، كما أنه لا يتفق مع رغبة الكنيسة الكاثوليكية فى السيطرة على كنائس المذاهب الأخرى .

بهذا تهيأ لمدينة بيت المقدس أن تشغل فى العالم المسيحى الشرق مكانة الرياسة الدينية والسياسية فى نظر الصليبيين ، وذلك على اعتبار أن رئيسها حامى القبر المقدس والأماكن المقدسة التى يحج إليها النصارى من جميع بقاع العالم وعلى اختلاف مذاهبهم الدينية ، ثم إن بيت المقدس ذاتها كانت بهرة اجتمعت فيها شتى الأجناس حتى ليزكر جاك قترى من مؤرخى القرن الثالث عشر فى « تاريخه الشرقى » إنها كانت تضم بين أسوارها جماعات من البولان والجنوية والبيازنة والبنادقة والسريان والروم والملكانيين واللاتين والمسلمين ، وجماعات من اليعاقبة والنساطرة والمارون والأرمن وأهل جورجيا المستعربين وأشتاتا أخرى غير هذه كلها .

* * *

والمدقق للحملة الصليبية الأولى يتبين فى غير عسر أنها كانت حملة إقطاعية بجانب ما يمكن أن توصف به من الصفات الأخرى ، فكل من بوهمند وكونت تولوز يعول جماعة من الحجاج النصارى وينفق عليهم من جيبه الخاص ، وأبرز دليل على ذلك أن بوهمند هدد بقية الأمراء والكونتات بالانسحاب من حصار أنطاكية — وهم أمامها — والأقول إلى أوربة بمن معه إن لم

يعاهدوه على تسليمها إليه ، كما أن خوف أتباع الكونت تولوز من الإقامة في فلسطين تجلى في كراهيتهم أن يساق إليه تاج المملكة الجديدة ، وذلك لأنهم يعرفون أنهم مرتبطون به أشد الارتباط ، فإن أقام أقاموا وإن رحل كانوا في ركابه ؛ كما أن انفصال بلدوين دى بورج واستشاره بأدارة الرها جعل من معه من الرجال ينحرفون عن الغرض الذى قدموا من أجله من أوربة ويستقرون كفاتحين في شمالى العراق وتنقطع كل صلة لهم برفقاتهم في الحرب وبيت المقدس ، وكل هذه دلائل جلية على ما تنطوى عليه الحملة من روح إقطاعية ، والمتتبع لتاريخ كل من هؤلاء الأمراء في أوربة قبل قدومهم للشرق يرى هذه الروح واضحة في محاربة بعضهم البعض ، كما أن في خطبة البابا إربان الثانى إشارة صريحة لتلك المسألة ، أضف إلى هذا أن المؤرخ الصليبي « فوشيه دى شارتر » ^(١) لم يفته النص عليها في تفسيره للحملة من أن الضرورة ألحت على أولى الأمر في إنهاض هذه الحملة حتى تتجه السيوف ضد الأجانب الأعراب ، وهو يقول مانصه *necesse erat ut, malis tantimodis dimissis monitione a papa Urbano sic exorsa, contra paganos saltem certamina inter se dudum consueta distenderent.*

* * *

على أنه وجدت نظم حرية جديدة لم تكن مألوفة في الشرق الأدنى من قبل ونعني بها نظم الفرسان الاستتارية والداوية والتوتون . وأقدم هذه الجماعات هي الاستتارية ، وهم فئة من الفرسان الذين جمعوا بين الدين والدنيا ، وترجع نشأتهم إلى منتصف القرن الحادى عشر للهيلاد (سنة ١٠٤٨ م) ، وكان للتجارة دخل كبير في ظهورهم ، ذلك أن أهل أمانى الوافدين على الشرق كانت تربطهم ببلاد الشام منذ زمن بعيد روابط تجارية عظيمة ، وهم الوسيط التجارى بين منتجات الشرق وأوربة ، ولما كانوا كثيرى التردد على بلاد الشام فقد استطاعوا أن يلبسوا عن قرب مدى تمتع

(١) Foucher, t. III, p. 326-327.

كل طائفة من النصارى بالحرية في ممارسة شعائرها الدينية ، وخيل إليهم أن إخوانهم الكاثوليك دون بقية المسيحيين عامة مكانة ، وهالهم ألا تكون لهم أية مؤسسة دينية في تلك البقاع ، على حين أن الأموال تتدفق بكثرة بين أيدي الأمالفيين ، لذلك اتجهوا إلى الخليفة الفاطمي المستنصر معد على وطلبوا منه أن يأذن لهم بإقامة دير لمن على مذهبهم ، فلم يعارض المستنصر ، فبادروا في التو إلى إنشاءه في إحدى ضواحي بيت المقدس وعرف بدير Ste. Marie-Latine ، وكان أول من سكنه جماعة من البندكتان الإيطاليين ، على أنهم مالبشوا أن أقاموا إلى جواره بيمارستانا لإيواء الحجاج المسيحيين ومعالجة مرضاهم ، وتطوع للقيام بخدمتهم نفر أشربت نفوسهم حب الدين وجبلت على الرحمة فلم تسكن تفرق وقت السلم بين دين ودين ، أو مذهب ومذهب ؛ على أن هذه الجماعة ذاتها تطورت فيما بعد إلى ما عرف في تاريخ العصر الوسيط بفرقة « الاسبتارية » Hospitaliers . وذلك أنهم تسلحوا لحماية الحجاج وهم في طريقهم إلى بيت المقدس بغية أداء الحج ؛ لكن مالبث القوم أن انفصلوا سنة ١١١٣ م عن الإخوان البندكتان في عهد أول رئيس لهم « جيرار توم » المعروف بالرجل التقى . ولم يسكن لهذه الجماعة أن تخطو هذه الخطوة الجريئة من التسليح والحماية لولم تسكن مستعدة لها من قبل ، ولولم تكن واجدة من عطف ولادة الأمور والآهالي عليها ما ييسر ذلك العمل ، فقد تملك الإعجاب بها نفس جود فروى لما تضطلع به من أعمال تنطوى على الفروسية بقدر انطوائها على الرحمة والمودة ، فأقطعها إحدى الضواحي وجعلها وقفا عليها . ونهج الصليبيون نهجه فأعقدت عليهم الأموال ، وانهالت عليهم العطايا والهبات إكبارا لهم وإعجابا بهم رغم أن مؤسستهم تقوم على أركان ثلاثة هي : الطاعة والفقر والعفة .

لكن على الرغم مما ينتظر من مثل هذه الجماعة من المساواة المطلقة إلا أنها كانت في داخلها تتألف من فريقين ، هما رجال الدين والمدنيون ، كما أن

الفئة الثانية كانت تنقسم طبقتين هما الطبقة العليا والعامة ، ولم يجدوا ثم معارضة لهذا التقسيم العجيب ، بل إن البابا إنوسنت الثاني نفسه أقر ذلك الوضع سنة ١١٣٠ م ، كما أقر نوع الملابس التي يستعملونها وكانت سوداء يتدلى منها الصليب ، وزاد على ذلك بأن جعل راية فرسانهم تحمل صليبا أبيض ، وقد حفلت كتب التاريخ العربي بالإشارة إليهم لقتالهم المسلمين ، ويشير ابن القلانسي^(١) إلى حملة كان قوامها جماعات الفرسان المختلفة ، فيشير إلى أن الأفرنج الملاعين أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال ، وكانت عدتهم سبعائة فارس من أبطال الاستبارية والسرجندي والداوية ، وقد أخذوا في معاونة الصليبيين منذ استقرارهم في الشرق الأدنى في مختلف مراحل تاريخهم لاسيما في القرن الأول من مجيئهم لبلاد الشام ، وقل أن نجد حربا قصد الدفاع أو الهجوم دون أن يكون لهم ضلع فيها ، واتسعت رقعة نشاطهم في عهد « الرئيس الأعظم » ريموند دي بوري ، فامتدت إلى إسبانيا ذاتها ورحل إليها بنفسه ، حيث كان الفونس الأول ملك أرغونة ونفارة قد أوصى بجزء ضخم من أملاكه لجماعات الفرسان المختلفة ، ومن بينها الاستبارية ، ثم عاد ريموند حوالي سنة ١١٤٠ م إلى بيت المقدس وساهم في محاربة المسلمين في عسقلان ، والظاهر أن نشاط ريموند جاوز حدود بلاد الشام كما رأينا ، بما حمل بلدوين الثالث والبابا أنسطاس الرابع على تثبيت ما بيد فرسان الاستبارية من الأملاك وإضافة أجزاء غيرها إليها كما يتضح ذلك من وثيقة مؤرخة ٢١ أكتوبر ١١٥٤ م ؛ كذلك ساهمت الاستبارية في الحرب التي نشبت بإسبانيا بين العرب ونصارى الأندلس سنة ١١٤٦ م .

أما الفئة الأخرى المشابهة لها فهي الفرسان الداوية التي ظهرت على أساس من الحماسة الدينية والفروسية ، إذ اتفق سبعة من الرجال سنة ١١١٨ م

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

على تكوين عصابة من بينهم للدفاع عن بلاد فلسطين وحماية حجاج
الآماكن المقدسة المسيحية ، وعرضوا تلك الفكرة على Gormond بطرك
مدينة بيت المقدس إذ ذاك ، فلا بدع إذا وجدت منه ترحيبا عظيما لما تنطوى
عليه من معنى ديني عميق ، فلما وجد هؤلاء السبعة منه التأييد التام لفكرتهم
أقسموا أمامه بالمحافظة على الشعائر الثلاثة المعروفة « الفقر والطاعة والعفة » ،
وزادوا عليها بأن أقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريده ضد المسلمين ،
وبذلك اصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الأولى — وهى فى دور التكوين —
بصبغة القتال والحرب ، ولعل ظروف الإمارات الصليبية حينذاك بالشام
وفلسطين كانت أكبر عامل فى حمل هؤلاء الفرسان على أن يقسموا هذه اليمين
العجيبة ، وأقطعهم بلدوين الثانى ملك بيت المقدس خانا يقيمون فيه قرب
مسجد عمرو أو محراب داود ، ومن ثم سمو بالداوية فى المصطلح التاريخى
العربى ، وظل هؤلاء الداوية بضع سنوات قلائل مثالا للتقشف والزهد ، فلم
يكن لهم من الملابس إلا ما يجود به عليهم غيرهم ، وكانوا أشد الناس فقرا
رغم ما كان يمكنهم جمعه منه إن شاءت لهم أهواؤهم ، لكنهم آثروا المتربة ،
عملا بقول المسيح « . إن مرور رجل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى
إلى ملكوت الله ! »

ولقد بذل مؤسس الداوية Hugues de Payens غاية الجهد فى تثبيت
دعائم نظامه هذا وبث مبادئه ، فركب البحر سنة ١١٢٧م إلى فرنسا وانجلترا
وإسبانيا يجمع الصدقات لمساعدة فقراء الأراضى المقدسة ، فأنهالت عليه
التبرعات من جميع النواحي ومن مختلف طبقات المجتمع ، ومال البعض للاقتداء
به واقتفاء سبيله فرحلوا معه إلى الشرق وانضموا إلى صفوفه ، وهدفهم من
ذلك محاربة المسلمين ، وأصبح لهذه الجماعة « الحريسة » نظمها الخاصة بها ،
وازداد عدد المنخرطين تحت لوائها زيادة استلزمت تعدد مصادر الثروة التى
أخذت تتدفق عليهم من كل حذب وصوب ، فلم يعد هؤلاء الفرسان « فقراء » ،

بل أصبحوا يؤلفون طبقة «ثرية» واثاها الغنى من حيث لا تحتسب، ولم يمض بضع سنوات على رجوع «هيج» من رحلته في أوروبا حتى مات عام ١١٣٩ م مخلفا وراءه أملا كاشاسعة، كما تدخلوا في المسائل السياسية في بلاد الشام، وامتد نفوذهم السياسى إلى إسبانيا ذاتها.

على أن هذا التوسع العظيم فى النفوذ الاجتماعى والسياسى أدى إلى اعتراف البابا «أيوجين الثالث» سنة ١١٤٦ م بهم كهيئة خاصة لها نظمها وكيانها، ويرتجى نفعها، ومظهر هذا الاعتراف البابوى فى أنه أمر بأن يحمل أولئك الفرسان الصليب الأحمر على ملابسهم البيضاء، فحمة الصليب رمز للتضحية والاستشهاد والذب عن الملة ونصرتها، أما البياض فرمز للعفة والطهارة كفرسان دينيين قد نبذوا رفاهية الحياة وبلهيتها، كما اتخذوا رايتهم من اللونين: الأبيض والأسود، أما البياض هنا فرمز لإخلاصهم للمسيح وخدامه والعطف عليهم، وكثيراً ما نجد فى الإنجيل عبارة «الثياب البيضاء» رمزاً للشهادة، وأما السواد فدلالة على قسوتهم على أعداء دينهم ومحاربيهم، ونقشوا على العلم الرئيسى هذه العبارة *Non nobis, Domine, non nobis sed nomini tuo da glorium.* وقد ساهم فرسان المعبد هؤلاء فى محاربة الصليبيين للمسلمين، فوقفوا إلى جانب بلدوين الثالث فى نضاله ضد نور الدين زنكى سنة ١١٥٠ م، كما أنهم قادوا حملة سنة ٥٥٢ هـ (= ١١٥٧ م) بين طبرية وبانياس. وكان الخوف منهم شديداً وإن كتب النصر للمسلمين حيث أسروا كبير فرسان المعبد «برتراند دى بلانكفورت»، ولعل وصف ابن القلانسى الذى شاهد الحادث أصدق ما تقدمه فى هذا الموضوع حيث يقول «وصلت الأسرى ورتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم، ومعهم راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلودهم وسهمهم بشعرها عدة، والمقدمون منهم وولادة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية، والرجال من السرجندية والدركيولية كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر

في جبل ، ولم يفت الشعر العربي تخليد هذه الواقعة ، فأورد ابن القلانسي
— على قلة تمثله بالشعر — قول القائل :

مثل يوم الفرنج حين علمتهم	ذلة الأسر والبلا والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم ، وهيبة ذكر	في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي	عند شن الإغارة الشعواء

على أن الداوية مالبشوا هم الآخرون أن انغمسوا في الترف المادي ،
ومالوا إلى التمتع برفاهية الحياة .

* * *

هذه لمحة خاطفة عما أنتجته الحرب الصليبية الأولى في الناحية الحربية ،
وهي قليلة بالنسبة لآثارها في ميادين الحياة الأخرى . غير أن أكبر فضل لها
هو هزها الشرق الإسلامي هزة عنيفة وإيقاظه من سباته ونبذه التفرقة
المذهبية ، مما أدى فيما بعد إلى لم الشمل وتوحيد القوى المختلفة .

تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس^(١)

الدعوة للحرب الصليبية . الحملة الشعبية . جماعات الصليبيين ووصول

جود فروى إلى القسطنطينية . حملة بوهيمند ونورمان

إيطاليا الصليبية . بلوغهم نهر الوردار .

١ - تحقق اليوم ما اعتاد المسيح أن يقوله دائماً لاتباعه مصداقاً لما جاء في الإنجيل « إن أراد أحد أن يأتى ورأى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى »^(٢) بما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة ، فكان كل ذى قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية فى اتباع السيد والسير وراءه مخلصاً فى حملة الصليب لا يتوانى عن المبادرة إلى الضريح المقدس .

والواقع أن إربان الثانى - الرئيس الرسولى لسكرسى رومية - سرعان ما اكتسب إلى جانبه البلاد الواقعة « خلف الجبل »^(٣) بجميع مطاراتها وأساقفتها وشمامستها وقسيسيها ، وشرع يخطب القوم ويعظمهم عظات غالية . قائلاً إنه لا يجوز لأى ساع فى خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعاً طريق السيد ، وإذا أعوزه المال فالرحمة الإلهية تعينه ، وأضاف السيد الرسولى إلى ذلك قوله « يجب عليكم أن تتعذبوا كثيراً من أجل اسم المسيح فتتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظماً وماشا كلها من الشرور ، كما قال السيد لتلاميذه « سأريكم كم ينبغي أن تتألموا من أجل اسمى »^(٤) ، وقوله « إني أنا أعطيكم فاهو حكمة لا يقدر

(١) جرت عادة القوم فى العصور الوسطى على تسمية الحجاج باسم الهيكل الذى يحجون

إليه .

(٢) متى ، ١٦ : ٢٤ ؛ مرقس ، ٨ : ٣٤ ؛ لوقا ، ٩ : ٢٣ .

(٣) المقصود بهذه العبارة « فرنسا » ، وهى تشير كذلك إلى أن كاتب الحوليات من

أهل إيطاليا .

(٤) أعمال الرسل ، ٩ : ١٦

جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها (١) ، وكما قال أيضاً : إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً (٢) .

لم تلبث هذه الخطبة أن ذاعت شيئاً فشيئاً في جميع أقطار غالة وولاياتها وما كاد الفرنجة يسمعون أقواله هذه حتى بادروا في التواللحظة إلى خياطة الصلبان على أكتافهم البني ، قائلين إنهم — على بكرة أبيهم — يريدون متابعة خطى المسيح ، مؤملين أن يمكثهم ذلك من استرداد القوة من التتار .

٢ — سرعان ماتركت جموع الغاليلين مساكنهم وانقسموا ثلاثة أقسام ، فدخل فريق من الفرنجة أرض المجر وفيه بطرس الناسك والدوق جودفروى وأخوه بلدوين ، ثم بلدوين كونت دى مونس ، ولقد سلك هؤلاء الفرسان الشوس وكثيرون غيرهم — من أجلهم — الطريق الذى سلكه من قبل شرلمان ملك فرنسا العظيم إلى القسطنطينية .

أما بطرس المشار إليه فكان أول الذاهبين إلى القسطنطينية ، فبلغها [يوم ٣٠ يوليو سنة ١٠٩٦ م] وبصحبه الفريق الأعظم من الألمان ، وهناك انضم إليه اللبارديون وكثيرون سواهم ، فأمر الإمبراطور بتزويدهم بالميرة بقدر ماتسمح به طاقة البلد ، وقال لهم « لاتعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنتكم من محاربة الترك » ، فسار المسيحيون أسوأ سيرة ، إذ خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق ، فتلظى الإمبراطور غضباً عليهم ، وأمر — وهو فى سورة حنقه — بإبعادهم عن البسفور .

لم يتورع الصليبيون — بعد كل ما ارتكبوه — عن اقرار شتى ضروب

(١) الرسالة إلى تيموثاوس ، ١ : ٨ ؛ لوقا ، ٢١ : ١٥ .

(٢) متى ، ٥ : ١٢ ؛ الرسالة إلى أهل كورنثوس ، ٣ : ٢٤ .

المساوىء كإضرار النار فى البيوت والسكنائس وتخريبهم إياها ، وانتهى بهم السير أخيراً إلى نيقوميديا حيث انفصل اللبارديون والألمان عن الفرنجة ، واختار اللبارديون لقيادتهم سيداً يدعى «رينالد» ، وحذا الألمان حذوهم ، ودخلوا إقليم أسيا الصغرى ، وساروا مدة أربعة أيام وراء نيقية ووجدوا قلعة اسمها Exerogorgo قد خلت من كل مدافع عنها فاستولوا عليها ، وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة والتمر واللحوم وشتى أنواع المأكولات .

ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها ، وكان أمام بابها بئر وعند سفحها نبع ماء جار ، فنصب «رينالد» بجواره كميناً لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم عيد القديس ميخائيل [٢٩ سبتمبر ١٩٠٦ م] حيث وجدوا رينالد ورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم ، ولذا الباقون هربوا إلى القلعة معتمسين بها ، لكن سرعان ما حاصروهم الترك فيها ومنعوا عنها الماء فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دماءها ، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكششف وعصروها فى أفواههم ، وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان ، وحفر بعضهم الأرض الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم وهكذا وصلت شدة ظمئهم إلى تلك الحال ، ، وأخذ الأساقفة والقساوسة يقوون عزائم رجالنا ويحضونهم على الصبر .

استمرت هذه المحنة ثمانية أيام سوياً ، ثم عقد زعيم الألمان اتفاقاً مع الترك عاهدتهم فيه على أن يسلمهم رفاقه ، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب إليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه ، ولقى المنية كل من أبى إنكار السيد ، أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الأنعام السائمة ، واتخذ الترك بعضهم هدفاً يفوقون إليهم سهامهم ، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر بيع الحيوان ، وسأقت جماعة من العدو الغنيمة إلى مساكنها ،

وأخذها غيرهم إلى خراسان^(١) وأنطاكية وحلب ، وذهب كل بها إلى حيث يقيم ، وكان هذا هو الاستشهاد الكريم الذى لقيه الرجال الأوائل فى سبيل تمجيد اسم السيد يسوع .

ولما علم الترك بعد ذلك بوجود بطرس الناسك وجوتيه سائز أقوار فى « هرسك » الواقعة وراء « إزنيق » توجهوا نحوهما ، يعلوهم البشر ، مؤملين القضاء عليهما كما قضوا على رفاقهما من قبل ، وفى أثناء مسيرهم التقوا بجوتيه وهو فى جماعته ، وسرعان ما انقضوا عليهم وقتلوهم ؛ أما بطرس الناسك فقد عاد من القسطنطينية عاجزاً عن تنظيم هؤلاء الجند اليأسين الذين أضحوا عازفين عنه منصرفين عن خطبه ، فكرر الترك عليهم وذبحوا منهم جمعاً غفيراً إذ صادفوا بعضهم مستغرقاً فى نومه ، والبعض الآخر عارياً من كل شيء فقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وكان هناك قسيس يعظ فلقى الشهادة على أيديهم هو الآخر على المذبح ، أما الذين استطاعوا النجاة فقد هربوا إلى « هرسك » ، وألقى بعضهم نفسه فى البحر ، ولأذ غيرهم إلى الأحراج والجبال تخفياً بها ، فانطلق الترك فى آثارهم وكدسوا الأخشاب لحرقهم هم والمدينة معا .

غير أن النصارى الذين احتلوا المدينة أشعلوا النار فى أكداس الخشب وهب اللهب ناحية الترك ، فأهلك بعضهم حرقاً ، بينما حفظ الرب رجالنا من أن تمتد إليهم تلك النيران ، وأخيراً تمكن الترك من أخذهم أحياء وتقاسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الذين سبقوهم من قبل ، وشتوهم فى كل النواحي ، فساقوا البعض إلى خراسان ومضوا بالبعض إلى فارس . وقد جرت كل هذه الحوادث فى شهر أكتوبر .

لم يكتم الإمبراطور فرحه العظيم حين ذاع خبر تشتيت الترك لرجالنا ، وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه .

(١) يلاحظ هنا أن الحوليات تستعمل كلمة « خراسان » استعمالاً مبهماً ، ويذكر الأستاذ برييه أن جميع المؤرخين اللاتين والأرمن يطلقون هذا اللفظ على جميع البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة بما فيها العراق ، ويذهب « ألبرت ديه » إلى أن « بغداد » هى عاصمة خراسان .

٣ — أما القسم الثاني فقد ولج أرض الصرب والكروات مع ريموند الصنجيلي و [إدमार دى موتيل] أسقف پوى .

أما القسم الثالث فقد سار فى طريق رومة القديم ، وفيه بوهيمند [بن روبرت جسكراد] وريتشارد السالرنى ، وروبرت كونت فلاندر ، وروبرت هيوز النرمنى [بن وليم الفاتح] ، وهيج الكبير [أخى ملك فرنسا فيليب الأول] وإيفرادى بواسيه ، وأكار دى موتمريل ، وإيزور دى موزون ، وكثيرون غيرهم . فذهب البعض بعدئذ إلى ميناء برنديزى ، والبعض الآخر إلى بارى ، وسواهم إلى أترنتو .

أبحر هيج الكبير ووليم بن المركيز [أخو تنكريد] إلى بارى ، وأرسوا فى دورازو التى ما كاد واليها [البيزنطى] يعلم بخبر رسو هذين الرجلين العظيمين حتى دبر لها فيما بينه وبين نفسه خطة دنيئة ، إذ ألقى القبض عليهما واهتم بترحيلهما إلى القسطنطينية ليثلا أمام الإمبراطور وليقسما له يمين الولاء .

أخيرا وصل إلى القسطنطينية دوق جودفروى مقدم جميع السادة على رأس جيش لجب . وكان وصوله إليها قبل ميلاد سيدنا ييومين ، فبقى معسكرا بظاهر المدينة حتى أذن له الإمبراطور الظالم بالإقامة فى إحدى ضواحي المدينة ، ولما كان الدوق باقيا حيث أمر فقد اعتاد أن يرسل رجاله يوميا فى هدوء ليجلبوا التبن وكل ما يلزم للجياذ ، وكان رجاله يظنون أن فى استطاعتهم الذهاب آمنين أنى شاموا ، إلا أن الإمبراطور ألكسيس الغادر أمر الدركيولية والمرتزة بمهاجمتهم وقتلهم أنى ثقفوهم ، فلما تناهى ذلك الخبر إلى بلدوين — أخى الدوق — كن [لجند الإمبراطور] فى الطريق وباغتهم وهم قاصدون القضاء على رجاله ، واستبسل فى الهجوم عليهم وأيده الرب بظهوره عليهم ، فأسر منهم ستين رجلا غير من قتلوا وجاء بالباقيين إلى أخيه الدوق .

استبد الغضب بالإمبراطور حين استطار إليه نبأ هذه الحوادث ، فلما رآه الدوق ساخطا متخشن الصدر غادر تلك الناحية برجاله وعسكره وادخل المدينة ، فلما أرخى الليل سدوله أصدر الإمبراطور التعيس أمره إلى قواته بمهاجمة الدوق والجماعة النصرانية ، فتبعهم الدوق على رأس جنود المسيح وانتصر عليهم وقتل منهم سبعة وطارد الباقين حتى باب المدينة ، ومن ثم عاد إلى معسكره ولزمه خمسة أيام مستجماً [١٣ - ١٨ يناير] ، ثم عقد مودة مع الإمبراطور الذي حثه على مغادرة مضيق سنت جورج ، وأذن له أن يتزود بالذخيرة جهد ما تسمح موارد القسطنطينية ، كما تسلم منه صدقة يستعين بها على إعاشة الفقراء .

٤ — أما بوهيمند المنصور الذي كان موجوداً إذ ذاك في حصار جسر سكافارد بألماني فقد علم بمقدم جماعة مسيحية من الفرنجة لايحصيها العدد ، فصمم على المضى إلى ضريح السيد ، وشن الغارة على الشعب الوثني ، ووفق بوهيمند في الاستفسار عن نوع السلاح الذي تستعمله هذه الجماعة في القتال وعن الشعار المسيحي الذي تحمله في الطريق وعن هتاف التجمع الذي تهتف به في المعارك ، ف قيل له : « إنهم يستعملون سلاحاً ملائماً للحرب ، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيا بينهما ، وأما هتافهم الذي يرددونه جميعاً في نفس واحد فهو : هكذا أراد الله ! » . وفي الحال امتلأ بوهيمند بالروح القدس وأمر بتجزئة العبادة الثمينة التي يرتديها إلى أجزاء صغيرة لعملها صليباناً . حينئذ انطلق الفريق الأعظم من الفرسان المحاصرين للمدينة في صولة شديدة ، حتى إن الكونت « روبرت » ، كاد أن يبق وحيداً ، ولما عاد إلى صقلية تشكى واغتم لضياع كل جيشه .

ولما عاد السيد بوهيمند إلى أملاكه^(١) استعد بكل ما في طوقه للتوجه إلى

(١) كان بوهيمند أميراً على تاونت وأوترانتو من أعمال إيطاليا ، راجع : Chalandon : Hist. de la domination normand en Italie, t. 1, p. 288.

الضريح المقدس ، ثم ركب البحر بجيشه مصطحبا معه تنكريد بن المركيز ،
والأمير ريتشارد وأخاه رينول ، وروبرت أنز ، وهرمان كافي ، وروبرت
سورديفال ، وروبرت بن توستاني ، وهنفرى بن رودلف ، وريتشارد بن
الكونت رينولف ، وكونت رسيڤولو وإخوته ، وبويلدى شارتر ، وأوبريه
دى جانيانو ، والهنفرى دى مونت سكيابوزو . وعبر الجميع البحر على نفقة
بوهيمند وأرسوا فى بلغاريا حيث وجدوا وفرة بالغة من الخنطة والخمر
وجميع الأطعمة النافعة .

ثم نزلوا عقب ذلك فى وادى أندرونو پوليس ، وأقاموا فى انتظار عبور
بقية الجيش ، وحينذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة جيشه وتشجيع رجاله ،
وحضهم على الطيبة والتواضع والسكف عن تخريب تلك البلاد التابعة للنصارى ،
وأمرهم ألا يأخذوا أزيد مما يحتاجون إليه فى معاشهم .

آن وقت الرحيل ، فخرجنا ^(١) فى العدد الجسم نسير من مقاطعة إلى
مقاطعة ، ومن مدينة إلى مدينة ، ومن قلعة إلى قلعة ، وأفضى بنا السير
إلى Castoria فاحتفينا فيها احتفاء رائعا بميلاد السيد المسيح ، ولبثنا بها بضعة
أيام باحثين فيها عما نتزوّد به ، غير أن أهلها أبوا علينا ذلك لشدة تخوفهم منا ،
ولم ينظروا إلينا نظرهم إلى حجاج بل خيل إليهم أننا طامعون فى تخريب
أرضهم والفتك بهم ، فاستولينا على الثيران والخيل والحمير وعلى كل ما وجدناه ،
فلما غادرتا « كستوريا » دخلنا إقليم Pelagonie حيث توجد قرية من قرى
الملاحدة هاجمتها من جميع نواحيها ، وسرعان ما سقطت فى أيدينا ثم أضرمنا
بها النار وأحرقناها بسكانها .

بلغنا بعدئذ نهر « الوردار » ، وإذ ذاك تابع السيد بوهيمند زحفه مع
الفريق الأعظم من جنده لانفصال الكونت روسينولو واستقراره هناك

(١) يلاحظ هنا استعمال ضمير المتكلم .

مع إخوته ، وبقي الجيش الإمبراطوري وهاجم السكونت كما هاجم إخوته
وجميع من كانوا معهم .

ارتد تنكريد على أعقابه حين سمع بهذا الخبر وعبر النهر سباحة وانضم إلى
رفاقه ، وتبعه ألفان من الرجال اقتدوا به في عبور النهر ، فوجدوا الدركيولية
والمرتزة الذين كانوا يقاتلون رجالنا ، فباغتهم واستبسلوا في الهجوم عليهم
حتى أعيوهم ، ثم أسروا جماعة منهم وقادوهم مشدودى الوثاق إلى حضرة السيد
بوهيمند الذى قال لهم ^(١) « أيها الأشقياء ، ما الذى حملكم على قتل جند المسيح
الذين هم جندى ، مع أنى لم أشهر الحسام أبداً ضد إمبراطوركم ؟ ، فأجابوه
« ليس فى استطاعتنا أن نقرر غير الواقع ، لقد استؤجرنا لحساب
الإمبراطور ، وكان علينا أن نتجسز كل ما يأمرنا به » ، فأذن لهم بوهيمند
بالانصراف دون أن يقتص منهم . وقد جرت هذه الواقعة فى اليوم الرابع
من أول أسبوع صوم الأربعين [١٨ فبراير سنة ١٠٩٧ م] . فليبارك الرب
الجميع . آمين !

من وقعة الوردار إلى الاستيلاء على نيقية

سير نرمان إيطاليا ورحيل بوهيمند إلى القسطنطينية . الزعماء الصليبيون
في القسطنطينية وقطعهم اليمين للإمبراطور — وصول
الصليبيين إلى نيقية • حصار نيقية والاستيلاء عليها .

٥ — بعث الإمبراطور التقيس في الوقت ذاته إلى سفرائنا أحد رجاله ،
وكان يؤثره بحبه الشديد ومن يسمونهم مواليه ليرشدنا إلى السبل الآمنة في جميع
بلادهم حتى نبلغ القسطنطينية ، وفي أثناء مرورنا أمام بلدانه كان يأمر سكانها
بأن يحملوا إلينا الأقوات كما فعل أولئك الذين تكلمنا عنهم من قبل ، واستبد
بهم الخوف من رجال السيد بوهيمند الشجعان حتى إنهم لم يسمحوا لأحد منا
بمجاورة أسوار مدنتهم ، وحدث في ذات مرة أن أراد رجالنا مهاجمة أحد
الأمكنة الحصينة ، والاستيلاء عليها بحجة احتوائه على الذخائر الوفيرة ،
فرفض بوهيمند العاقل طلبهم وأنكر عليهم أن يجاوزوا مكانهم برأ بعده
المقطوع للإمبراطور ، وغضب أشد الغضب على تنكريد وعلى بقية الآخرين
وجرت هذه الحادثة مساء ، وفي صباح اليوم التالي خرج سكان البلد يطوفون
به حاملين الصليب في أيديهم ، ومثلوا في حضرة بوهيمند الذي تلقاهم
بالترحاب والسرور ، ثم صرفهم من لدنه فرحين مغتبطين .

بلغنا بعد ذلك مدينة تدعى Serra نصبنا فيها خيمتنا ووجدنا بها كمية
وفيرة من الذخيرة الملائمة لهذا الفصل ، وهناك عقد بوهيمند اتفاقا مع
اثنين [من كبار] المرتزقة ، دفعه حبه لها واحترامه للحفاظة على سلامة
الأرض لإصدار أمره إلى رجالنا برد جميع الحيوانات التي أخذوها منها ،
وأدركنا بعدئذ بلدة « Rusa » فخرج أهلها الإغريق بأجمعهم للترحيب بنا ،

ومضوا فرحين لتلقى السيد بوهيمند ، حاملين إلينا الكثير من المؤونة ،
ونصبنا بها خيامنا يوم الأربعاء [المقدس] السابق لعشاء السيد السرى ،
[وذلك يوم أول أبريل] ، وهناك ترك بوهيمند كل جيشه غير مستصحب
معه سوى شرذمة ضئيلة من الفرسان ، وخلف تانكريد على رأس جند
المسيح ، ولما رأى تانكريد أن الحجاج يشترون الأطعمة تعهد من ناحيته
بترك الطريق الأعظم ، وسوق الشعب إلى مكان يستطيع أن يجد فيه الطعام
بوفرة ، فتوغل في واد مجهز بكل ما هو لازم للعيش ، واحتفلنا فيه احتفالا
عظيما بعيد قيامة السيد [وذلك يوم ١٥ إبريل ١٠٩٧ م] .

٦ - حين علم الإمبراطور بأن بوهيمند وافد عليه أمر بمبالغة الاحتفاء
باستقباله ، وإنزاله منزلا كريما خارج المدينة ، حتى إذا استقر حيث شاء بعث
[الإمبراطور] إليه يسأله القدوم عليه لمفاوضته على انفراد ، وقد اشترك
في هذه المقابلة أيضا كل من جودفروى وأخيه [بلدوين] ، وحينذاك كان
كونت صنجيل قد اقترب من المدينة ، فقلق الإمبراطور أشد القلق وتميز
غضبا ، وأخذ يدبر مكيدة تمكنه من تعجيز جند المسيح ، ففكر : أيعمد إلى
المكيدة والخذاع ؟ غير أن العناية الإلهية صرفت عنهم كل أذى فلم تمكنه
هو أو رجاله من إيقاع أدنى ضرر بهم ؛ وفي هذا الوقت بالذات [الذى كان
فيه بوهيمند وجودفروى بحضرة الإمبراطور] التأم فى مكان آخر شمل جميع
الرجال الكرام المولد ، الوافدين على القسطنطينية ، وجزعوا أن يحال بينهم
وذين وطنهم ، ورأوا أن لابد من أن يقسم زعماء جيشنا والقوامص العظماء
قاطبة يمين الولاء للإمبراطور ، وانعقد إجماعهم على ذلك بعد أن عقدوا
مجلسا قلبوا فيه هذه المسألة على شتى وجوها ، واستعرضوا الخطط الحكيمة ،
غير أن البعض رفضوا هذا الطلب قائلين لهم ، إن هذا أمر مزر بنا ، ولا يحق
لنا أن نقسم له اليمين مهما كانت الحال ، فلربما يخدعنا زعماءنا هؤلاء ، فن ذا
الذى يقدر هذا الأمر ؟ وستدفعهم الضرورة للقول حينذاك بأن الإمبراطور

أرادهم - إن طوعا أو كرها - على الخضوع أمام مشيئته .

وقد وعد الإمبراطور بوهمند الشجاع - الذى كان يخافه كثيرا لأنه فر أكثر من مرة بجيشه من أمامه - أن يقطعه أرضا وراء أنطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا إذا أقسم بوهمند للإمبراطور يمين الولاء دون رجاء ، وعاهده الإمبراطور أنه لن ينسى أبدا وعده إليه طالما هو مقيم على يمينه له . وإذن فكيف تصرف الفرسان الشجعان القساة ؟ لا شك فى أن الحاجة الملحة كانت تجبرهم على قبول ذلك .

ووعد الإمبراطور من جانبه جميع رجالنا الوفاء بما عاهد ، والظمأنينة إلى ما وعد . بل لقد أقسم هو نفسه أنه سيرافقنا بجيشه برا وبحرا ، وأنه يضمن - فى إخلاص - تمويننا على اليابسة وفوق ظهر الماء ، وأنه سيعمل من جانبه على تدارك جميع خسائرنا ، وزيادة على ذلك فإنه لا يجب أن يشعر أحد من الحجاج - وهم فى طريقهم إلى الضريح المقدس - بشيء من الملل أو الضيق .

أما كونت صنجيل فقد أقام بظاهر المدينة فى إحدى الدساكر وبقى جيشه معسكراً فى الخلف ، وبعث الإمبراطور إلى الكونت يطلب منه أن يقسم له يمين الولاء والإخلاص كما أقسم الآخرون ، غير أنه فى اللحظة التى أرسل فيها الإمبراطور هذه الرسالة كان الكونت قد فكر فيما يستطيع عمله للثأر من الجيش الإمبراطورى ، فأفهمه الدوق جودفروى وروبرت كونت فلاندر وبقية الأمراء أن ليس من العدل أن يمتشق الحسام ويستله لمحاربة النصارى ، وأضاف بوهمند العاقل إلى ذلك قوله « إذا ارتكب [كونت تولوز] أى تعد ضد الإمبراطور وخالف ما تعهد الزعماء له بالوفاء به فإن بوهمند ذاته سيقف فى صف الإمبراطور » ، فضى الكونت لاستشارة رجاله ثم عاد فأقسم على احترام حياة الكسيس وشرفه ، وألا يسمح مطلقا بأية إساءة تناله سواء أكانت من قبله هو أم من قبل أحد رجاله ، لكنه حينما

دعى إلى «الولاء» ، أجاب إنه لن يستجيب لهذه الدعوة أبدا حتى ولو أدى رفضه إلى قتله . وفي هذه اللحظة بالذات [يوم ٢٦ إبريل ١٠٩٧] كان جيش بوهيمند قد اقترب من القسطنطينية .

٧ - ولكي يتجنب تانكريد وريتشارد الرئيس القسم الإمبراطورى عبرا البسفور سراً مستصحبين معهما جلة جند بوهيمند ، وسرعان ما بلغ جيش كونت صنجيل القسطنطينية ومكث السكونت بها هو ورجاله ، أما بوهيمند ، فقد بقي لدى الإمبراطور ليتشاور وإياه حول ما يتخذ من الوسائل لتيسير تزويد القوات الموجودة فيما وراء نيقية ، وذهب الدوق جودفروى أولا إلى نيقوميديا مع تانكريد ومع الآخرين ولبشوا بها ثلاثة أيام .

ولما أدرك الدوق أن ليس أمامه من طريق يستطيع أن يقود فيه هذه القوات إلى نيقية لأن الطريق الذى عبره الصليبيون الأوائل فى البداية لم يكن ميسرا لجماعة كثيفة العدد كهذه الجماعة — لما أدرك الدوق ذلك أرسل ربيعة فى ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالقبوس والسيوف ، وكلفهم بتعبيد هذا الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من المسير فيه إلى نيقية ، فشقوا طريقا عبر مضائق أحد الجبال الضخمة ، وفى أثناء عملهم هذا صنعوا صلبانا من الحديد والخشب رفعوها على صوى لتكون دليلا يسترشد به حجاجنا ، ومن ثم وصلنا قرب نيقية عاصمة كل بلاد آسيا الصغرى وذلك فى اليوم السادس من مايو [١٠٩٧ م] ، وأقنا هناك معسكرنا .

وقبل وصول السيد بوهيمند عدمننا الخبز ، حتى لقد كان الرغيف الواحد يباع بعشرين أو ثلاثين قرشا ، فلما قدم بوهيمند العاقل جلب معه بطريق البحر ذخيرة وفيرة ، وتوالت الإمدادات على اليابسة والماء ، فعم الفرح العظيم جيش المسيح .

٨ — وفي يوم صعود السيد [أعنى يوم ١٤ مايو ١٠٩٧م] شرعنا في مهاجمة المدينة من جميع نواحيها وبناء كباش وأبراج خشبية لنتمكن من هدم أبراج المنطقة ، وتمكننا في خلال فترة يومين من الاقتراب من المدينة بشجاعة وحمامة حتى قوضنا حيطانها وأسوارها . أما الترك الذين كانوا في المدينة فقد بعثوا رسالة لمن قدموا لنجدة البلد وختموها بقولهم « اقربوا بجسارة وفي اطمئنان وادخلوا من الباب القبلى لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية أحدا ما أماكم يزعمكم . »

وفي اليوم ذاته [١٦ مايو] أعنى يوم السبت الذى تلى صعود السيد احتل هذه الناحية [القبلية] كونت صنجيل وأسقف بوى ، أما هذا السكونت القادم من ناحية أخرى والذى ترعاه العفة الربانية ويزهى بأسلحته الدنيوية فقد خرج على رأس جيشه الباسل ، وكر على الترك الذين كانوا يتقدمون نحونا ، ولما كان [ريموند] مسلحا من جميع الجهات بعلامة الصليب فقد اشتد في الهجوم عليهم وتمكن من قهرهم والظهور عليهم فلاذوا بالفرار مخلفين وراءهم كثيرين من الموتى ، غير أن جماعة أخرى من الترك أقبلوا لنجدة الأولين ونفوسهم تفيض بالسرور والفرح بالنصر المحقق ، وكانوا يحرون الجبال ليسحبونا مصفدين بها إلى خراسان ، ولما كانوا في شدة النشوة فقد شرعوا في النزول بالتتابع من ذروة تل مرتفع ، لكنهم كانوا كلما نزلوا واستقروا في مكان ضربت أعناقهم بأيدي رجالنا الذين أخذوا يضعون رموس القتلى في المقاليع ثم يقدفونها إلى المدينة ليشوا الذعر بين سكانها الأتراك .

بعد ذلك أخذ كونت صنجيل وأسقف بوى يتشاوران حول اصطناع وسيلة تمكنهم من هدم برج قائم أمام معسكراتهم ، واتفقوا على إنفاذ فريق

من الرجال لخدمه يحميمهم حاملو الأقواس ورماة النشاب . فنهض الرجال لما ندبوا له وشرعوا فى الحفر حتى بلغوا أساس السور ، وكوموا السكتل والخشب ثم أضرموا فيها النيران ، فلما أقبل المساء انهار البرج ، غير أن الجميع كفوا عن متابعة القتال حين أرخى الظلام سدوله ، فاعتنم الترك الفرصة وخرجوا بقطع من الليل ورموا الحائط ترميما قويا ، حتى لقد كان من المستحيل — حين تنفس النهار — أن ينالهم منا أدنى من تلك الناحية .

سرعان ما وصل روبرت دوق نرمنديا والسكونت إيتين وكثيرون غيرهم ثم روجر دى بارنفيل ، فحاصر بوهيمند المدينة من إحدى نواحيها ، ووقف إلى جانبه تنكريد ، ثم أقبل الدوق جودفروى وكونت فلاندر يعاونه [دوق] نرمنديا ثم السكونت صنجيل ومعه أسقف پوى ، وكان الحصار البرى بالغ الشدة حتى لم يستطع أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول إليها ، وفى هذه اللحظة وقف الجميع وقفة رجل واحد ، فمن ذا الذى يستطيع إحصاء جيش المسيح . هذا الجيش القوى ؟ أظن أنه لم يتأت ولن يتأت لأحد ما أن يبصر مثل هذا العدد الكثيف من الفرسان وهم فى غاية التأهب والاستعداد !

بيد أنه كان يوجد فى إحدى نواحي المدينة بحيرة عظيمة [هى بحيرة إسنك] قد أرسى الترك فيها قواربهم ، ومن ثم كان فى قدرتهم الخروج والعودة محملين بالعلف والخشب وغير ذلك من الغلات ، وبعد أن عقد زعماؤنا مجمعا للتشاور فيما بينهم أرسلوا إلى القسطنطينية الرسل وكلفوهم دعوة الإمبراطور لإنفاذ السفن إلى ميناء [شفتوت] وطلبوا إليه أن يأمر بجمع الثيران وسوقها عبر الجبال والغابات إلى مقربة من البحيرة ، وسرعان ما تم ذلك فى الحال وأرسل الإمبراطور فى الوقت ذاته مرتزقة [بقيادة مانويل بوتوميتس] ، ولم ير القوم إنزال القوارب فى الماء يوم وصولها بالذات بل أنزلوها البحيرة حين أقبل الليل ، فاعتلاها المرتزقة وهم فى كامل سلاحهم ، فلما تنفس الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهى فى أحسن نظام تجذف وسط البحيرة متجهة

صوب المدينة ، فأكادت عيون الترك تقع على هذا المنظر حتى استولت عليهم الحيرة وتساءلوا « أتراها لقومهم أم لرجال الإمبراطور ؟ » ، ولم يلبث الرعب القاتل أن تملكهم حين أيقنوا أنها قوة إمبراطورية ، وانفجروا باكين منتحبين ، بينما كان الفرنجة فرحين بمجدون الرب .

ولما أيقن الترك في النهاية أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجدة من جيوشهم بعثوا إلى الإمبراطور سفارة تعلنه تسليمهم البلد من تلقاء أنفسهم إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، فازدهى الإمبراطور غرورا ودفعه سوء الطوية إلى الأمر بإخراجهم سالمين ، وإرسالهم آمنين مطمئنين إلى القسطنطينية ، وعاملهم باللين ليكونوا على أتم أهبة لنصب الكائن للفرنجة ووضع العقبات في سبيلهم .

استمر هذا الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام [من ٦ مايو إلى ٢٦ يونيو ١٠٩٧ م] واستشهد فيه كثير من رجالنا وصعدت أرواحهم الطاهرة إلى الله مغتبطة جدلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سبيل تمجيد اسم المسيح ، وصعدت نفوسهم منتصرة إلى السماء مرتدية ثياب الشهادة^(١) [البيضاء] وهى تهتف جميعها فى صوت واحد « حتى متى أيها السيد القدوس الحق لانقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض ؛ أنت يا من تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد^(٢) . آمين ! » .

(١) راجم رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٩ : ٦ ، ٩ : ١١ ، ٩ : ٧ .

(٢) رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ١٠ : ٦ .

زحف الصليبيين في آسيا الصغرى

وقعة دورلم (أول يوليو ١٠٩٧ م) .

٩ — في هذه الأثناء — وقد استسلم البلد — كان الترك سائرين إلى القسطنطينية ، وكان الإمبراطور قد فرق كثيرا من الصدقات على فقرائنا ،^(١) وتزايدت فرحته لعودة [نيقية] إلى سلطانه .

وفي اليوم الأول لمغادرتنا البلد وصلنا إلى جسر استرحنا عنده مدة يومين ، وفي اليوم الثالث استيقظ رجالنا قبل انبلاج تباشير الفجر حيث كان الليل لا يزال مرخيا أسداله على السكون ، ولم يستطيعوا شق نفس الطريق معا فانقسموا فريقين كانت المسافة الفاصلة بينهما تقدر بمسيرة يومين ، ولقد رحل مع الفريق الأول بوهيمند وروبرت دوق نرمنديا وتنكريد العاقل وكثيرون غيرهم ؛ أما الفريق الآخر فكان فيه كونت صنجيل والدوق جودفروى وأسقف بوى وهيج الكبير وكونت فلاندر وكثيرون غيرهم . وفي اليوم الثالث كر الترك كرة عنيفة على بوهيمند ورفاقه ، وشرع الأعداء يصرون على أسنانهم ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بلسانهم كلمة^(٢) شيطانية لا أعرفها ، فلما رأى بوهيمند الحكيم هذه الكثرة من الأتراك مدفوعين وهم يزجرون في صوت من به مس من الشيطان بادر إلى إرجال الفرسان من على دوابهم ، وأسرع في نصب خيمته التي قبل أن يتم إقامتها أعاد قوله على جميع الفرسان « أيها المبجلون ويا فرسان المسيح

(١) وزع الأمبراطور كثيرا من الصدقات والخلع على الفقراء والفرسان على السواء . راجع

Foucher, p. 333; Epistulae et Chartae, p. 145.

(٢) تشير الحوليات هنا الى عبارة « الله أكبر » ، يدل على ذلك ما أورده Raoul

de Caen, p. 636 حيث ذكر أن المسلمين كانوا يهتفون بقولهم « Alla Chibar »

الأسلوس ، هانحن أولاء الآن فى انتظار المعركة الفاصلة وقد أهدق العدو بنا من كل جانب ، ومن ثم فليعض الفرسان قدما إلى اليمين فى شجاعه ، وليبادر الرجالة إلى نصب الخيام وليكن رائدهم العقل .

أحاط بنا الترك من كل جانب حين تم ذلك كله وأخذوا فى قتالنا ورمينا بالحرا ب وتصويب النبال إلينا من مسافة بعيدة عجيبية ، وعلى الرغم من عدم قدرتنا على مقاومتهم وعجزنا عن احتمال وطأة هذا العدد الغفير من الأعداء أجمعنا أمرنا على الخروج لصددهم ، حتى إن نساءنا عاوننا فى ذلك اليوم معاونة عظمى بحمل الماء لرجالنا كي يشربوا ، ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع . ولم يتأخر بوهيمند العاقل عن أن يطلب من الآخرين - وأعنى بهم كونت صنجيل والدوق جودفروى وهيج السكير وأسقف بوى وبقية فرسان المسيح - الإسراع والمبادرة للسير إلى القتال قائلاً لهم « من شاء أن يساهم اليوم بنصيب فى الصراع فليقدم مصلاتا غير خوار . » وسرعان ما كان الدوق جودفروى المعروف بإقدامه وشجاعته وهيج العظيم أول القادمين بقواتهما ؛ ولم يلبث أسقف بوى أن تبعهما بجنده ، ثم تلاه كونت صنجيل فى جيش كثيف .

استولت الدهشة على رجالنا فراحوا يفكرون من أين تمكن من الخروج هذا العدد العظيم من الترك والعرب والشرقيين وغيرهم ممن يستحيل إحصاؤهم ، فقد ملأ هذا الجنس الملعون كافة المرتفعات والجبال والأودية والسهول ما كان منها داخل المدينة وخارجها ، وجرت بيننا محادثة سرية قلنا فيها بعد حمد الرب والمشاورة « فلتتحد بكل وسيلة فى سبيل دين المسيح ومن أجل نصر الصليب المقدس ، لأنكم إذا أرضيتم الرب اليوم انقلبتم أغنياء موفورى الثراء . »

لم يلبث شمل مقاتلينا أن التأم وانتظمت الصفوف ، وكان على الجناح الأيسر كل من بوهيمند العاقل ، وروبرت الزمردى وتكريد الفطن ، وروبرت

دى أنزا ، وريتشارد الرئيس ؛ وتقدم أسقف بوى من مرتفع آخر للإحداق بالترك والسكفرة ؛ وكان على الجناح الأيسر كذلك الفارس المشيع الجنان « ريموند كونت صنجيل » ، وعلى الميمنة الدوق جودفروى والفارس المقدام كونت فلاندر وهيج العظيم وكثيرون ممن أجهل أسماءهم .

وعند اقتراب فرساننا بادر الترك والعرب والشرقيون والغلبان^(١) وجميع الشعوب البربرية إلى الحرب السريع من مضايق الجبال ومنافذ السهول ، وكان عدد الترك والفارس والرعاى والشرقيين والغلبان وغيرهم من الوثنيين يبلغ ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، هذا عدا العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ، وفروا مسرعين إلى خيامهم ، بيد أنهم لم يستطيعوا اللبث بها طويلا إذ مال بشوا أن تابعوا الحرب ونحن فى آثارهم نقتل فيهم طيلة يوم كامل ، وأصبنا غنيمة من الذهب والفضة والخيول والحمر والجمال والمواشى والثيران وأشياء كثيرة غير تلك مما نجهلها ، وما كان لأحد من رجالنا أن ينجوا هذا اليوم لولا وجود السيد معنا فى هذه المعركة ولولا أنه أرسل إلينا على جناح السرعة الجيش الآخر [جيش كونت صنجيل ورفاقه] ، فقد استمر القتال من غير انقطاع من الساعة الثالثة إلى التاسعة ، إلا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض بهلك فرسانه أو وقوعهم فى أيدي أعدائهم ، فبعث إلينا هذه النجدة على جناح السرعة ؛ لكن قتل فى هذا اليوم اثنان من فرساننا الشرفاء هما جودفروى دى مونت سيكيابوزو ، ووليم بن المريكز أخو تنكريد ، كما مات كثيرون من الفرسان والمشاة الذين أجهل أسماءهم .

فمن هذا الحكيم العالم الذى يجرؤ على وصف لباقة الترك ومواهبهم الحرية ومقدار بسالتهم ؟ لقد كانوا يظنون أنهم يخيفون أمة الفرنجة بتهديدهم

(١) أوثركلة « الغلبان » العربية ترجمة لكلمة Angulani اللاتينية ، لاسيما وأن مسيو برييه يقول عن الأنجولان فى تفسيره لها "un corps de troupe de l' armée Turque." أما المراجع العربية كابن الفلانسي فكثيرا ما يرد فيها لفظ « الغلبان » ويقصد به فريق من العسكر يستعان به فى الحرب ، ولم أجده مستعملا قبل هذا التاريخ فهاين يدى من المراجع العربية .

أيام بنابهم كما أخافوا العرب والشرقيين والأرمن والسريان والإغريق ،
لكن إذا أراد الرب ألا يتغلبوا على رجالنا فلن يستطيعوا إلى الغلبة سييلا .
ولقد كان حقاً ما قيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير
الفرنجية أو الترك ^(١) ، وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحدا مناقتي ، وهي
لو أنهم آمنوا إيماناً تاماً بالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة ، ولو تأتى لهم أن
يعترفوا برب واحد في ثلاثة أقانيم وهو ابن الله المولود من العذراء ، الذي
تألم ثم قام من بين الأموات وصعد إلى السماء أمام أعين تلاميذه ، وأرسل
التعزية الكاملة بالروح القدس ، ولو تأتى لهم أيضاً أن يؤمنوا إيماناً صادقاً عادلاً
بأن له الحكم في السماء والأرض ^(٢) لما وجدنا شخصاً ما يمكن أن يساويهم
في القوة والشجاعة وفن القتال .

وشاءت إرادة الرب أن يلاقوا الهزيمة على أيدي رجالنا . وكانت هذه
الوقعة يوم أول يوليو .

— ٤ —

زحف الصليبيين على أنطاكية

عبورهم آسيا الصغرى وذهاب بلدوين وتنكريد إلى طارس .
عبور أرمينيا الصغرى وإقليم كبادوشيا .
بلوغهم أبواب أنطاكية

١٠ — بعد انهمز ام الترك — أعداء الرب والمسيحية المقدسة — هزيمة تامة
وهروبهم مدة أربعة أيام وأربع ليال سوياء جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن

(١) تشير الوثائق هنا إلى الأسطورة التي تزعم أن الفرنجية والترك منحدرين من نبتة
تورانية .

(٢) إشارة إلى قانون الإيمان الكاثوليكي .

سليمان الأكبر قد فر إلى نيقية ، حيث صادفه عشرة آلاف عربي فقالوا له :
« أيها الشقي ، ويا أتعس الخلق جميعا ، ما الذى دفعك على الهروب ؟ » فأجابهم
سليمان : « حين انهزم الفرنجة من قبل كنت أحسب أننى سأخذهم مكبلين
مأسورين ، ولما أردت تقييدهم جماعة بعد أخرى ، ونظرت إلى الوراء أبصرت
شعبا كثيف العدد أكثر من الدبا ، ولو تأتى لكم أنتم وغيركم أن تكونوا
مشاهديهم لرأيتهم جموعهم تغطى كافة الجبال والتلال والوديان والسهول ، ولم
نكد نراهم حتى استبد بنا الفرع الشديد وتابعا المسير ، وكدنا أن نلقى أنفسنا
بين أيديهم من فرع الخوف وهوله ، فإن كنتم مصدق فى ما أقول فارحلوا من
هاهنا لساعتكم لأنهم لو عرفوا خبر قدومكم لما بقى أحد منكم حيا ، فلما سمعوا
قوله هذا ولوا الأدبار وتشعب صدعهم وانسابوا فى كل نواحي آسيا
الصغرى .

أما نحن فلم نكف عن تعقب أولئك الترك الطغاة الذين كانوا يفرون كل
يوم من أمامنا^(١) ، وكانوا كلما بلغوا بلدا أو مكانا حصينا كذبوا على سكانه
ومكروا بهم قائلين لهم : « لقد هز منا جميع المسيحيين ، وكان نصرنا عليهم عظيما
حتى إنه لن يجرؤ أحد ما منهم أبدا على الوقوف أمامنا ، فدعونا ندخل
عندكم » ، ولا يكادون يدخلون البلد حتى يسلبوا السكنائس وينهبوا البيوت
وكل ما يصادفهم ، كما يغتصبون من أهله الجياد والحمر والبغال وجميع مالههم
من الذهب والفضة ، وكل ما يتأتى لهم ، وينطلقون بأبناء النصارى
ويأتون على كل ما يستطيع الانتفاع به حرقا أو هدمًا ، ... كل ذلك وهم
يفرون من ملاقاتنا ويفزعون منا ، وقد تتبعناهم عبر الصحارى والأراضى
التي خلت من الماء والحياة فحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء^(٢) ،
وبلونا شدة الجوع وقسوة الظمأ ، ولم نجد ما نمسك به رmqنا سوى الشوك

(١) كان هذا بعد راحة يومين ، راجع Foucher, p. 336.

(٢) يلاحظ هنا أن هذه الوثائق هى التى تنفرد من بين جميع ما كتب فى تلك الناحية
بذكر الطريق الذى سار فيه الصليبيون .

الذى كنا نقتله ونسحقه بأكفنا ، فكان هو الطعام الذى عشنا عليه ونحن فى أشد حالات الضنك ، وقد نفق هنا معظم جيادنا حتى اضطر الكثيرون من فرساننا للترجل ودفعنا نقص المطايا إلى استعمال الثيران بدلا من جياد القتال . وفى وسط هذه الحاجة الملحة استعملنا الماعز والخراف والكلاب لحمل متاعنا . دخلنا بعد ذلك منطقة خصبة تفيض بالمسأكولات والأطياب وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من قونية التى أشار علينا أهلها بأن نحمل معنا كميات أخرى وفيرة من المياه لأننا سنفتقد الماء فلا نجده طوال مسيرة يوم كامل ، وبلغنا كذلك نهرا عسكرا عنده مدة يومين ، وشرع أعداؤنا فى التقدم أمامنا حتى أفضوا إلى ناحية هرقل حيث كان هناك فريق من الترك متأهبين لملاقاة جند المسيح والبحث عن الطريق المؤدية لإيذانهم ، أما جند الرب القوى فقد رأوا هؤلاء الترك واستبسروا فى الهجوم عليهم ، وحملوا فى ذلك اليوم أيضا على عدونا الذى أسرع فولى مدبرا غير مقبل أشبه بسهم قد انطلق من قوسه إثر ضربة قوية صائبة . وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ولبثنا بها أربعة أيام ^(١) .

وهناك انفصل تانكريد بن المريكز عن الآخرين ، وحذا حذوه السكونت بلدوين أخو الدوق جودفروى ، ودخلا معا وادى Bothrentot ، ثم رحل تانكريد وحده على رأس فرسانه وانطلق بهم حتى بلغ مدينة طرسوس فغادرها الترك وهبوا لدفعه متجمعين فى كتلة واحدة وتهاووا لقتال النصارى ، فلما تدانى رجالنا لحرهم لاذ العدو هاربا وارتد على أعقابها إلى المدينة مسرعا ، غير أن تانكريد فارس المسيح ثنى عنانه المضروب وضرب معسكره أمام باب المدينة .

ومن ناحية أخرى وصل السكونت بلدوين ^(٢) مع جيشه سائلا تانكريد

(١) هى المدة من ١٠ سبتمبر ١٠٩٧ إلى ١٣ منه .

(٢) حوادث هذه الفترة واردة بتفصيل أدق فى Raoul de Caen, p. 629-641 ;

Albert d' Aix, p. 342-350.

أن يأذن له بمقاسمته المدينة ، فأجابه تنكريد « إننى أرفض كل قسمة معك » ، فلما أرخى الليل سدوله فر جميع الترك المذعورين ، وحينذاك تستر سكان المدينة بالظلام الدامس وخرجوا هاتفين بصوت عال « بادروا أيها الفرنجة المنتصرون ، بادروا فإن الترك الذين اضطربوا خوفا قد انصرفوا جميعا فى آن واحد . .

ولما تنفس الصباح قدم أشراف البلد وسلخوا المدينة من تلقاء أنفسهم وقالوا للمتنازعين حول هذا الموضوع « أقصروا أيها السادة أقصروا ، إننا نطلب إليكم ونسألكم أن تسودوا علينا هذا الأمير [تانكريد] الذى استبسل أمس فى محاربة الترك . إلا أن السكونت بلدوين المحبوب احتج وحاج تانكريد بقوله « فلندخل المدينة معا وننهبا ، وليقم على حراستها من يصب النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطيع غزوها ! ، فعاد تانكريد الشجاع يقول « ما أبغض هذا المسلك إلى نفسى وأبعدها عنه ، إننى لا أريد أن اسلب النصارى ، ولقد اختارنى رجال هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سوى » ، ثم لم يشأ تانكريد الشجاع أن يذهب أكثر من هذا فى مناضلة السكونت بلدوين ذى الجيش القوى ، وترك المدينة طوعا أو كراهية وأرشد بشجاعة مع جيشه ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هامتان هما أذنة والمصيصة ، كما دان له كثير من الحصون .

١١ — ومع ذلك فإن الجيش العظيم وريموند كونت صنجيل وبوهيمند الحذاق والدوق جودفروى وكثيرين غيرهم قد دخلوا بلاد الأرمن ظمانين إلى دماء الترك متعطشين لها ، وأفضى بهم السير أخيرا إلى حصن شديد المناعة وقفوا حياله عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه « سيمون » من أهل البلد فسألهم أن يكلوا إليه امر الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات أعدائه من الترك ، فمنحه الفرنجة إياها ، وأقام بها مع أبناء جنسه .

ثم غادرنا تلك الناحية ووصلنا - ناعمي البال - إلى « قيصرية » من أعمال كبادوشيا ، ثم رحلنا إلى مدينة عظمى وفيرة الغنى كان الترك قد أقاموا على حصارها مدة ثلاثة أسابيع قبل قدومنا ، إلا أنهم عجزوا عن التغلب عليها ، بيد أننا ما كدنا نبلغها حتى بادرت إلى الاستسلام لنا وهى فرحة أشد الفرح ، وقام أحد الفرسان واسمه بطرس الأبوسى Petrus de Alpibus وسأل جميع السادة أن يقطعوه إياها ليدافع عنها بكل ما وسعه الإخلاص من أجل الرب والضريح المقدس وفى سبيل السادة والإمبراطور ، فانهقد الرضا بالاجماع على إقطاعه إياها .

فلما كانت الليلة التالية علم بوهيمند أن الترك الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة كادوا أن يسبقونا إلى دخولها ، فمالث بوهيمند أن تأهب هو وفرسانه وحدهم دون سواهم لمطاردتهم أنى كانوا ، إلا أنه لم يتهيا له مصادقتهم . بلغنا بعد ذلك مدينة تسمى Coxon ، وكانت زاخرة بمواد المثونة التى كنا فى مسيس الحاجة إليها ، وسرعان ما أوطأنا مسيحيوها فناءهم واستسلموا لنا ، فلبثنا بينهم ثلاثة أيام ونحن وإياهم فى وفاق وفى أرغد حال ، واستطاع رجالنا أن يستردوا عافيتهم تمام الاسترداد .

ولما علم السكونت ريموند بارتداد الترك القائمين على حراسة أنطاكية أطبق تدبيره هو ومشاوروه على إرسال بعض فرسانه للمبادرة إلى احتلالها ومن ثم اختار أولئك الذين أراد أن يكل إليهم أمر هذه المهمة وأعنى بهم الفيكونت بطرس القشتالى ، ووليم دى مونبيه ، وبطرس دى رويه ، وبطرس ريموند دوتبول ، واستصحبوا معهم خمسمائة فارس ، فساروا جميعا فى واد واقع بإحدى ضواحي أنطاكية حتى بلغوا حصن الـ Publicains ، وهناك تنهى إليهم الخبر باحتلال الترك للمدينة وباستعدادهم للاستبسال فى الذود عنها ، فانفصل بطرس دى رويه عنهم معه ، حتى إذا كان مساء اليوم التالى - وقد اقتربوا من أنطاكية - دخل وادى الروج ووجد به فريقا من

الترك والشرقيين فناجزهم القتال ، وفنك بثلة كبيرة منهم ، ثم قص الباقين في
عنف ، وما كاد سكان هذه الناحية من الأرمن يرون عظم الهزيمة التي أنزلها
[بطرس] بالكفار حتى أذعنوا له ، ودانت له «رويحاً» وكثير من الحصون .
أما نحن الذين بقينا في «جاكسو» فقد غادرناها وتوغلنا في جبل مفرع
يضر ببقنته إلى السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقاً بالغاً ، وسرنا في الطريق
المجاور له ، ولم يستطع أحدنا مزاحمة الآخر في التقدم ، وكانت الجياد تسقط
في الأدوية ، وكل فرس حمولة يجبر فرساً آخر ، وارتسمت دلائل الحزن
على الفرسان أجمعين ، وأخذوا يلطمون أنفسهم بأيديهم غماً وكرهاً ، وتدبروا
ما يصنعون بأنفسهم وأسلحتهم ، فراحوا يبيعون تروسهم ومجناهم وخوذاتهم
لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاث وخمس دانيات أو بما يكاد لا يساوي شيئاً ، أما
العاجزون عن بيعها فراحوا يطحونها عن كواهلهم دون ما ثمن ثم
يتابعون سيرهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل البغيض وصلنا [يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ م]
إلى بلدة تسمى «مرعش» ، خفف سكانها لاستقبالنا فرحين غاية الفرح ،
وحملوا إلينا ذخيرة وفيرة ، ولقد كنا في العدد الجم ، وأقننا بها منتظرين
وصول السيد بوهيمند .

أخيراً بلغ فرساننا وادي (العاصي) الذي تقوم فيه مدينة أنطاكية
الفخمة ، عاصمة كل بلاد الشام قاطبة ، التي أعطاها السيد عيسى المسيح إلى
بطرس أمير الحواريين ليرجعها إلى عبادة الدين المقدس ، وهو الذي ذهب
وحكم مع الله الأب في عالم الروح القدس ، له المجد دائماً ، آمين !

بدء حصار أنطاكية

بدء الحصار وأخذ حصن حارم . المجاعة في معسكر الصليبيين .

١٢ - جرت عادة عدائنا على سبقنا دائماً ، فلما اقتربنا من جسر الحديد وجد أولئك العداؤون أمامهم جماعة قوية من الترك يغذون المسير لنجدة أنطاكية ، فلم يكن منهم إلا أن هاجموا الأتراك يداً واحدة وقلباً واحداً ، وكتبت لهم الغلبة عليهم بعد أن قذفوا الرعب في قلوب أولئك البرابرة الذين لا ذوا بأذيال الفرار ، كالتى الكشرون منهم مصرعهم في هذه الواقعة ، ولما كان لواء النصر قد عقد على مفرق رجالنا فقد أصابوا بفضل رعاية الرب إياهم غنيمة هائلة من الخيول والجمال والبغال والخير المحملة بالطعام والشراب .

وأخيراً وصل رجالنا إلى شاطئ نهر [العاصى] وعسكروا عنده ، وفي الحال ذهب بوهيمند العاقل مع أربعة آلاف فارس وعسكر أمام أحد أبواب المدينة كي لا يمكن أحداً من دخولها خفية أو مغادرتها سراً تحت جنح الظلام ، وفي اليوم التالى بلغوا أنطاكية ، وكان بلوغهم إياها ظهر اليوم الرابع من البطالة الذى هو اليوم الثانى عشر قبل أول نوفمبر ، فحاصرنا ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصاراً عجيباً . ولم نجد مكاناً ميسراً لضرب الحصار على الناحية الباقية بلا حصار لأننا كنا مكتشفين بجبل شامخ الذرى لم يترك لنا غير شعب بالغ الضيق .

أما أعداؤنا الترك الذين كانوا داخل المدينة فقد استولى عليهم الجزع منا استيلاء شديداً أبقاهم خمسة عشر يوماً جامدين لا يحركون ساكناً ، ولم يجرؤ أحد منهم على مهاجمة فردما من جماعتنا ، ولم نكد نضرب معسكراتنا حول

أنطاكية حتى وجدنا في هذه الناحية كمية بالغة الوفرة من الأعناب الناضجة ،
ومخايب مملوءة بالقمح ، وأشجاراً مثقلة بما حملت من أنواع الفاكهة ، كما عثرنا
على شتى ضروب الأطعمة الصالحة للآكل .

أما الأرمن والسوريون الذين كانوا داخل المدينة فقد دأبوا على مغادرتها
كل يوم متظاهرين بالفرار والمجيء إلينا ، بينما بقيت نساؤهم في المدينة ،
وكانت عاداتهم أن يتقصوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شيء إلى أولئك
المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، فلما ألم الترك كل
الإلمام بجميع ما يتعلق بنا ووقفوا على خبرنا شرعوا يغادرون المدينة سرّاً
على مهل ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، ولم يكونوا يترصون لنا في ناحية واحدة
بل كنا نجدهم محتفين في كل الجهات ، فأوثة نلقاهم في طريقنا إلى البحر ،
وأوثة أخرى نصادفهم في طريقنا إلى الجبل .

وعلى كشب من هذه الناحية كان يوجد حصن يسمى حصن « حارم » ، قد
كمن فيه عدد جم من أبسل الأتراك الذين طالما أقضوا مضاجع رجالنا ، فلما
علم قادتنا بذلك اشتد جزعهم وصاروا يقدمون أمامهم كثيرين من فرسانهم
لكشف الجهة التي ينزل بها الأتراك ، فإذا ماتحقق فرساننا الذين يفتشون عنهم
من المكان الذي يكمنون فيه مضوا لملاقاتهم ، وأخذ رجالنا يتقهقرون تباعاً
أمامهم إلى حيث البقعة التي كانوا يعرفون أن بوهيمند يعسكر فيها هو وجنده ،
ولقي اثنان من رجالنا مصرعهما في هذا الارتداد ، فلما صك هذا النبأ سمع
بوهيمند اندفع هو ورجاله ، فكان بطل المسيح الأشوش ، واستبسل المتبر برون
في دفعهم وكانوا فئة كبيرة بالنسبة لرجالنا القلائل ، ومع ذلك فقد احتدم القتال
بين الفريقين وقتل الكثيرون من أعدائنا وأسر غيرهم وسيقوا إلى باب
المدينة حيث ضربت أعناقهم أمامه مبالغة في زيادة آلام من بداخلها ونكالا بهم .
أما الآخرون فقد غادروا المدينة وتسلقوا أحد الأبواب وأخذوا يفوقون
إلينا نبأهم التي راحت تنساقط في ناقلة معسكر بوهيمند تساقط المطر ،
وأصبحت امرأة برمية قوس جندلتها .

١٣ - التأم شمل مقدمينا وراحوا يتشاورون فيما بينهم وقالوا لنبن قلعة على قمة جبل « مرقب » لنأمن على أنفسنا من الترك ولتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم » ، وماتم بناء الحصن وتقويته حتى تناوب زعمائنا حراسته واحدا بعد الآخر .

لكن حدث قبل عيد ميلاد السيد المسيح أن شح القمح وأخذت جميع المواد في النقصان ، وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر ، وعدنا لانجد في منطقة المسيحيين شيئا ما يمكن أن نفتات به ، زد على ذلك أنه ما كان في أحد منا الجرأة على اقتحام أرض المسلمين إن لم يكن في نفر العديد والحشد الكثيف ، واذ ذاك عقد سادتنا مجلسا تشاوروا فيه حول اصطناع الوسائل اللازمة لحكم شعب كبير العدد كهذا الشعب ، فانعقد إجماعهم بعد التشاور على أن يبادر في الحال فريق من رجالنا إلى الذهاب لجمع الأقوات ولضمان حماية الجيش من ضربة تأتيه من الخلف ، كما اتفقوا على أن يظل الباقون في المعسكر لحراسته ، ثم قال بوهيمند « أيها السادة ، وأيها الفرسان الفطنون : إننى ذاهب مع كنت تولوز إذا شئتم هذا ورأيتموه خيرا » .

وبعد أن احتفوا احتفاء شديدا الفخامة بعيد الميلاد خرجوا يوم الاثنين ثاني أيام البطالة في أكثر من عشرين ألف فارس وراجل ، ودخلوا سالمين آمنين منطقة المسلمين ، وكانت تزخر بالترك والعرب والشرقيين القادمين من بيت المقدس ومن دمشق وحلب وغيرها من البلدان لشدة أزر حامية أنطاكية ولما علموا أن هذا الجيش المسيحي زاحف على بلادهم تأهبوا لمحاربة النصارى وما كادت خفمة الليل تتلاشى أمام خيوط الفجر حتى كانوا قد بلغوا الناحية التي تجمعت فيها قوتنا ، وانقسم أولئك المتبر برون قسمين تقدم أحدهما أمامنا والآخر خلفنا قاصدين بذلك أن يحددوا بقواتنا من جميع النواحي ، إلا أن كونت فلاندر الهام ، المسلح بإيمانه وبشارة الصليب الذى كان يدفعه لإخلاصه له للدأب على حمله ، كر عليهم في الوقت الذى هاجم فيه بوهيمند ، وهكذا أغار

رجالنا جميعا غارة رجل واحد على العدو الذى سرعان ما انطلق هاربا وأدبر هوليا إيانا ظهره ، تاركا خلفه كثيرين من القتلى ، فاستولى رجالنا على جيادهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين استطاعوا النجاة من القتل فقد أغذوا الهرب وحق عليهم « الهلاك الأبدى » . أما نحن فقد عدنا مسرورين نسبح ونمجد الرب الذى هو فى نفس الوقت ثالث واحد ، والذى له الملك الآن وإلى الأبد أمين .

- ٦ -

حصار أنطاكية

هجوم الترك على الصليبيين وحلة التوین . فرار بطرس الناسك
ووليم النجار . رحيل تانيكبوس . انتصار بوهيمند
على الترك قرب بحيرة أنطاكية .

١٤ - خرج الترك أعداء الرب والمسيحية المقدسة الموجودون داخل أنطاكية لحراستها حين ترمى إليهم الخبر بأن السيد بوهيمند وكونت فلاندر متغيبان عن الحصار ، وقدموا واشتبكوا معنا فى قتال عنيف وكانو يؤثرون مهاجمة النواحي الضعيفة ، ولما كانوا يعرفون تمام المعرفة أن هذين الفارسين الفطنين بعيدان عنا فقد صمموا على مهاجمتنا والقضاء علينا يوم الثلاثاء (٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ م) .

سرى أولئك المتبربرون الخيفون بقطع من الليل وانقضوا علينا بشدة وفتكوا بعدد كبير من فرساننا ومن مشائنا الذين تراخوا فى حماية أنفسهم ، وفى هذا اليوم المشئوم مات أسقف بوى الذى كان يقود بنفسه كتيبته ويشرف عليها بذاته ، ولو لم يكن النهر فاصلا بيننا وبينهم لكان الأرجح أن يهاجمونا وينكبوا جماعتنا بنكبات جسيمة .

حينذاك غادر بوهيمند العاقل هو وجيشه منطقة الشرقيين وبلغ جبل

تسكريد عساه أن يجد هناك أى شيء يستحق مشقة الأخذ ، وذلك لأن الناحية كلها كانت قد نُهبت ، ووجد البعض هناك بعض الفقاع ، وعاد الآخرون صفرا الأيدى ، فأنهم بوهيمند العاقل بهذه العبارات : « أيتها الفئة المنكودة الشقية ويا أحط المسيحيين قاطبة ، ما الذى دعاكم لسرعة الارتداد ؟ لقد كان عليكم أن تصبروا وتترثوا حتى يلتئم شملنا وألا تكونوا كالقطيع تغدون بلا راع مخافة أن يحدكم أعداؤكم مشردين فيثبون عليكم ويقتلونكم ، لأنهم يترقبونكم ليلا ونهارا مؤملين أن يروكم بلا قائد يدبر أموركم ، فيهاجموكم على انفراد أو مجتمعين ويعملون على سوقكم أسرى ، وما كاد يفرغ من خطابه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وهم أزهد ما يكونون فى الغنيمة .

وحين رأى الأرمن والسريان أن رجالنا عادوا وهم يكادون أن يكونوا صفرا الأيدى ، تجمعوا للتجول فى الجبال وفى الإقليم الذى تنكلمنا عنه يفتشونها تفتيشا دقيقا ، ويشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى المعسكر الذى كانت المجاعة العظمى قد ضربت أجرانها عليه ، فكانوا يبيعون حمولة الحمار بثمانية hyperpres (purpuratis) أى بما يعادل ١٢٠ دينة ، فمات الكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع .

انسبل وليم النجار وطرس الناسك سرا حين أملت بنا هذه النسبة الجسيمة وحق بنا ذلك الضيق البالغ ، فمضى تسكريد فى آثارهما ورجع بهما وهما فى غاية الحزى ، فأقسماه الأيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية إلى المعسكر وأنهما سيعتذران للسادة ، وبقي وليم طول الليل فى فسطاط بوهيمند مقيد الطرف إلى الأرض وهو أذل من المهانة ، فلما تنفس صباح اليوم التالى مثل أمام بوهيمند وقد احمر خجلا ، فخاطبه بوهيمند بقوله « أيها الشقي يا خزى فرنسا ويا عار جميع العالمين وآثمهم ، ويا أشقى من حملته الأرض ؛ لماذا هربت على هذه الصورة المخزية ؟ أترأى كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للسكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل فى إسبانيا ؟ ، فلزم

وليم الصمت ولم تنفرج شفتاه قط عن أية كلمة ، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريباً متوسلين إلى السيد بوهيمند ألا يشتد أكثر من هذا في إيلامه ، فأجاب سؤلهم وقال « إن حبي إياكم يحملى على تلبية طلبكم عن رضا خاطر إذا أقسم لى قسمًا خالصاً من قلبه وروحه ألا يحدد عن طريق يدت المقدس سواء فى الفرج أو فى الضيق ، وكذلك إذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه . فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضى عن طيب خاطر ، وسرعان ما رده بوهيمند ؛ على أنه حدث فيما بعد أن افترس الحزى وليم النجار ، فما لبث أن هرب واختفى .

اشتد الفقر والبؤس اللذان أدخرهما الرب لنا جزاء خطايانا إذ لم يعد فى الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة سوى ألف فارس ، إلا أن الخبر تراى إلى عدونا « تاتيكوس » بأن جيوشاً من الأتراك زاحفة علينا فاستبد به الفرع الشديد ، ولما كان قد رأى القتل قد استحر فى كثير من رجالنا وسقوط الكثيرين منهم فى أيدى أعدائنا فقد أخذ ينتحل شتى الافتراءات الكاذبة فقال « أيها السادة ، وأيها الرجال الحكماء . انظروا ما نحن فيه من بالغ الضيق ، لقد عدمننا النجدة وضائق بنا السبل ، فدعوفى إذن أعود إلى وطنى بيزنطية ، وكونوا على ثقة من أنى سأحضر إليكم هاهنا ببحر لى من السفن المحملة بالحنطة والنبذ والشعير واللحم والطحين والخبز وكل ما محتاجونه ، وسأبعث إليكم بالجياد للبيع ، وستصلكم الذخيرة إلى هنا عبر الأرض الموالية للإمبراطور ، وأقسم لكم على صدق هذا كله ، وأن أهل بيتى وفسطاسى لباقون فى المعسكر هم الآخرون ، وكونوا واثقين من رجوعى إليكم على جناح السرعة . »

ولما ختم هذا العدو كلامه مضى مخلفاً بالمعسكر كل ما يملكه ، وهو حاث فى يمينه وسيظل حاثاً فيه ، وكنا إذ ذاك فى أشد حالات الضنك ، إذ ضيق الترك علينا الخناق من جميع الجهات ضيقاً لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا مجاعة هددتنا بالفناء ، وعدمننا كل مساعدة وكل نجدة ، وهرب الرعايد والفقراء إلى قبرص وإلى سلطانية الروم ، كما فر بعضهم إلى الجبال ، وكان خوفنا

من الترك المفسدين قد جردنا من الجرؤة على الذهاب إلى البحر الذي لم يكن لنا مهرب سواه .

١٧ — حين علم الدوق بوهيمند بأن حشدا كثيفا من الترك لا يحصيه العد زاحف علينا اقتضاه ما انطبع عليه من الحكمة التفطيش عن الآخرين ، وقال لهم « أيها السادة ويا أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن فاعلون ، إننا لسنا بالكثرة التي تمكنتنا من محاربتهم ونحن منقسمون إلى معسكرين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون ؟ سننقسم إلى فريقين فيبقى المشاة لحراسة الخيام ، وسيتمكنون تمكنا تاما من التغلب على حامية المدينة ، أما الفرسان فيلازمونا ليواجهوا أعداءنا الذين نصبوا معسكرهم على كثر منا عند حصن حارم وجسر الحديد .

ولما جاء المساء خرج بوهيمند العاقل من معسكره مع الفرسان الآخرين الفطناء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ولما تنفس الفجر بعث النفاض ريثة له لتسطلع عدد السكتائب التركية ومواضعها وأعمالها ، فانطلقوا لطبيهم يفتشون كذابهم في الأماكن التي أقامت فيها القوات التركية ، وأخيراً رأوا أتراكا كثيرين قادمين من ناحية النهر مقسمين إلى كتيبتين . وكانت قوتهم الرئيسية في المقدمة ، فعادت الطلائع على جناح السرعة قائلة « إنهم هناك ، لقد جاءوا فاستعدوا جميعاً لأنهم آخذون في الاقتراب منا » ، وقال بوهيمند العاقل للآخرين « أيها السادة وأيها الفرسان الذين لا يقهرون ، أعدوا صفوفكم للقتال » فأجابوه « إنك عاقل ، وإنك فطين ، وإنك عظيم ونفم أنت المحارب الباسل ، ياليت المعارك ويارب الوقائع ، افعل ما بذاك فقد وكلنا الأمور إليك ، ولننجز نحن وأنت كل ماتراه صالحا .

حينذاك أمر بوهيمند أن يرتب كل زعيم من الزعماء فريقه تنظيماً تاماً ، ففعلوا ما أمروا وكونوا ست فرق ، انضمت خمس منها بعضها إلى بعض لمهاجمة العدو ، وأخذ بوهيمند يتراجع بفريقه على مهل إلى الوراء ، واستبشر رجالنا إذ اشتبكوا مع العدو ، والتحمت كل فئة بفئة ، وتعال الصيحات إلى السماء ،

وتقاتلوا جميعا ، وحجب الجو وابل من النبال الهطالة .

ولما أقبل الجزء الأكبر من جيشهم الذي كان مقبيا في الخلف هجموا هجوما عنيفا على رجالنا الذين أخذوا يتقهقرون شيئا فشيئا ، فلما رأى بوهيمند العالم هذا المنظر تألم ، ودعى إليه حامل عليه روبرت ابن جيرارد وقال له : اذهب بأسرع ما يمكنك وأنت أبسل رجل ، وتشجع في سبيل نجدة دين الرب والمذبح المقدس ، واعلم أن هذه الحرب ليست حربا شهوانية بل هي حرب روحية ، وكن أشجع صنيديد يعمل من أجل المسيح ، رافقتك السلامة ، وليرعك السيد أينما كنت ، ؛ ولما أحاط نفسه من جميع الجهات بعلامة الصليب اندفع كالأسد الذي حبس عن الأكل ثلاثة أيام أو أربعة وخرج من كهفه مبربرا ظامئا لدماء القطعان ، وكر لساعته وسط ميدان الوغى معملا القتل في هذه النعاج التي فرت هنا وهناك ، ثم صار وسط صفوف الترك واشتد في مطاردتهم ، حتى إن أضواء عليه كانت تبرق فوق رؤوسهم .

أما المقاتلون الآخرون فسرعان ما أمسكوا عن الارتداد حين رأوا علم بوهيمند يتقدم أعلام الآخرين ، وكروا جميعا كرة رجل واحد على الترك الذين فروا منذهلين ، فأخذ رجالنا في تعقبهم وإعمال القتل فيهم حتى بلغوا جسر الحديد ، إلا أن الترك سرعان ما عادوا إلى معسكرهم واستولوا على كل ما تمكنت أيديهم منه ، وحين تم لهم سلب جميع ما به أضرموا فيه النيران واثألوا هارين ، ولما علم الأرمن والسريريان أن الدائرة قد دارت على الترك خرجوا من قراهم ، وتربصوا لهم في الممرات فقتلوا وأهلسكوا عددا كبيرا منهم .

وهكذا شاءت إرادة الرب أن يهزم أعداؤنا في ذلك اليوم ، ومضى رجالنا فاستردوا الجياد وغيرها من الأشياء العدة التي أفادتهم كثيرا ، وحملوا إلى باب المدينة مائة رأس من القتلى حيث نصبت خيام رسل حاكم بابليون الوافدين على ساداتنا ، أما المحاربون الذين بقوا في المعسكر فقد شغلوا طول يومهم بقتال حامية أنطاكية أمام ثلاثة أبواب من أبواب المدينة ، وقد جرت

هذه الواقعة يوم الثلاثاء [٩ فبراير ١٠٩٨] السابق لبدء الصوم الكبير، كل ذلك برعاية سيدنا يسوع المسيح الذي ذهب وحكم مع الآب والروح القدس، له الحكم إلى الأبد. آمين.

حصار أنطاكية من ٩ فبراير إلى ٨ مارس ١٠٩٨.

الحملة على السويداء • تشييد حصن المحمرة.

١٨ — عاد رجالنا بفضل رعاية الله غالبين، واستبشروا بنصرهم الذي آتاهم إياه في ذلك اليوم، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ودأبوا على الهروب، فضلوا هنا وهناك، ومضى بعضهم إلى خراسان، وانطلق البعض إلى أرض المسلمين، ولما رأى زعمائنا أن حامية البلد آخذة في التفرش بنا والاقتراب منا فقد سهروا ليلهم ونهارهم باحثين عن الناحية التي قد يمكن تلك الحامية مباغتتنا منها، لذلك راحوا يتشاورون في الأمر وقالوا: « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودى بجماعتنا أن نبني حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر، ومن هناك ربما استطعنا بدورنا تضيق الخناق على عدونا ».

فوافق الجميع على هذا الرأي واستصوبوا المشروع استصوابا عظيما، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالمساعدة اللازمة لإعادة بناء هذا الحصن، وسأحصنه وأحميه »، فأجابه بوهيمند وإتي سأمضى معك — إذا قبلت وقبل الآخرون — إلى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على إنجاز هذا العمل [من أهل جنوة البحرين الذين قدموا يوم ١٧ نوفمبر ١٠٩٧] أما من يقفون هنا فسوف يعملون على تحصين جميع الجهات للدفاع عنه. وكان أن تم ما اتفقوا عليه.

عند ذلك رحل السكونت وبوهيمند إلى باب سمعان ، أما نحن الذين انضم بعضنا إلى بعض وصرنا جماعة واحدة فقد أخذنا نعمل في بناء الحصن ، وإذا بالترك قد استعدوا للخروج وقدموا علينا لمحاربتنا ، وكروا علينا كرة دفعت رجالنا إلى الهرب ، وقتل منهم الكثيرون مما سبب لنا جزعا عظيما .

ولما رأى الترك في اليوم التالي [٦ مارس ١٠٩٨] تغيب زعمائنا وعلووا أنهم خرجوا بالأس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا الصدم من كانوا قادمين من ناحية الميناء ، فلما أبصروا السكونت وبوهيمند على رأس هذه القوة صروا على أسنانهم واندفعوا من مجرى زجرة هائلة ، ثم أحدقوا برجالنا ينضحونهم بالنبال والسهم ، فخرحواهم وقتلوه في قسوة ، وهجموا على رجالنا هجوما عنيفا اضطروهم للفرار إلى الجبل الشاهق وإلى كل ناحية حسبوها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة إلا لمن تهيأ له الاختفاء بالهرب السريع ، أما من عجز عن الفرار فقد لاقى حتفه . واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من مشاتنا وفرساننا ، وفي إيماننا أنهم صعدوا إلى السماء حيث لبسوا أثياب الاستشهاد البيضاء .

أما وبوهيمند فلم يتبع نفس الطريق الذي ولجوه ، بل سرعان ما انقلب راجعا مع فريق من الفرسان إلى حيث كنا نحن مجتمعين ، واشتد بنا الغضب لمصرع رجالنا ، فهتفنا باسم المسيح ، مؤملين بلوغ الضريح المقدس . وضممنا صفوفنا إليهم ، واتفقنا على أن ننازل العدو وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فكان الترك يعتقدون أننا سنغلب على أمرنا وأنهم سيقضون علينا كما قضوا على قوات السكونت وبوهيمند . لكن الرب القوى لم يمكنهم من ذلك ، فقد هاجم جمعهم فرسان الآله الحق — المسلحون بعلامة الصليب — هجوما عنيفا دفعهم إلى الفرار عن طريق الجسر الضيق حتى بلغوا مدخل المدينة ، أما الذين أسعفهم الهرب بعبور الجسر أحياء وهم في حشد كثير من الرجال والخياد فقد لاقوا في هذه البقعة الموت ، وذهبوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته .

ولما تم لنا الظهور على الترك أخذنا في تضيق الحناق عليهم ودفعناهم شطر
النهر وألقيناهم به ، فاصطبغت أمواجه السريعة بدمانهم ، وكان أحدهم إذا شرع
في تسلق أعمدة الجسر أو حاول السباحة لبلوغ الأرض تناوشته سهام رجالنا
الذين كانوا يغطون شاطئ النهر ، ودوى الأفق بضجيج صيحاتهم وصياح
رجالنا حتى بلغ عنان السماء ، وانهل وابل من السهام والنبال حجب ضوء
النهار أن يلمحه الطرف ، وبرزت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار
يرقبن سوء منقلب الترك ، وكن يصفقن وهن في مخبأهن ، ونزل الأرمن
والسريان فأخذوا ينضحوننا بالنبال — طائعين أو كارهين — على أمر
زعماء الترك . وفي هذه الواقعة لاقى اثنا عشر أميرا من أمراء الترك حتفهم ،
كما قتل كثيرون من أفطن المحاربين وأشجع المقاتلين الذين كانوا
يعدون من خيرة المدافعين عن المدينة ، وقد بلغ عددهم ألفا وخمسة رجل ،
أما من بقوا أحياء فلم يعودوا يجرأون على التهليل أو الصراخ سواء بالليل أو
بالنهار كما جرت عاداتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم سوى مقدم الليل ، وهو الذي
منع الفريقين من المحاربة واستعمال الحراب والسيوف والسهام ، وبذلك
تمسكنا بقوة الرب والضريح المقدس من قهر أعدائنا الذين فقدوا ما كان لهم
من قبل من القدرة على الهتاف والعمل ، وفي هذا اليوم أصبنا كمية كبيرة من
الذخيرة النافعة لاسيما الجياد .

وفي اليوم التالي [٧ مارس] عند مستهل النهار غادرت المدينة فئة أخرى
من الترك وجمعت ما صادفته على شاطئ النهر من جيف قتلاها ، ثم أخذتها
وقبرتها في المحمرة الواقعة خلف الجسر أمام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه
الجثث جيبا وبنظيات وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الأشياء
التي لا نعرف لها أسماء ، ولما علم رجالنا أن الترك قد لحسوا موتاهم ، جمعوا
عدتهم وهبوا مهطعين مسرعين إلى تلك المقبرة الشيطانية ، وأمروا بتحطيم القبور
ونبشها وطرح الجثث بعيدا عن الأرض ، ورموا بها جميعا في خندق حفروه

لها ، كما حملوا الرؤس المقطوعة إلى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى ، هذا
عدا الرؤس التى وضعوها على أربعة جياذ من جياذ رسل خليفة مصر الفاطمى
وأرسلوها ناحية البحر ، فلما رأى الترك هذا المنظر ران على قلوبهم الحزن
المقيم ، وكانوا كل يوم يبكون قتلاهم ، ولم يعد لهم عمل سوى النحيب والعيويل .
وفى اليوم الثالث [أعنى يوم ٨ مارس ١٠٩٨] انضم بعضنا إلى بعض —
ونحن فى شدة الفرح — لبناء الحصن المشار إليه بالأحجار التى انتزعناها من
مقابر الترك ، ولم يكدهم بنائه حتى شرعنا فى التضييق من كل ناحية على
أعدائنا الذين تلاشى زهوهم ، أما نحن فقد ذهبنا فى غاية الطمأنينة إلى الميناء
وإلى الجبل نسبح ونحمد ربنا الذى له المجد والشرف إلى الأبد ، آمين .

— ٨ —

نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ مارس إلى ٣ يونيو ١٠٩٨)

تاكريد يحتل حصنا بحرى المدينة وبسد جميع المسالك على المحاصرين .
المفاوضات بين بوهيمند وفيروز . الاستيلاء على أنطاكية .

١٩ — أغلقنا جميع المخارج أمام الترك وسددناها عليهم ، وتركنا ناحية
النهر التى كان بها حصن واحد ودير منفرد ، ولو أننا كنا جهزنا هذا الحصن
بالقوة الكافية لما جرأ أحدهم على مغادرة أى باب من أبواب المدينة ولسدت
جميعها فى وجوههم ، واجتمع رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على
قولهم « لنختر واحدا منا للاستيلاء بالقوة على هذا الحصن ، وليحول بين
أعدائنا وبين بلوغ السهل والدنوم من الجبل ، وكذلك لسد كل السبيل المؤدية
إلى المدينة » ، فكان تنكريد أول من تقدم الآخرين وقال « إذا كنت أعرف
أية فائدة أجنيتها فإننى سوف أحتل الحصن مع رجالى وحدهم ، وسأدفع العدو
بعنف عن الطريق الذى كثيرا ما جرت عاداته على مداهمتنا منه » ، وفى الحال
أمدوه بأربعة قطع من الفضة .

رحل تنكريد مع فرمانه ومشاته الأبطال [يوم ٥ أبريل] ، وسرعان ما أخذ جميع السبل على الأتراك أخذاً قويا حتى إنهم — وقد أذهلهم الجزع — لم يجرؤوا على فتح أحد أبواب المدينة لجمع السكّال والخشب أو أية غلة من الغلات اللازمة لهم ، وبقى تنكريد هنالك مع رجاله ، وبدأ في محاصرة المدينة من جميع النواحي .

وفي اليوم ذاته أقبل من الجبال إلى المدينة فريق كبير من الأرمن والسرّيان وهم في غاية الاطمئنان ، حاملين الذخيرة إلى الترك ، والاقوات للمدينة ، فهب تنكريد لصدّهم وأسّره واستولى على جميع ما معهم من القمح والنبذ والشعير والزيت وأمّالها ، كذلك أظهر تنكريد غاية القوة وجأ بالعجائب ، ذلك أنه قبل سقوط أنطاكية سد جميع المخارج أمام الترك واحتلها . وإنه لمن المستحيل على أن أقص جميع ما فعلناه قبل استيلائنا على المدينة كما أنه لا يمكن لأحد ما يؤمن كانوا في تلك النواحي دينيين كانوا أو دنيويين أن يكتب أو يقص بالتام كيف سارت الأمور ، ومع ذلك فسأروى هنا الشيء القليل منها .

٢٠ — كان هناك قائد تركي الجنس اسمه فيروز ، قد توثقت بينه وبين بوهيمند عرى الصداقة المسكينة ، وطالما تبادلوا الرسائل فيما بينهما فرسخت المودة بينهما وأحله بوهيمند منزلة الود في نفسه ، ووعدته مقابل هذا أن يرحب به إذا هو اعتنق النصرانية ، وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوفرة . فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود وقال له « إنني أقوم بحراسة ثلاثة أبراج ، وإنني أعدك بها عن طيب خاطر ، وسأسلمك إياها يوم تشاء » .

انشرح صدر بوهيمند حين وثق من دخوله المدينة واعطأ أنت نفسه ، ثم دنا من السادة الآخرين ثابت الجنان مستبشرا وقال لهم : « أيها الفرسان الفطنون ، عليكم أن تبصروا المتربة والشقاء اللذين نحيا فيهما صغارا وكبارا ولا ندرى من أين تأتينا النجدة ، ومن ثم فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يقوم

أحدنا فيتقدمنا جميعا عسى أن تساعدنا إحدى الوسائل أو يمكنه منه [الحرابي] من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمعرفة الآخرين ، وحينئذ نجمع الرأي على تملكه إياها ، غير أن هؤلاء السادة لم يقبلوا عرضه وخالفوه بقولهم له : « لن نقبل أن ينفرد واحدنا وحده دون الآخرين بامتلاك هذه المدينة ، بل سنقا بلهم جميعا فيما بيننا بالتساوى ، ولما كنا جميعا قد ساهمنا في هذا العمل فلا بد من أن نتقاسم شرف الاستيلاء عليها » ، فلما سمع بوهيمند هذه الكلمات افترت شفتاه عن بسمة خفيفة وانصرف لساعته . ولم نلبث غير قليل حتى تلقينا أنباء اقتراب جيش أعدائنا الترك والرعاع والأرمن وغيرهم من الشعوب ، وسرعان ما اجتمع زعمائنا وتشاوروا فيما بينهم قائلين : « إذا قدر لبوهيمند التغلب على المدينة وحده أو بمعونة الآخرين فعلينا أن نوليه إياها عن طيب خاطر ، على أنه إذا قدم الإمبراطور لنجدتنا حسب الاتفاق الذى أبرمناه معنا وأقسم لنا عليه ، فإننا سنرد إليه المدينة بمقتضى العهد ، ولو كانت فى حوزة بوهيمند نفسه » .

حينئذ شرع بوهيمند فى ملاحقة صديقه بطلباته اليومية ، مغريا إياه بكل ضروب الرعاية والسكسب الجزيل ، قائلا له : « لقد دنت اللحظة الملائمة التى تستطيع فيها إتمام ما اعتزمنا عليه ، وذلك بأن تقوم يا صديق فيروز بالمساعدة التى وعدتني بها » ، وسر فيروز وصرح بأنه سيعاونه بما ينبغى عليه .

وفى الليلة التالية [ليلة ٢ — ٣ يونيو] بعث فيروز ابنه إلى بوهيمند ليكون رهينة عنده تأكيدا له على أنه مدخله البلد ، وأنفذ معه هذه الرسالة « عليك أن تستدعى غدا كل جيش الفرنجة ، وأن تتظاهر بالذهاب إلى المنطقة التى يسكنها المسلمون لتخريبها ، ثم تنسكف على عجل عبر الجبل القائم على اليمين ، أما أنا فسأعنى بمراقبة هذه القوات وسأنتظرها وأتلقاها فى الأبراج التى فى حوزتى وتحت إشرافى ،

وفى الحال استقدم بوهيمند أحد مشاته واسمه مال كرون Male Coronus

وطلب إليه كداعية للحرب أن يدعو جيش الفرنجة العظيم للتأهب لدخول أرض المسلمين ، وكان أن تم له ما أراد ، وعهد بوهيمند بتنفيذ هذه الخطة إلى الدوق جودفروي وكونت فلاندر وكذلك كونت سنجيل وأسقف بوى قائلا لهم « ستستسلم أنطاكية الليلة إذا لاحظتنا عناية الرب » .

ولقد تم كل شيء كالاتى : فقد تجمع الفرسان فى السهل ، وأقام على الجبل جماعة المشاة الذين دأبوا على السير طوال الليل بعضهم فى أثر بعض حتى تنفس الفجر ، ثم اقتربوا من الأبراج التى ظل حارسها يغط فى نومه طيلة ليله ، فترجل بوهيمند وأصدر تعاليمه إلى جميع من معه قائلا لهم : « امضوا قدما مطمئنين متحدين ، واصعدوا بالسلم إلى أنطاكية التى ستكون سريعا إن شاء الله فى يدينا . فظلوا سائرين حتى بلغوا السلم المنصوب المثبت تثبيتا قويا إلى أسوار المدينة ، فارتقاه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وانبشوا بين الأبراج التى يشرف عليها فيروز ، الذى دب الخوف إليه وخشى على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع بين يدى الترك ، وذلك حين أبصر الصاعدين هنا لا يعدون أن يكونوا ثلة ضئيلة ، فصاح بهم « ما أقل الفرنجة ! أين إذن بوهيمند الشجاع ؟ أين هذا الذى لا يقهر ؟ » وفى هذه اللحظة بالذات نزل سرجند لمباردى واندفع إلى بوهيمند قائلا له : « ماذا تفعل هنا أيها الرجل الفطن ؟ وما الذى دعاك للقدوم إلى هنا ؟ ، أما ترانا قد كدنا أن نستولى على ثلاثة أبراج ! » فأثارته هذه الكلمات ، فانضم إلى الآخرين ووصل الجميع مستبشرين إلى السلم .

ما كاد الذين بالأبراج يلهجون هذا المنظر حتى تعالى هتافهم وهم فى نشوة وسرور قائلين « هكذا أراد الله » ، وصحنا نحن نفس الصيحة ، وعندئذ بدأ التسلق العجيب ، ثم بلغوا القمة وأخذوا يكرّون على الأبراج الأخرى وهم يقتلون كل من يعثرون عليه ، فكان من القتلى أيضا أخو فيروز ، غير أن السلم الذى صعدنا عليه تحطم ، مما أحزننا وأوقعنا فى كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطم السلم إلا أنه كان يوجد على يسارنا باب مغلق لا يدرى أحد عنه شيئا ، فلما

أقبل الليل أخذنا نتحسس هذا الباب في الظلام ، وأفضى بنا البحث عنه إلى العثور عليه ، فتسابقنا جميعاً نحوه وحطمناه ودخلنا المدينة منه ، وفي هذه اللحظة بالذات دوت صيحة مجالجلة في جميع أرجاء المدينة ، فلم يضع بوهيمند أية دقيقة بل أمر برفع رايتيه المجيدة على رابية مواجهة للقلعة ، وعندما تنفس الصباح ترمى الخبر الخطير الذي أرجفت به المدينة إلى من كانوا لا يزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، ورأوا راية بوهيمند تخفق على أحد المرتفعات ، وسرعان ما كروا مسرعين ودخلوا المدينة من أبوابها ، وقتلوا من صادفوه بها من الأتراك والمسلمين ، ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار إلى القلعة المرتفعة . وخرج جماعة آخرون من الترك من الأبواب ورأوا سلامتهم في الهروب .

أما رئيسهم ياغي سيان فقد هرب هو الآخر مع كثيرين ممن تبعوه ، وأدى بهم الهرب إلى دخول منطقة تسكريد ولم تكن بعيدة عن المدينة ، ونظراً لتعب جيادهم فقد انكفأوا إلى إحدى الدساكر واعتصموا ببית من بيوتها ، ولم يلبث سكانها الأرمن والسريان أن عرفوا خبرهم ، وسرعان ما قبضوا على ياغي سيان ، وأطاحوا رأسه وحملوها إلى بوهيمند ، لينالوا حريتهم وبيع نجاهه وقراب سيفه بستين بيزنطية .

وقد جرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من يونيو أى خامس أيام البطالة ، وامتلات جميع شعاب المدينة ومساكنها بالجثث ، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظراً للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن أحد منا من السير في الشوارع إلا على جثث الموتى .

حصار الترك لأنطاكية

من ٥ إلى ٢٨ يونيو سنة ١٠٩٨

وصول أم كربوغا أنطاكية . رسالته للخليفة عن الجيش المسيحي . موقف
أم كربوغا وميلها للنصارى . هجوم كربوغا على أنطاكية . قصة
الحلم . عين الزعماء الصليبيين . رؤية بطرس بارتلمى . حريق
أنطاكية والمجاعة فيها . هروب اتين دى بلوا واتصاله
بالإمبراطور . العثور على الحربة المقدسة . سفارة
بطرس الناسك وهرلوان إلى المعسكر
الإسلامي . انتصار الصليبيين .

٢١ — كان كربوغا زعيم جند فارس لا يزال في خراسان حين تلقى من ياغى
سيان حاكم أنطاكية كثيراً من الرسائل يلح عليه فيها أن يسادر لإيقاضه ، لأن
محاصرة الفرنجة الأقوياء إياه بأنطاكية أنزلت به شر البوائق ، ولو أن كربوغا
أنفذ إليه فريقاً لتجديده لأسلحه ياغى سيان مدينة أنطاكية ، أو لما كان أقل من
أن يمنحه منحة عظيمة . وكان كربوغا قد استعد للأمر منذ زمن بعيد ، فجمع
جيشاً كبيراً من الترك ما لبث أن زحف به على أنطاكية حيث أذن له الخليفة
— زعيمه الروحي — بمحاربة النصارى . وجاء حاكم بيت المقدس بجيشه
لمساعدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر بجند كثيفين ، وجمع كربوغا جموعاً
غفيرة جداً من الوثنيين والترك والعرب والشرقيين والرعاع والأرمن والكرد
والفرس والغلبان وغيرها من الأجناس الأخرى التي لا حصر لها ، أما
الغلبان فكانوا ثلاثمائة ألف رجل ، وكانوا في منعة من الرماح والقسي
وسواها من الأسلحة للبسهم الحديد هم وجيادهم ، هذا إلى ما طمَّسوا عليه
من الاقتصار في الحرب على جمل السيوف من بين مختلف أنواع السلاح ؛
وقدم الجميع لمحاصرة أنطاكية ، قاصدين تبديد شمل جيش الفرنجة .

ولما صاروا على مقربة من المدينة قابلوا شمس الدولة بن ياغي سيان أمير أنطاكية ، فجرى إلى كربوغا متوسلاً إليه باكياً ، مخاطباً إياه بقوله : « أيها الأمير الذي لا يُقهر ، أتوسل إليك أن تقدم لنجدتي لأن الفرنجة أهدقوا بي — وأنا في قلعة أنطاكية — من جميع الجهات ، وقد أصبحت المدينة في قبضة أيديهم ، وهم يريدون إخراجنا من أرض سلاجقة الروم ومن الشام بل ومن خراسان ذاتها ، وقد أنجزوا ما أرادوا فقتلوا أبي ، ولا هم لهم غير القضاء علىّ وعليك وعلى جميع أبناء جنسنا ؛ أما أنا فلا أرقب غير عونك ومساعدتك إياي في هذا المأزق » .

فأجابه كربوغا : « لاسبيل إلى نجدتي إياك بنفس خالصة ، والعمل صادقاً على إنقاذك من هذا الخطر إلا بتسليمي قلعة [أنطاكية] وجعلها في يد رجالى ، وإذ ذاك سترى مقدار الصنيع الذى أؤديه لك » .

فأجابه شمس الدولة : « إذا استطعت القضاء على جميع الفرنجة وأسلمتني رؤوسهم فسوف أعطيك القلعة وأغدو تابعاً لك ، وحينذاك أعد هذه القلعة من أملاكك » .

غير أن كربوغا قال له : « كلا ، ليس الأمر كما تقول ، بل كل شيء مرهون بوجوب تسليمك إياي القلعة » . فأسلمه شمس الدولة القلعة راضياً أو كارها .

وفي اليوم الثالث من دخولنا المدينة [وهو يوم ٥ يونيو] صارت ريشتهم تحت الأسوار ، وعسكر جيشهم عند جسر الحديد ، وهجموا على أحد الأبراج [القائمة عند مدخل الجسر لحمايته] وقتلوا كل من وجدوه فيه ، ولم ينج واحد منهم من الموت غير زعيمهم الذى وجدناه مقيداً بالسلاسل عقب الموقعة العظمى [التى انتصر فيها كربوغا يوم ٢٨ يونيو] .

وفي اليوم التالى [٦ يونيو] تحرك الجيش الوثقى واقترب من المدينة ، وضرب معسكره بين النهرين ، ولبث هناك مدى يومين ، فلما تسلم كربوغا القلعة دعى

إليه قائدا من قواده يقدر فيه الإخلاص والطيبة والهدوء وقال له : « أريد منك أن تكون وفيا لى فى حراسة هذه القلعة ، لأننى أعرف منذ أمد بعيد قدر وفائك ، وإننى لموكل بإياها إليك للعناية بها والمحافظة عليها ، فأجابه القائد « وددت لو أعفيتنى من هذا الأمر ، ومع ذلك فإننى أقبله على شرط واحد ، هو أن أبادر إلى تسليم القلعة للفرنجية لو انتصروا عليك فى وقعة فاصلة ، فأجابه كربوغا « إننى أعرف تمام المعرفة صدقك وحكمتك فى قبول كل ما ستقسم لى على حسن القيام به . » .

عاد كربوغا إلى جيشه ، وأراد الترك أن يسخروا من الفرنجية ، فجاءوا إليه بسيف رخيص قد علاه الصدأ ، وبقوس مسود ، وبجربة لم تعد صالحة صالحة للاستعمال أخذوها من جماعة من الحجاج الفقراء ، وقالوا له : « هذه هى الأسلحة التى يحملها الفرنجية فى محاربتهم إيانا » ، فابتسم كربوغا وقال لهم : « أهذه هى الأسلحة القوية المشحودة التى يرمى النصارى إلى التغلب بها علينا فى آسيا ، والتى يعتقدون أنهم متمكنون بواسطتها من طردنا إلى ما وراء خراسان وإزالتنا عن تلك الناحية حتى أنهار الأمازون^(١) ، أولئك النصارى الذين طردوا إخواننا من آسيا الصغرى ومن أنطاكية : تلك المدينة الملكية والعاصمة العظمى لجميع بلدان الشام ! »

وبادر فبعث فى طلب كاتبه وقال له « اكتب جميع المراسيم التى ستقرأ فى خراسان وقل فيها : إلى خليفتنا المعظم ، وإلى مولانا الملك الجليل ، الفارس المصلات ، وإلى جميع فرسان خراسان الحكماء ، السلام عليكم ، والتوقيع لكم ، وبعد فليتهيا لهم من السعادة والتوفيق الطيب ما يتبع لهم ملا بطونهم والوعظ فى جميع المناطق والانكباب على حميتهم ومتاعهم ، وإنجاب الذرية الضخمة القادرة على قتال النصارى بشجاعة ، وأخذ هذه الجيوش الثلاثة التى استطعنا

(١) جاء فى النص اللاتينى للعوليات قوله *et delere omnia nomina nostra ultra Amaziona flumine* وهو نص غريب ليس له سند جغرافى .

بها قهر فريق من الفرنجة ، والذين يعلمون صفة السلاح الذي يصطنعه الشعب الفرنجى لغزونا ، وليعلم الجميع كذلك أننى أسرت الفرنجة الموجودين داخل أنطاكية ، وأننى احتللت القلعة وصارت فى يدي ، بينما هم موجودون بظاهر المدينة ، وأنهم الآن جميعا فى قبضة يدي ، وسيساقون إلى الموت أو إلى الأسر فى خراسان ، لأنهم يتوعدوننا بالطرد على يد جيوشهم وبالنفي خارج بلادنا كما استطاعوا نفي أبناء جنسنا من آسيا الصغرى والشام ، وإننى لأقسم لكم بمحمد وبجميع أربابنا^(١) أننى لن أظهر بحضرتكم ، وأمثل أمامكم ، قبل أن أغزو بحد سيفى القوى مدينة أنطاكية الملوكية وجميع بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلغاريا حتى إقليم أبوليا ، والمجد لأهمتنا ولكم ولجميع الجنس التركى . وهكذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ — أما والددة كربوغا التى كانت مقيمة فى مدينة حلب فقد قدمت على ولدها واستخرطت فى البكاء بين يديه وسألته « يا ولدى : أحقا ما سمعته ؟ » فقال لها « وماذا سمعت ؟ » قالت « علمت أنك ماض لمحاربة جيش الفرنجة . » فأجابها « لقد علمت الواقع ! » فقالت له « استحلفك يا بنى بجميع الأرباب ، وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذى لا يعرف الهزيمة ، لم يرك أحد قط هاربا أمام أى فاتح ، ولقد طبق الآفاق خبر فروسيتك ، كما أن أبسل الفرسان ليرتجفون أنى كانوا حين يسمعون اسمك ينطق أمامهم ، ونحن نعرف جيدا يا بنى أنك أخو غمرات ومردى حرب ، عركت الحروب وألممت بفنونها ، ولن تستطيع أية أمة — مسيحية كانت أم وثنية — أن تزهو بقوتها فى وجهك ، بل يهرب الجميع إذا ذكر اسمك كما تهرب النعاج أمام زئير الأسد ، وهذه الأسباب أتوسل إليك يا ولدى

(١) هذه رسالة تمخض عنها خيال كاتب الحوليات والخطأ فيها بين ، مما يدل أيضا على جهله المطبق بالدين الإسلامى .

الحبيب أن تستمع إلى نصائحي وألا تحاول مطلقا التفكير في قتال الأمة المسيحية أو الشروع في منازلتها .

فلما سمع كربوغا هذه النصائح الأموية أجابها حانقا « ماذا تقولين يا أماء ؟ وما الذى تحكين ؟ أتراك مجنونة أم مستك لوثة ؟ إن معى كثيرا من الأمراء الذين لا يتوفر مثلهم للمسيحيين : صغارا كانوا أم كبارا » ، فأجابته أمه « يا بنى العزيز : إن النصارى لا يستطيعون الوقوف أمامك فى الحرب ، وأعرف أنهم عاجزون عن النهوض لقتالنا ، إلا أن ربههم يحارب دائما فى صفوفهم ، كما أنه يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا حماية الراعى لقطيعه ، ولا يرضى لأمة ما أن تسمهم بأذى سوء أو شقوة ، وإن إلههم ليؤذى كل متطلع لمقاومتهم مصداقا لما جاء على لسان داود النبي « نشقت الشعوب الذين يسرون للقتال » ، وقوله « أفض رجلك على الأمم الذين لا يعرفونك ، وعلى الممالك التى لم تدع باسمك » ، بل قبل أن يتهياوا للقتال ترى إلههم القوى الذى لا يقهر قد قضى على جميع أعدائهم بواسطة ملائكته ، وأعرف الحقيقة يا ولدى العزيز وهى أن أولئك النصارى يسمون بأبناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسول « إنهم أولاد الموعد » ، وقال الرسول أيضا « إنهم ورثة الله ووارثون مع المسيح » وهم الذين منحهم الرب الميراث الذى وعدهم إياه ، لأنه قال ذلك على لسان أنبيائه . فمن ذا الذى يستطيع معارضة هذه الأقوال أو مناهضتها ؟ والواقع أنك إذا بدأت بحربهم بؤت بالخسارة والعار المقيم ، وستفقد كثيرين من فرسانك المخلصين ، وتخلف وراءك كل غنيمتك ، بينما يلاحقك الفرع الشديد ، اجل ، إنك لن تموت فى هذه الموقعة ، بل فى بحر السنة ، ذلك لأن الرب فى غضبه لا يدين فوراً من أساء إليه بل يؤجل حسابه إلى اللحظة التى يشاؤها هو ذاته ، فينتقم منك أفضع انتقام ، ولهذا السبب أخشى أن يراك مستحقا العذاب الشديد ، لكننى أقول لك إنك ستفقد كل ما تملكه الآن يداك . »

تأثر كربوغا غاية التأثير بما سمع ، وأجاب أمه على عبارتها قائلاً : « يا أمي الغالية أتوسل إليك أن تقولي من الذي قال لك كل هذا القول عن الشعب المسيحي ؟ ومن أنباك أن ربه يحبه إلى تلك المرتبة حتى ليمده بمثل هذه القوة في القتال ؟ ومن ذا الذي حمل إليك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية ، وأنهم سيستولون على غنائمنا ويمضون في آثارنا عقب نصرهم المؤزر علينا ، ومن قال لك إن المنية ستخترمني في سنتي هذه ؟ »

فقالت له أمه والحزن يمحضا مضاً « يا بني العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابات الوثنيين أن الأئمة المسيحية ستهاجمنا وسيعقد لها النصر علينا في كل ناحية ، وأنها ستسود الوثنيين ، وأن شعبنا سيخضع لها ولكنني لست أدري عما إذا كان مقدراً لجميع هذه الحوادث أن تحدث الآن أم لم يحزن زمنها بعد ، ، وإني سأتبعك — والأسى يرمضني — من حلب : تلك المدينة العظيمة التي استطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة من مطالعة النجوم ومساءلة الكواكب والبروج الإثني عشر والتنبؤات العدة ، فأنبأتني كل هذه الظواهر أن الشعب المسيحي سيقهرنا أنى كنا ، وإني لأضطرب فزعاً وحزناً مخافة أن أحرم منك ! »

فأجابها كربوغا « يا أمي الغالية ، أفضى إلى بكل ما يأنى قلبي أن يؤمن به ، فقالت له أمه « ما كان لي إلا أن ألبى ذلك الطلب عن طيب خاطر يا ولدي الحبيب لو كنت أعرف الأمور الخافية عليك ، ، فقال لها « إن بوهيمند وتانكريد ليسا آلهة الفرنجة ، ولا يخلصانهم من أعدائهم لأنهما يأكلان في المرة الواحدة ألفي بقرة وأربعة آلاف حنزير (١) » ، فقالت له أمه « يا بني

(١) النص اللاتيني لهذه الترجمة هو : « Non sunt igitur Boamundus et Tancredus Francorum dii et non eos liberant de inimicis suis et quod ipsi manducant in uno quoque prandio II milia vaccas et IV milia porcos » وقد علق الأسناذ برييه على هذا في ترجمته الفرنسية بقوله « إن في هذه الفكرة الماخرة عموضاً » ولكن المتأمل للمعادثة بأكملها يرى مقدار ما أعمله خيال صاحب الحوليات في هذا الحديث الخرافي .

العزیز إن الموت جائز علی بوهیمند وتانسکرید جوازہ علی سائر البشر ، إلا أن ربہما فضلہما علی غیرہما ومنحہما قوۃ یحاربان بہا الجمیع ، ولأن ربہم الرحمن — تقدس اسمہ — یقول « إنه صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فیہا وإن عرشہ موجود فی السماء منذ الأزل ، وبأسہ مرہوب فی كل مكان ، فأجابہا ابنہا « لن أكف عن قتالہم حتی ولو كان الأمر كما تزعمین » . فلما أدركت أمہ أنه غیر مستجیب لتبکیثہا الشدید إیاءہ ، انصرفت عنه وقلبہا یقطر حزنا ، وانكفأت راجعة إلى حلب ، حاملة معها كل ما استطاعت حملة من الغنیمۃ .

٢٣ — وفي الیوم الثالث [وكان یوم ٨ یونیو] لبس كربوغا لامة الحرب ودفی من المدینة فی ثلۃ کشفۃ من الترك ، وجاءوها من الناحیة الی تقوم فیہا القلعة ، ولما كننا نظن أن فی إمكاننا دفعہم فقد تهبأنا لمحاربتہم ، إلا أنهم أبدوا بأسا شدیداً عجزنا حیالہ عن مقاوتہم ، وبذلنا الجهد الجہید حتی استطعنا العودۃ إلى المدینة الی كان بابہا شدید الضیق ، حتی لقد مات الکثیرون مخنوقین تحت أقدام رفاقہم .

وفي خامس آیام العطلة كان البعض یحارب خارج المدینة والبعض الآخر داخلہا ، وظلوا علی تلك الحال طول یومہم هذا حتی تلفع السكون بالظلام ؛ وفي هذه الأثناء استولى الفزع من معركة البارحة الی دامت حتی الغسق علی نفس ولیم دی جراند میل وأخیہ أبری ، وجی تروسو ، ولا مبرت الفقیر [کونت کلیر مونت] ، ففسر بلوا بالظلام وانسلوا تحت جنح الدجی ہاربین مصاقبین للسور الموازی لسیف البحر ، حتی لقد عرقت أیدیہم وأقدامہم فلم یبق منها سوى العظام ، وصاحبہم فی فرارہم هذا کثیرون لا أعرفہم ، فلما بلغوا السفن الراسیۃ فی میناء سمعان قالوا للملاحیہا « ما تفعلون هنا آیہا التعساء ؟ لقد قتل رجالنا جمیعہم ولم تکن نجاتنا نحن إلا بعد عسر شدید ، وذلك لأن

الجيش التركى حاصر المدينة من جميع نواحيها ونحن بها . فلما سمعوا هذا القول اعتراهم الذهول ، ثم مالبت الفرع أن استبد بهم فانطلقوا إلى سفنهم وأنزلوها فى البحر ، فهب الترك فى آثارهم وقتلوا كل من عثروا عليه منهم ، ثم أضرموا النار فى المراكب الراسية فى مجرى النهر واستولوا على أسلابهم . أما نحن الذين بقينا [فى المدينة] فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم ، وأقننا بيننا وبينهم سدا تناوبنا حراسته ليلا ونهاراً ، وفى هذه اللحظة بالذات بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطررنا لأكل خيولنا وحميرنا .

٢٤— وفى ذات يوم من الأيام كان زعمائنا مجتمعين فى أعلا المدينة أمام القلعة وهم فى غاية الحزن ، حين مثل أمامهم أحد القسس قائلاً لهم : « أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا إلى ما رأيته فى الحلم ؟ بينما كنت الليلة نائماً فى كنيسة القديسة مريم والدة سيدنا يسوع المسيح إذ ظهر لى مخلص العالم ومعه أمه وبطرس الطوباوى سيد الحواريين ، واقترب منى قائلاً : أو تعرفنى ؟ قلت : كلا ! وحينذاك رأيت صليبا كاملاً على رأسه ، فسألنى السيد ثانية : أو عرفتنى الآن ؟ فقلت له : « ما كان لى أن أعرفك لو لم أر على رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال لى : « إئتى هو بعينه » ، وفى الحال ركعت على قدميه متذللاً متوسلاً إليه أن ينقذنا مما ألم بنا من الكوارث ، فأجابنى السيد : « لقد ساعدتك ، وإئتى ماض لمعوتك ، كما مكنتكم من الاستيلاء على نيقية ، وأخذت بقيادكم حتى وصلتم ها هنا ، وتأملت للشقة التى كابدتموها أثناء حصار أنطاكية ، وقد استطعتم بفضل مساعدتى إياكم من دخول المدينة سالمين آمنين ، بيد أنكم زنيتم مع نساء فاسدات من النصرانيات والوثنيات ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء » .

وحينذاك ركعت العذراء المقدسة وبطرس الطوباوى على قدميه مستعطفين متوسلين إليه أن يعين شعبه فى محنته هذه التى ألمت به ، وقال له بطرس المبارك : « ياسيد ، لقد طال احتلال الشعب الوثنى لبيتى الذى لقى من جراء هذا الأمر

مساوىء يعجز اللسان عن وصفها ، والآن فلنطرد الأعداء أيها السيد ، ولتفرح الملائكة في سماواتها ، ؛ فقال لى السيد : « اذهب وقل لشعبى أن ارجع لى وسأعود إليه ، ودونه خمسة أيام سأبعث إليه بعدها نجدة عظمتى ، ومره أن يرتل كل يوم هذه التسيبحة « هو ذا الملوك اجتمعوا » (١) . والآن أيها السادة إذا خالجم الشك فى حقيقة ما أقول فأذنوا لى باعتلاء هذا السور وطرح نفسى يبدى فى أسفله ، فإن سلمت فأمنوا بما قلت وإن مسنى سوء ما فاقتلونى أو اجعلونى طعمة للنار . »

حينذاك أمر اسقف پوى بإحضار الأناجيل والصليب ليقسم ذلك القسيس على صدق ما قال ، وفى تلك الساعة اتفق زعمائنا أن يقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم حيا أن يفر أو يهرب من الموت أو يحاول إنقاذ حياته ، ويقال إن بوهيمند كان أول من أقسم ثم تلاه كونت صنجيل فروبرت الترمندى فالدوق جودفروى فيكونت فلاندر ، أما تانكريد فقد أقسم بأنه لن يتنحى أبدا فى هذه الحرب أو يتخلى عن السير فى طريق الضريح المقدس حتى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارساً . فلما تنامى خبر هذه اليمين إلى الجيش المسيحى دبّت الفرحة بين رجاله جميعاً .

٢٥ — وكان هناك حاج من جيشنا اسمه « بطرس » ، تراءى له القديس أنداروس الرسول قبل دخولنا المدينة ، وقال له « ماذا تفعل أيها الصنديد ، فأجابه « وأنت ؟ من أنت ؟ » فقال له الرسول « إتنى الحوارى أندراوس ، اسمع يا بنى : حين تدخل المدينة عرج على كنيسة القديس بطرس وستجد بها الحربة التى طعن بها مخاضنا يسوع المسيح حين رفع على الصليب . ثم اختفى الرسول بعد أن فرغ من هذه العبارة .

ولما كان هذا الرجل [بطرس] خائفاً من الجهر بما أشار به الحوارى

عليه فقد أمسك عن مصارحة حجاجنا بذلك القول ، وظن ان ماجرى ليس سوى أضغاث أحلام ، وقال « ياسيدى ترى من يستطيع الإيمان بها ؟ » وفى هذه اللحظة بالذات أخذ القديس أندراوس وسار به شطر الناحية التى كانت الحربة مضمورة فيها تحت الأرض .

وفى اللحظة التى كنا موجودين فيها فى الموقف الذى ذكرته آنفا [حين كان كربوغا محاصراً للصليبيين] ، عاد القديس أندراوس إلى بطرس وقال له : « لماذا لم ترفع الحربة من جوف الأرض كما أشرت عليك ؟ ألا فاعلم أن لن يغلب قط قوم يحملون هذه الحربة معهم فى القتال » .

وفى الحال أفضى بطرس إلى رجالنا بالسر الذى استودعه إياه الرسول الحوارى ، فلم يؤمن القوم بما قال بل أنكروه قائلين له : « كيف نعتقد بصحة هذا القول ؟ » ، والواقع أن الخوف كان مستولياً على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى ، فذهب بطرس إليهم وأقسم لهم أنه صادق فى كل ما قال ، وأن القديس أندراوس تبدى له مرتين وقال له « إنهض وامض إلى شعب الرب وقل له ألا يخشى شيئاً ، بل عليه أن يؤمن إيماناً صادقاً من كل قلبه بإله حقيقى واحد ، وأنه سينتصر فى كل مكان ، وأن السيد سوف يبعث إليه فى الأيام الخمسة التالية برسالة تملؤه فرحاً ونشوة ، وإذا أراد المحاربة فعليه أن يخرج بآجمعه متحداً إلى القتال ، وسيظهر على جميع أعدائه الذين لن تقوم لهم بعد ذلك أبداً قائمة ضده » . فلها سمعوا بأن القضاء التام على عدوهم سيكون على أيديهم تنفسوا الصعداء وأخذ بعضهم يشجع البعض الآخر قائلاً : « هبوا وكونوا شجعاناً فظاء ، لأن الرب سيمارد حالاً لمعونتنا ، وستكون التعزية لشعبه الذى يرى الآن ماهو فيه من كرب » .

٣٦ — أما الترك الذين كانوا موجودين فى أعلا القلعة فقد أخذوا فى التقدم حتى صاروا على مقربة منا ، وفى ذات يوم نجحوا فى محاصرة ثلاثة من

فرساننا في برج وافع قبالة قلعتهم ، والواقع أن الوثنيين قد وجدوا مخرجاً لهم وطاردوهم بعنف شديد لم يستطيعوا حياله الصبر على مجالدهم ، وخرج من البرج فارسان طعينان ، أما الثالث فقد استبسل في الدفاع عن نفسه ضد هجوم الترك عليه مدة يوم كامل ، فصرع في اليوم ذاته اثنين منهم أمام السور بعد أن تحطمت الحراب ، إذ انكسرت بين يديه في ذلك اليوم ثلاث حراب ، ولقي الرجلان مصرعهما ، أما اسم هذا [الفارس] فهو هيج الثائر ، وكان من جماعة جودفروى دى مونت سكيوبوزو .

فلما رأى بوهيمند الموقر أنه من المستحيل عليه أن يجرد رجالاً لمهاجمة القلعة لوجود الجميع في بيوتهم من أثر المجاعة والخوف من الترك ، اشتد به الغضب ، وأمر بإحراق المدينة من الناحية القائم بها قصر ياغى سيان ، فلما تراءى هذا المنظر للجماعة التي كانت بالمدينة غادرت مساكنها وخلفت كل ماتملك ، وفر فريق ناحية الحصن ، وغيره إلى باب كونت هنجيل ، وفريق ثالث إلى باب جودفروى ، أى أن كل فريق هرب شطر الجماعة التي ينتسب إليها .

وفي هذه اللحظة هبت ريح عاصفة لم يستطع أحد ما حيالها أن ينتصب واقفاً ، وحزن بوهيمند العاقل حزناً شديداً جزعاً من أن يمتد الحريق إلى كنيسة القديس بطرس والقديسة مريم وغيرهما من الكنائس ، واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النار على ألقى بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ؛ ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون متاعب فوق هذه المتاعب ، نظراً لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ولا بشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا حائطاً من الجير والكلس بينهم وبين الترك ، وشيدوا حصناً جهزوه بالآلات المختلفة لضمان

طمانينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد أقام في معسكراته في واد قريب من القلعة .

ولما أقبل الليل لاحت في السماء نار مقبلة من الغرب ، حتى إذا دنت سقطت وسط الجيش التركي ، فاستولى الذهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فلما تبأج الصباح فر الترك المذعورون جزعا من هذه الظاهرة العلوية ، حتى إذا بلغوا باب بوهيمنند نصبوا عنده معسكرهم ؛ أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهاراً ، وجعلتهم ما بين جريح وقتيل ؛ أما بقية التركان فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها ، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف .

أخذ أولئك الدنسون أعداء الرب في تضيق الحصار علينا ونحن داخل أنطاكية حتى لقد مات الكثيرون منا جوعاً ، وحتى كان الرغيف الصغير يباع ببيزنطية ، ولا حاجة للكلام عن النبيذ ، فكان الفرنجة يأكلون لحوم الخيل والحير ويتبايعونها ، وكانت الدجاجة تباع بخمس وعشرين سوسية ، والبيضة بسوستين ، والجوزة بدنيشة ، وبذلك كان كل شيء يباع بثمان يفوق الوصف ، ومن ثم عمت المجاعة واشتد هولها ، حتى لقد كان البعض يقيم المطابخ يقدم فيها إلى القوم أوراق التين والعنب والحسك ، وأقام البعض الآخرون المطابخ يطهون فيها جلود الجياد والجمال والثيران والجاموس اليابسة ؛ ولقد تكبدنا كل ذلك الهم وتلك الشدة وأمثالها التي يستحيل وصفها في سبيل اسم المسيح ، ولكي نفتتح الطريق إلى الضريح المقدس ونجعله حراً ، وهذه هي المحن والخاوف التي كنا فريسة لها مدة ستة وعشرين يوما .

انتخبه كبراً ونا رئيساً أعظم لهم ، فتظاهر بالمرض قبل الاستيلاء على أنطاكية ،
وارتد خزيانا يجلله العار إلى مدينة أخرى حصينة تسمى بالإسكندرونة ،
ورحنا ننتظر كل يوم مجيئه لمساعدتنا ، ونحن كما نحن داخل المدينة ، دون أية
معوثة تخلصنا مما نحن فيه .

أما هو فما كاد يعلم بأن جيش الترك محقق بنا ومحاصر إيانا حتى تسلل
وصعد في جبل قريب مجاور لأنطاكية ، وشاهد الخيم التي لا يحصيها العد ،
وإذ ذاك استبد به الفزع الشديد ، وارتد هارباً بجنده على جناح السرعة ،
حتى إذا رجع إلى معسكره رحل برجاله وبادر فولى الإدبار .

ولما دخل على الإمبراطور في « إكسشهر » ، سأله الانفراد به وقال له :
« أعلم أن قد تم استيلاء الترك على أنطاكية ، أما القلعة فلم تقع في أيديهم بعد ،
كما أن رجالنا عانوا شدة الحصار ، والأرجح أنهم لا قوا الموت جميعاً على
أيدى الترك ، وعليك أن ترجع بأسرع ما يمكنك حتى لا تقع في أيديهم أنت
وجندك الذين معك » .

وحينذاك جزع الإمبراطور جزعاً شديداً ، واستقدم سراً « جي » ، أخا
« بوهيمند » وجماعة غيره وقال لهم : « أيها السادة ، ترى ما الذي نحن فاعلوه ؟
هؤلاء جميع رجالنا قد ضيق الترك عليهم الحصار ، وربما يكونون قد قتلوهم
في لحظتنا هذه أو أخذوهم أسرى كما يذكر لنا هذا السكونت الشقي الخزيان ،
فعلينا أن نبادر بالتقهقر إذا شئتم حتى لا ينالنا ما نال إخواننا من الهلك المروع » .
فلما سمع « جي » الفارس المصلات هذه العبارات استخرط في البكاء
هو ومن معه ، وأنشوا أنيناً طويلاً وصاحوا : « أيها الرب القوي ، أيها
الثالوث الواحد ، لماذا رضىت بحدوث جميع هذه الأمور ، لماذا سمحت لشعبك
المؤمن بك أن يقع بين يدي عدوه ؟ لماذا سارعت فهجرت أولئك الذين
يحاولون تعبيد الطريق إلى هيكلك وجعله آمناً حراً ؟ يارب : لو تحقق ما سمعناه
من فم أولئك التعساء فإننا سنهجرك — نحن والنصارى الآخرون — ولن

تعود تخطر ببالنا ، وإن يجرؤ أحدنا بعد ذلك أبدأ على الدعاء باسمك ! .
وسرى هذا النبأ المشثوم بين الجيش بأجمعه ، حتى لقد انقضت بضعة أيام لم
يتمكن أحد من القسيسين أو المطارنة أو رجال الدين أو الديويين من
ذكر اسم المسيح .

والواقع أنه لم يستطع أحد أن يقدم على مواساة « جى » الذى دأب
على البكاء وضرب صدره ولى أصابعه وهو يقول « أواه ياسيدى بوهمند ،
يا شرف الدنيا وزينتها ، يا من كان العالم يرهبه ويحبه ، واشقوتاه ! أى قاصمة
داهية نزلت بى ! اما كنت بالمستحق فى رزيتى أن أرى جثمانك المبجل ؟ لقد
كان ذلك غاية سؤلى وطلبى ! من ذا الذى يمكننى من افتدائك بنفسى ياسيدى
وصديقى الغالى ؟ لماذا لم يخترمنى الموت يوم خرجت من بطن أمى ؟ ولماذا
قُدِّر لى أن أعيش حتى أشهد يومك المشثوم ؟ لماذا لم يبتلعنى اليم ! لم لم يكسب
بى جوادى فيدق عنقى ؟ كم كنت أرجو أن أكون معك فأنال هذه الشهادة
الكريمة وأراك وأنت تموت ميتتك الشريفة ؟ » .

ولما قدم الجميع لتعزيته ومواساته استفاق من غشيته وقال لهم « ترى
ماظنكم بهذا الفارس الأشيب الذى ضل الصواب ؟ هل سمعتم قط أنه أنجز أى
عمل من أعمال القروسية ؟ كلا لقد اختفى متسرّلا بالعار هضم الجانب كما
يختفى الآثم الشقى ، ألا فاعلموا جميعا بأن كل ما تخرس به هذا المنكود إن هو
إلا إفك باطل . »

وفى هذه الأثناء أرسل الإمبراطور تعليماته وأوامره إلى رجاله قائلا لهم :
« امضوا وقودوا جميع رجال هذه الناحية فى بلغاريا ، وجوسوا الإقليم فخرّبوا
كافة الأماكن حتى إذا جاء الترك لم يجدوا شيئا ما . »

فارتد رجالنا — إن طوعا أو كرها — وهم فى غاية الحزن المقيم المهلك ،
ودب الحور فى نفوس كثير من حجاجنا وأصبحوا عاجزين عن متابعة

الجيش ، فتوقفوا عن الزحف ، ومات بعضهم فى أثناء الطريق ؛ أما الباقون فقد عادوا جميعا إلى القسطنطينية .

٢٨ — ولما سمعنا أقوال [بطرس بارتلى] الذى نقل إلينا إحياء المسيح على لسان الرسول ، انطلقنا بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة القديس بطرس التى ذكرها ، واشتغل ثلاثة عشر رجلا فى الحفر من الصباح حتى المساء ، وحينذاك عثر هذا الرجل على الحربة فى الموضع الذى أشار إليه ، فتلقاها القوم بفرح شديد وهيبة عظيمة ، وعمت المدينة بهجة شاملة .

وفى هذه اللحظة عقدنا فيما بيننا مجلسا حريا للتشاور فيما نصنع ، وحينذاك انعقد إجماع زعمائنا على المبادرة بإنفاذ رسول إلى الترك أعداء المسيح — ليسألمهم — على يد أحد المترجمين — هذا السؤال الصريح — عما دعاهم إلى اقتحام أرض المسيحيين وهم فى سورة غضبهم ، وما الذى دفعهم لنصب مخيمهم هناك وقتلهم بخدام المسيح وقتلهم إياهم . ولما انتهت المشاورة جاءوا ببعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان Herlouin ، وألقوا إليهم بهذه التعليقات قائلين لهم : « اذهبوا فابحثوا عن جيش الترك الملعون وقصوا عليهم هذا كله ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم إلى اقتحام أرض المسيحيين التى هى أرضنا نحن أيضاً . »

فلما سمع الرسل هذه الكلمات انطلقوا لتوهم وجاءوا بجمع الكفرة ، وأفضوا إلى كربوغا ورجاله بالرسالة التالية « لقد عجب زعمائنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحق إلى اقتحام أرض النصارى التى هى أرضهم هم الآخرون ، أفهل لنا أن نظن ونعتقد أنكم قد قدمتم إلى هنا لاعتناق المسيحية ، أم ترون أن الدافع لكم للمجيء هو إنزال شتى ضروب السوء بالنصارى ؟ وإن زعماءنا جميعا ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين التى هدتها قديما موعظة الرسول بطرس الطوباوى إلى الإيمان بذهب المسيح ،

وإن زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل مالكم من الخيول والبغال والحمير والإبل والماشية والثيران وجميع ما تملكون ، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله ، والانتقال من هنا إلى حيث شئتم .

حينذاك أخذت العزة بالإثم قائد جيش ملك فارس وجميع من معه وأجابوهم في غلظة : « إنما لا نبالي بربكم ولا بنصرانيتكم ولا نمل لشئ منها ، بل نسحقها وإياكم في آن واحد سحقاً تاماً ، وما حملنا على المجيء إلى ها هنا إلا دهشتنا من أن يدعى السادة والزعماء الذين ذكرتموهم ملكية أرض سلبناها نحن من الأمم الضعيفة . أفهل تريدون معرفة ردنا عليكم ؟ ... عودوا على جناح السرعة إلى سادتكم وقولوا لهم إنهم إذا كانوا يريدون أن يتترّكوا وينبذوا ربهم الذي يسجدون له ويهجروا شرائعهم التي هم عليها الآن ، فإننا نعطيهم هذه الأرض وما هو أكثر منها ، ونهضم المدن والحصون فلا يبقى أحد منكم راجلاً ، بل ستكونون جميعاً فرساناً مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة مكيّنة ومودة راسخة ، وإلا فعليهم أن يدركوا أنهم سيلاقون الموت ، وسنقودهم مكبلين بالأصفاد إلى خراسان حيث يبقون في الأسر إلى الأبد ، ونستعبدهم نحن وأبنائنا على مر العصور . »

سرعان ما انكشفأ رجالنا إلينا وأفضوا إلينا بكل ما أجابتهم به تلك الطاغمة الفظة الغليظة . ويقال إن هرلوان — الذي يعرف اللسانين [العربي واللاتيني] كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك

وفي هذه الأثناء أملت بجيشنا نكبتان لم ندر ما نفعل حيالهما ، أولاهما المجاعة الفظيعة التي أضمتنا ، وثانيهما الفرع الشديد من الترك .

٢٩ — بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ونفضوا أيديهم عما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى السكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

ثم أقامت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هييج العظيم وبصحبه الفرنسيون وكونت فلاندر ؛ وفي الثانية دوق جودفروى ورجاله ، وفي الثالثة روبرت النرمدى مع فرسانه ، وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف پوى حاملا حربة المخلص وكان معه رجاله وأتباع رموند الصنجيلى الذى كان مقيما على حراسة الحصن ، خوفا من هجوم الترك عليه ومنعا لهم من النزول إلى المدينة ، وكان فى الفريق الخامس تمكريد — ابن المريكز — بصحبة رجاله ، وفى السكتيبة السادسة بوهيمند الحكيم مع فرسانه .

ولما لبس أساقفتنا وقسسننا وكهنتنا ورهباننا حللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصليبان ، ممجدين السيد ومبتهلين إليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس فى أيديهم ، ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوغا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب العظيم وهى خارجة واحدة فى إثر الأخرى قال « دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا بما لو كانوا فى أيدينا ، إلا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة للجمجمة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ؛ وسرعان ما أمر قائده الموكل إليه الحراسة العامة أن يعلن الارتداد إذا شاهد النار تتأجج فى مقدمة الجيش ، إذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفى الحال شرع كربوغا فى الارتداد على مهل شطر الجبل ورجالنا فى إثره بنفس الخطى ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر بينما أقام رجال الفريق الآخر فى مكانهم مؤملين أن يحدقوا بنا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا فعله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفروى وكونت نرمندى ، وألقوا قيادتها إلى رينالد ، وبعثوها لملاقاة

الأترك الذين قدموا من جهة البحر ، فالتحم الترك رجالنا وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاذلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الجانبين ، وأحاطت برجالنا تنضحهم برماحها وترميمهم بأقواسها ، كما شوهدت قوات لا يحصيها العدد تنطلق من ناحية الجبل ممتطية صهوة جياد بيضاء ، بياض الرايات التي تحملها بأيديها ، فلما شاهد رجالنا منظر هذا الجيش لم يعرفوا لمن هذا الجند ، وما لبثوا أن أدركوا أنهم نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرقص وديمترى ، وينبغى الإيمان بهذه الشهادة ، لأن الكثيرين من رجالنا شاهدوا تلك الآية .

ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار ، فلما تبين هؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفروى وهيج العظيم وكونت فلاندر ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدفعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردهم هي الأخرى ، فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الإله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم عيسى المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وإياهم في القتال ، وتغلبننا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفرع على الترك فاثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر الحديد فقلعة تنكريد ، غلى العدو وراءه خيمه وذهبته وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والجياد والبغال والإبل والخير والحنطة والنيذ والطحين وكثيراً غير ذلك مما كان يلزمنا ، فلما استطار نبأ ظهورنا على الترك إلى سمع الأرمن والسريان

الساكنين في هذه المنطقة جروا نحو الجبل ليسدوا عليهم الطريق ، وفتكوا بكل من وقع منهم في أيديهم .

كان سرورنا عظيما حين استعدنا المدينة ، فأخذنا نمجّد الرب ونشكره على أن آتى النصر لجماعته ، أما [أحمد بن مروان] القائد القائم بحراسة القلعة فقد استولى عليه الذعر حين رأى هرب كروبوغا ورجاله من ساحة القتال أمام جيش الفرنجة ، وسرعان ما بادر إلى طلب الأعلام الفرنجية ، فأمره سنجيل — الذى كان مرابطا أمام الحصن — برفع رايته دون سواء ، فأخذها منه وركزها لساعته على البرج ، فلما شاهدها البارديون الموجودون هناك قالوا « ليست هذه راية بوهمند » فقال لهم [أحمد بن مروان] ، « فراية من إذن ؟ » فأجابوه « إنها راية كونت سنجيل » وحينذاك تقدم [أحمد بن مروان] ، واقتلع الراية وردها إلى الكونت ؛ وفى هذه اللحظة قدم بوهمند المحترم وناول رايته [للقائد] التركى الذى تلقاها بيد السرور ، وعقد اتفاقية مع السيد بوهمند الذى أذن بمقتضاها للكفرة الذين يريدون اعتناق المسيحية بالإقامة حيث هم ، بينما أذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين آمنين دون أن يمسهم أدنى ضرر أو أذى .

ووافق [بوهمند] على جميع مطالب [أحمد بن مروان] ، وسرعان ما أنزل سرجنديته فى الحصن ، ولم تنقض إلا أيام قلائل حتى عمّد القائد [المسلم] وجميع من آثروا الإيمان بالمسيح ، أما أولئك الذين فضلوا البقاء على ملتهم فقد بعثهم السيد بوهمند إلى المنطقة الإسلامية .

وقد جرت هذه الواقعة فى اليوم الرابع قبل مستهل يوليو [٢٨ يونيو ١٩٠٨] ، شهر الحواريين بطرس وبولص ، فى حكم السيد عيسى المسيح الذى له الشرف والمجد إلى الأبد ! آمين .

من تخليص أنطاكية إلى وقعة عسقلان

من ٢٩ يونيو إلى ١٢ أغسطس ١٠٩٩

الزحف على بيت المقدس . حملة ريموند بيلييه وموت أسقف بوى . حملة ريموند
السنجلى على ألبارة . اختلاف الزعماء بشأن أنطاكية . استيلاء ريموند
وبوهيمند على المعرة . زحف ريموند وروبرت النورمندى على
أرشلیم . الوصول أمام عرقة . اتحاد الأمراء عدا
بوهيمند . حصار عرقة . رفع الحصار عنها . الوصول
لبيت المقدس ومحاصرتها . الاستيلاء عليها .
انتخاب جودفروى وموقعة عسقلان

٣٠ — هزم أعداؤنا عن بكرة أبيهم هزيمة ساحقة ، وشكرنا الرب
الثالث الأواحد على نعمه بما يستحق ، وشرع الترك فى الحرب من كل
النواحي ، فكان بعضهم أنصاف أحياء ، والبعض الآخر منهم قد أثقلته
جراحه فراحوا يتساقطون أمواتا فى الوديان والغابات والحقول وفى
الطرق ، أما شعب المسيح وهم الحجاج الظافرون فقد عادوا إلى البلدة بعد
ظهورهم على العدو وهم فى غاية الفرح لانتصارهم السعيد .

وبادر سادتنا الدوق جودفروى ، وكونت ريموند سنجيل ،
وبوهيمند . والسيد روبرت ، وكونت فلاندر وكثيرون غيرهم بإرسال هيج
العظيم : ذلك الرجل الموقر الكريم إلى إمبراطور القسطنطينية عساه أن يقدم
لاستلام المدينة ، ولتنفيذ الاتفاقات التى أبرمها معهم ، ومن ثم رحل [هيج]
إلا أنه لم يعد بعد ذلك أبداً .

بعد أن فرغ زعمائونا من ذلك كله التأم شملهم ثانية وأمروا بعقد مؤتمر لإيجاد الوسائل اللازمة لحكم وقيادة الشعب ، حتى ينجز رحلته إلى الهيكل المقدس الذي تكبدوا من أجله كل هذه الأخطار ، وقر رأيهم في هذا الاجتماع على أنه ليس في قدرة أحد ما أن يدخل أرض الكفرة ، لما تكون عليه زمن الصيف من شدة الجفاف ونضوب المياه ، ومن ثم قبلوا أن يؤجلوا ذلك الدخول إلى نهاية شهر نوفمبر ، فتفرق السادة ، ورحل كل إلى ناحيته حتى يحين الوقت المتفق عليه ، ونادى الأمراء في جميع نواحي البلدة بأن كل من يجدون أنفسهم في ضيق ويحتاجون للدينار والدرهم يستطيعون أن يقيموا معهم إذا شاءوا حسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم يتلقونهم على الرحب والسعة .

كان هناك فارس من جماعة السكونت سنجيل يدعى ريموند بيليه ، الذي استخدم لنفسه جماعة ليست بالتأفة من الفرسان والمشاة ، وقد رحل بالجند الذين جمعهم ودخل المنطقة الإسلامية غير هياب ولا وجل ، وبعد أن جاوز مدينتين وصل إلى قلعة تدعى « تل منس » فبادر أهلها السريان للاستسلام له عن طواعية وطيب خاطر ، فأقام بينهم قرابة ثمانية أيام إلى أن جاءته الرسل مفضية إليه بوجود حصن للمسلمين على كشب منه وتقوم على حراسته حامية ضخمة ، فبادر فرسان المسيح وحجابه إلى الزحف على هذا الحصن وأحذقوا به من كل جانب ، وسرعان ما تمكنوا من الاستيلاء عليه بمعونة السيد المسيح ، وإذ ذاك ألقوا القبض على جميع فلاحى تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية ، أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد أخلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم .

بعد أن تم ذلك انصرف فرنجتنا مسرورين إلى القلعة الأولى [قلعة تل منس] ، ثم غادروها في اليوم [الثالث ٢٧ يوليو] ، وجاءوا إلى معرة النعمان القريبة منهم ، وكان قد اجتمع بها نفر كبير من الأتراك والشرقيين القادمين من

حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التي في تلك النواحي ،
وخرج المتبربرون للهجوم على رجالنا الذين أجمعوا العزم على الالتحام بهم
في القتال وأرغموهم على الفرار ، إلا أنهم ما لبثوا أن عادوا وظلوا طول
يومهم يعاودون قتالنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا الهجوم حتى المساء ،
وكان الحر ثقيل الوطأة ، فلم يعد رجالنا يطيقون احتمال الظم لأنهم لم يجدوا
قط قطرة من الماء يطفئون بها غلتهم ، ومن ثم رغبوا أن يعودوا سالمين في
أنفسهم إلى حصنهم ، غير أن الفرسان والمشاة الذين استولى عليهم الفرع
دفعتهم خطاياهم للنكوص على أعقابهم ، فلما رأهم الترك وهم يولون الإدبار
انطلقوا في آثارهم وأمدتهم النصر بالبأس العظيم ، فأسلم كثير من رجالنا
أرواحهم لله من أجل حبهم إياه ذلك الحب الذي دفعهم للتجمع هناك ، وكانت
هذه المذبحة في اليوم الخامس من شهر يوليو ، أما الفرجة الذين نجوا من الموت
فقد عادوا إلى قلعهم ، وبقي ريموند هناك مع قواته فترة من الزمن .

أما بقية القوم الذين كانوا مقيمين بأنطاكية والذين كانوا في فرح ونشوة
كبرى لاشتداد المرض بمدبر أمرهم وراعيهم أسقف بوى ، وذلك تبعا لمشية
الرب التي من أجلها وحدها هجر هذا العالم ، راقدا في هدوء ، وذهب ليرقد
عند السيد يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس في الأصفاة [يوم أول
أغسطس ١٠٩٨] ، وتبع عن ذلك كرب شديد ، وغم مقيم ، وشمل الحزن
العظيم جميع جيش المسيح قاطبة ، لأن إدمار كان عضد الفقراء ومشيرا
الأغنياء ، فكان يأمر السكينة بذلك ويكرز فيهم ، ولطالما قال للفرسان في عظاته
لهم « لن يستطيع أحد منكم إنقاذ نفسه إن لم يعمل على مواساة الفقراء
واحترامهم ، ولن تستطيعوا النجاة من دونهم ، كما أنهم لا يستطيعون العيش
بدونكم ، ومن ثم فإن ابتهالاتهم اليومية تتصاعد إلى الرب الذي طالما تسيئون
إليه فتغفر للخطئين منكم خطاياهم ، وإني لأسألكم أن تحبواهم حبكم لله ،
وأن تساعدوهم جهد ما تستطيعون » .

٣١ — بعد ذلك بقليل رحل ريموند المحترم كونت سنجيل ، وتوغل في المنطقة الإسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها « ألبارة » ، فشد عليها برجاله ، وسرعان ما دانت له ، فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات ، غير مفرق بين صغير وكبير ، ولما تم له امتلاكها دعاها إلى دين المسيح ، وعقد مجلسا من ذوى الرأى من جماعته ، وأقام حفلا رائعا احتفى فيه بتعيين أسقف لهذه المدينة يرجعها إلى دين المسيح وعبادته ، وجعل من هذا المسكن الشيطاني معبدا نذره لله الحى القيوم ، وأقام المحارب على شرف القديسين .

وسرعان ما اختاروا رجلا عاقلا شريفا سيروه إلى أنطاكية لترسيمه [أسقفا] لها ، وأخرجوا الاختيار إلى حيز التنفيذ ، أما الآخرون الذين بقوا بأنطاكية فقد شملهم الفرح وعمتهم البهجة .

ولما دنى الأمد المضروب [أ عنى عيد جميع القديسين] انكفأ جميع زعمائنا إلى أنطاكية ، وانصرفوا يعدون العدة لإنجاز الرحلة إلى القبر المقدس وقالوا : الآن حان وقت رحيلنا ، وليس الوقت وقت جدل حول مصلحة كل فرد الذاتية ،

وكان بوهيمند من جانبه يدأب طول الوقت على حمل الزعماء على الاعتراف بالعهد الذى عاهده عليه جميع السادة باحتلاله المدينة ، غير أن كونت سنجيل لم يكن يميل لأى اتفاق مامع بوهيمند ، مخافة أن يكون فى هذا الاتفاق نكث للعهد مع الإمبراطور ، وكثير عقدهم الاجتماعات فى كنيسة القديس بطرس للبحث فيما ينبغى عمله ، وقرأ بوهيمند عليهم نص الاتفاق ، وأطلعهم على ما أنفق ، وفعل كونت سنجيل مثل فعله حيث ذكر شروط اليمين التى قطعها للإمبراطور حسبما أشار به عليه بوهيمند ، وحينذاك غادر الأساقفة والدوق جودفروى وكونت فلاندر وكونت نرمندى والسادة الآخرون الاجتماع ، وانطلقوا إلى الناحية التى يوجد بها منبر القديس بطرس ، ليتفقوا على حكم

يقضون به بين الاثنين ، ودفعتهم خشيتهم من عرقله السير إلى القبر المقدس إلى كتمان ما أجمعوا الرأى عليه وقرروه فيما بينهم ، وأخيرا صاح كونت سنجيل « قبل أن نهجر طريق القبر المقدس أقول لكم إنه إذا قبل بوهيمند أن يصحبنا فإننى راض بكل ما اتفق عليه الدوق جودفروى والكونت فلاندر وروبرت النرمنى وغيرهم من السادة ، وإننى نازل على ما قضوا به ، إلا فيما يتعلق بإخلاصى للإمبراطور . »

فاستصوب بوهيمند كل الاستصواب قوله هذا ، وجاء الاثنان فأقسما بين أيدي القسس أن لن يحاول أحدهما — بأية وسيلة ما — عرقله الزحف إلى القبر المقدس ، وإذ ذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة رجاله ليكفل تموين القلعة القائمة على الجبل العالى بالرجال والعتاد والذخيرة ، وفعل كونت سنجيل فعله ، فأخذ هو الآخر فى الاتفاق مع رجاله بشأن تموين قصر الأمير ياغى سيان والبرج القائم عند مدخل الجسر بجانب ميناء القديس سمعان ، وأقول شاور جماعته بشأن تموينها بالرجال والذخيرة التى يمكن بقاؤها زمنا طويلا .

٣٢ — أنظر الملحق الخاص بأنطاكية .

٣٣ — اتخذت هذه التدابير الدقيقة فى شهر نوفمبر ، وإذ ذاك غادر ريموند كونت سنجيل مدينة أنطاكية بجيشه ، وبلغ مدينة تدعى « الروح » ، ثم أخرى تسمى « البارة » ، وقبل نهاية شهر نوفمبر بأربعة أيام أدرك مدينة المعرة ، وقد اجتمع بها حشد كثيف من الشرقيين والترك والعرب وسواهم من الكفار . فلما كان اليوم التالى هاجمها الكونت ، وبعد فترة قصيرة من الزمن سار بوهيمند بجيشه فى آثار الكونتات واتصل بهم يوم الأحد ، وفى يوم الاثنين [٢٩ نوفمبر ١٠٩٨] حملوا حملة عنيفة على المدينة من جميع نواحيها ، واستبسلاوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلام على الأسوار ، غير أن قوة الكفار كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأذى .

لما رأى ساداتنا ألا جدوى من ذلك العمل وأنهم لا يجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبياً باسقا منيعاً ، يدور على دواليب أربعة ، وجهازه بما يحتاج إليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع دإقرار الصياد ، الذى كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن إلى قرب الأسوار ليلاحق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا إلى آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الإغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، إلا أن الرب القوى لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى — وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره — فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على بجنااتهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان فى داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحاً عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديديّة تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة فى مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون لله ويبتهلون إليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلى كلمة المسيحية ويلاشى الوثنية ، وكان هناك فى ناحية أخرى فرساننا وهم فى حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلام على سور المدينة ، غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التى عاقت رجالنا عن أى تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتيه دى لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذى سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا أنه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم مسلماً آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاه وتسلقوا الحائط ، غير أن الشرقيين هاجموهم هجوماً

عنيفا على السور وعلى الأرض، وأشرعوا نحوهم الأسنة، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا، فآلقوا بأنفسهم من فوق السور.

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين إلى داخل المدينة، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ ديسمبر وقت صلاة الستار عند غروب الشمس، وإذ ذاك أمر بوهيمند — على لسان مترجمه — زعماء المسلمين بالالتجاء — هم ونسائهم وأطفالهم ومتاعهم — إلى قصر واقع جنوب الميناء، وأخذ على نفسه عهدا أنهم به على حياتهم.

بعدئذ دخل رجالنا جميعاً إلى المدينة، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمحلات، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من أعدائهم رجلاً كان أم امرأة، حتى لم تعد ثم ناحية مامن المدينة خالية من جثث المسلمين، ونذر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يظأ تلك الجثث، وقبض بوهيمند على من أمرهم بالدخول إلى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواها من الحلى، وقتل البعض وساق الباقين إلى أنطاكية لبياعوا بها.

بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام، وفي أثناء ذلك مات [وليم] أسقف اورنج.

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئاً يستولى عليه، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعاً قطعاً ويطهونها ليقتناوا بها.

٣٤ - لم يستطع بوهيمند أن يوافق السكونت سنجيل على مطالبه، وقام وهو في سورة غضبه فقفل راجعا إلى أنطاكية، ولم يتوان السكونت ريموند في أن يبعث رسله إلى الدوق جودفروى وكونت فلاندر وروبرت الزمندی وبوهيمند يطلب منهم القدوم إلى الروج لمفاوضته، فجاء جميع السادة وتشاوروا لإيجاد وسيلة تحفظ لهم شرف السير إلى المذبح المقدس الذى نهضوا من أجله بحربهم الصليبية، وقدموا في سبيله حتى هذه الناحية، ولكنهم لم يستطيعوا التوفيق بين ريموند وبين بوهيمند الذى أبى ذلك إلا إذا رد له السكونت أنطاكية، فامتنع السكونت عن النزول على طلبهم بسبب العهد الذى قطعه للإمبراطور، وفي النهاية عاد السكونتات والدوق إلى أنطاكية بصحبة بوهيمند، وقفل السكونت ريموند راجعا إلى المعرة حيث وجد الحجاج، وطلب إلى فرسانه تجهيز القصر والحصن الذى كان موجودا أسفل ميناء الجسر، ولما رأى ريموند أن ليس هناك من أحد من القادة يرغب فى السير إلى الهيكل المقدس من أجله فقد خرج من المعرة حافيا يوم ١٣ يناير وقصد كفر طاب وبقى بها ثلاثة أيام حيث انضم إليه كونت زمندی، وبعث أمير شيزر بسفرائه إلى السكونت وهو بالمعرة وكفر طاب يعلنون إليه رغبة [مولاهم] فى موادعته، وعمله على راحة الحجاج ويقسم له على ذلك بدينه، كما أنه يتعهد له بأن لا يئاءهم - داخل حدود أرضه - أى أذى، ويؤكد له أنه سيمده عن طيب خاطر - بالجياد والطعام.

رحل رجالنا حتى إذا صاروا على كشب من شيزر الواقعة على نهر فرفر نصبوا معسكراتهم هناك، فانزعج أمير شيزر حين رأى أن الفرنجة قد ضربوا خيامهم قرب المدينة، وأمر بمنع المؤونة عنهم إن لم يتعدوا عن ضواحي البلد، وفي اليوم التالى بعث معهم برسولين من الترك ليدلوهم على مخاضة يعبرون عندها النهر وليضيا بهم إلى حيث يجدون الغنيمة الطيبة،

فوصلوا إلى واد تشرف عليه إحدى القلاع ، ونهبوا هناك أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم ، وجزء غير قليل من القمح وغير ذلك من السلع التي يمكن أن تعين جميع القوات المسيحية ، كما أذعنت حامية القلعة للسكونت وأعطته بعضا من الجياد والذهب ، ثم أقسمت له بدينها ألا تمس الحجاج بأذى ما ، وأقننا هناك مدة خمسة أيام [من ١٧ إلى ٢٢ يناير] . ثم رحلنا — يعمنا الفرح — لنضرب معسكراتنا قرب حصن للعرب ، فخرج إلينا صاحبه وعقد اتفاقا مع السكونت .

وصلنا — بعد مغادرتنا هذه الناحية إلى مدينة عظيمة زاخرة بالذخيرة وواقعة في أحد الوديان ، يسمونها ريفية ، فلم يكذب نبأ قدوم الفرنجة يتراعى إلى سمع سكانها حتى غادروها وتركوا ما بها من البساتين الممتلئة بالبقول وخلوا مساكنهم المذخورة بمواد الطعام ، هاموا على وجوههم ، أما نحن فقد غادرنا هذه المدينة بعد ثلاثة أيام [٢٥ يناير] من إقامتنا بها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادى البقيعة حيث كانت توجد ذخيرة وفيرة . واستغرقت رحلتنا هذه خمسة عشر يوما ، [امتدت من ٢٩ يناير حتى ١٢ فبراير] .

كان يوجد بالقرب منا قلعة اعتصم بها جمهور كثيف من الكفار ، فهاجنا هذه القلعة ، وكان نصرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج المسلمون من أبوابها قطيعا كبيرا من الحيوان ، فانصرف رجالنا إلى خيمهم محملين بجميع أنواع الغنائم ، وفي الصباح الباكر طوى رجالنا خيمهم وجاؤا لمحاصرة القلعة قاصدين من وراء ذلك نصب معسكراتهم هناك ، غير أن جميع القوم الكفرة لاذوا بأذيال الفرار وخلفوا القلعة وراءهم ليس بها من أحد ، فافتحمها رجالنا ووجدوا بها كمية كبيرة من القمح والنبذ والدقيق والزيت وكل ما يحتاجونه . وهناك احتفلنا [يوم ٢ فبراير ١٠٩٩] بعيد دخول القديسة مريم الهيكل ، واستقبلنا رسلا من مدينة حمص أنفذهم أميرها [جناح الدولة] إلى السكونت

ومعهم الجياد والمال ، وعقد معه معاهدة ، اتفق فيها معه على ألا يمس النصراني بما يضايقهم بل تعهد له باحترامهم والمحافظة عليهم ، وبعث [أبو على نخر الملوك بن عمار] أمير طرابلس من قبله رسالة إلى الكونت [ريموند] يسأله المودعة والاتفاق والارتباط معه برباط المودة إذا أحب ، وأنفذ إليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض الذهب ، غير أن الكونت صرح له أنه لا يقبل مسالمة أمير طرابلس إلا إذا اعتنق النصرانية .

بعد أن غادرنا هذا الوادى الجميل بلغنا مكانا حصينا اسمه « عرقة » ، وذلك يوم الاثنين منتصف فبراير ، وأقنابه خيامنا ، وكان الوادى يعج بحشد كثيف من الكفرة الذين عملوا بهمة عجيبة فى تقوية هذا المكان والاستبسال فى الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجلا من فرساننا للزحف على طرابلس الواقعة على كشب منا ، فصادف هؤلاء الأربعة عشر فريقا من الترك يبلغ الستين ومعهم غيرهم وقد ساقوا أمامهم الرجال والحيوان ، فكان العدد يقرب من ألف وخمسمائة أوزيد ، فتدعر رجالنا بالصليب ، وكروا عليهم فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا منهم على ستة جياد .

وانفصل عن جيش كونت ريموند كل من ريموند بيليه وريموند فيكونت تورين ، ووصلا أمام بلدة طرطوس ، التى نهض للدفاع عنها جمع غفير من الكفرة ، فنازلاها نزالا عنيفا ، فلما جاء المساء ارتدا إلى إحدى النواحي ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا نارا عظيمة كما لو كان الجيش بأجمعه موجودا هناك ، فاستولى الذعر على الكفرة ، وتسربلوا بالظلام وانسلوا هاربين خفية وخلوا المدينة وراءهم وتركوا بها متاعهم الكبير ، وكان للمدينة إلى جانب هذا ميناء نخم مطل على البحر [يعرف باللاذقية] ، فتأهب رجالنا فى اليوم التالى لها جمته ، غير أنهم وجدوا المدينة خالية ، فدخلوها وظلوا ناصبين خيامهم حتى لحظة محاصرتهم لعرقة ، وكانت تتاخمها مدينة أخرى تدعى « مرقب » ، فعقدوا اليها معاهدة مع رجالنا وأدخلهم إياها مشرعين راياتهم .

٣٥ — جاء الدوق جود فروى وبوهيمند وكونت فلاندر ، حتى إذا اقتربوا من مدينة اللاذقية انفصل بوهيمند عن بقية الجماعة ، وقفل راجعا إلى أنطاكية .

أما البقية فقد تابعت سيرها وحاصرت بلدة تدعى « جبلة » ، وعلم السكونت ريموند دى صنجيل أن هناك جمهورا غفيرا من الوثنيين زاحف علينا لمقاتلتنا ، وسرعان ما اتفق مع رجاله على مطالبة السادة القائمين بحصار جبلة بالنهوض لنجدته . فلما تناهى ذلك الخبر إلى سمعهم عقدوا مودعة مع أميرها وتصالحوامعه ، وأخذوا منه الجياد والمال ، ثم غادروا البلد قادمين لمساعدتنا ، غير أنه ألقى إلى الكفرة ألايقاتلونا ، وإذذاك ضرب السكونتات معسكراتهم خلف النهر ، وساهموا بنصيب فى حصار هذا المكان [المعروف بعرقه لما ترمى إلى سمعهم من نهوض خليفة بغداد لنجدة المسلمين]

لم يمض غير قليل من الزمن حتى زحف رجالنا على طرابلس ، ووجدوا خارج المدينة جماعة من الترك والعرب والمسلمين ، فهاجمهم رجالنا واضطروهم إلى الفرار ، وقتلوا فئة كبيرة من أشراف البلد ، واستحرقوا القتل فى الكفرة ، وتدفقت الدماء حتى اصطبغت المياه التى تغذى المدينة والآبار باللون الأحمر القانى ، وعمهم الحزن والأسى ، واشتد الذعر بالباقيين حتى إنه لم يعد لاحد منهم الجرأة على مجاوزة أبواب البلد .

وفى يوم آخر أخذ رجالنا فى الزحف ، حتى إذا صاروا على كشب من وادى « البقعة » صادفوا بعض الثيران والماشية والحير وكثيراً من الأنعام والجمال ، فكانت عدة ما استولوا عليه من الحيوان تبلغ ثلاثة آلاف . وحاصرنا المكان المشار إليه آنفا [عرقه] حصارا دام ثلاثة أشهر ويوما واحدا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة السيد المسيح مدة أربعة أيام قبل منتصف إبريل [أى يوم ١٠ منه] ، وكانت سفنتا قد اقتربت منا إذ بلغت أحد الموانئ وظلت به طول فترة هذا الحصار ، وحملت إلينا ذخيرة وفيرة من القمح والنييز

واللحم والجبن والشعير والزيت ، فتوفر لدينا ذلك كله أثناء الغزو ، وفي خلال هذا الحصار سعد كثير من رجالنا بالشهادة ، وكان من بينهم أنسلم دى ريمونت ووليم بيكاردى وكثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم .

توالت رسل [ابن عمار] أمير طرابلس على السادة يطلب إليهم مغادرة المكان وموادعته ، فلما علم رجالنا بالمحاصيل الجديدة وأبصروها [لأنه في منتصف مارس كنا نأكل البقول الجديدة ، وفي منتصف أبريل حصدنا القمح] عقد الدوق جو دفردى وريموند كونت سنجيل وروبرت الزرمندى وكونت فلاندر اجتماعا فيما بينهم ، وقرروا أن من صالحهم مواصلة السفر إلى بيت المقدس ، وقت جنى المحاصيل الجديدة .

٣٦ — إذ ذاك غادرنا هذا المكان وبلغنا مدينة طرابلس يوم الجمعة ١٣ مايو وبقينا بها ثلاثة أيام فسلمهم [أميرها] أكثر من ثلثمائة حاج كانوا في أسره ، وأعطاهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية وخمس عشرة هدية غالية القيمة ، وأمدنا أيضا بذخيرة كبيرة من الجياد والحير وشتى أنواع المحاصيل مما أغنى جميع جند المسيح ، واتفق مع زعمائنا على أن يتنصر ويسلم أرضه إذا استطاعوا الظهور على خليفة مصر في الحرب التي أعدها لهم إذا تمكنوا من امتلاك بيت المقدس . وبعد أن تم الاتفاق على ذلك غادرنا المدينة يوم الاثنين [١٦] من شهر مايو ، وأسرينا طول الليل في طريق ضيق صعب المنحدر ، وأدركنا قلعة الباطرون ، حيث أدت بنا إلى مدينة مجاورة للبحر يسمونها « جبيل » ، وكابدنا المشقة من جراء الظمأ الممض ، وألم بنا الوهن حتى بلغنا نهر ايدعونه « نهر إبراهيم » وبعد أن صرنا ليلة صعود السيد ونهارها [يوم ١٩ مايو] في طريق شديد الضيق ، جئنا إلى جبل طننا أننا واجدون عنده العدو كامنا يترصدنا ، إلا أن إرادة الرب حرمتهم الجرأة على الاقتراب منا ، فتقدمنا فرساننا وفتحوا الطريق أمامنا ، وبلغنا بعد ذلك مدينة بحرية اسمها بيروت ، خرجنا منها إلى أخرى تدعى صيداء ، ثم إلى غيرها يقال لها « صور » ، ومن صور وصلنا إلى مدينة

عكا ، وأدى بنا السير من عكا إلى مكان حصين اسمه يافا ، ونصبنا معسكرنا قرب شيزر حيث احتفلنا بعيد الغنصرة وذلك يوم ٢٩ مايو .
بعد هذا جئنا إلى مدينة الرملة التي أخلاها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكانت على مقربة كبيرة منها كنيسة مقدسة مدفون بها جثمان القديس جورج الطاهر ، وذلك لأنه قد نعم بالشهادة السعيدة في هذه البقعة على أيدي الوثنيين الكفرة من أجل اسم المسيح ، فعزم قادتنا على انتخاب أسقف لرعاية هذه الكنيسة وإدارتها ، ووهبوا الأعراس ، وأمدوه بالذهب والفضة والجياد وغيرها من السائمة والأنعام حتى يكون قادرا على أن يعيش هو ورجاله عيشة خالصة مشرفة ، فأقام مسرورا .

٣٧ — أما نحن فقد عمنا الفرح وتابعا الزحف حتى بلغنا مدينة بيت المقدس ، وذلك يوم الثلاثاء [٦] يونيو في الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصاراً يدعو إلى الإعجاب ، وضيق روبرت الترمندى الخناق عليها من ناحية الشمال قرب كنيسة أول الشهداء القديس أتين ، من الجهة التي قتل بها في سبيل اسم المسيح ، وكان إلى جانبه روبرت كونت فلاندر . وحاصرها من الناحية الغربية الدوق جودفروي وتنكريد ، أما السكونت صنجيل فقد أقام في الوسط على جبل صهيون قبالة كنيسة القديسة السميت مريم أم الإله ، في البقعة التي احتفل فيها السيد وتلاميذه بالعشاء السرى .

وفي اليوم الثالث دفعت الرغبة في القتال كلا من ريموند بيليه وريموند دي تورين للانفصال عن الجيش ، فصادف فارسا المسيح مائتي عربي فقاتلهم ، وعاونهما الله فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا كثيرا منهم واستوليا على ثلاثين حصانا .

وفي يوم الاثنين [١٢ يونيو] هاجمنا البلدة هجوما عنيفا ، وكانت سطوتنا عليها شديدة ، ولو كانت السلام مهيأة ومعدة لسقط البلد في أيدينا ، ومع ذلك فقد حطمنا السور الصغير ، ورفعنا سلها على السور الرئيسى ، وصعد

فرساننا وضربوا عن قرب جماعة الشرقيين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وناوشوهم بالرماح ، وكان قتلاهم أعظم عدداً من قتلانا أثناء هذا الحصار الذى ظل عشرة أيام لا نجد خلاها الخبز لنشتره ، ودامت تلك الشدة حتى جاءتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فريسة الظمأ المحرق ، واحتملنا أشد المخاوف حتى لقد كنا نمشى ستة أميال لإرواء جيادنا وحيواناتنا الأخرى ، غير أننا وجدنا الماء عند نبع « سيلو » الواقع عند سفح جبل صهيون ، إلا أنه كان يباع بيننا بشمن جد غال .

بعد أن قدم علينا الرسول من قبل هذه السفن اجتمع سادتنا للتشاور ، وقرروا إرسال جماعة من الفرسان لحماية الرجال والمراكب الراسية فى ميناء يافا ، فلما كان الصباح انفصل مائة فارس عن جيش ريموند بيليه وأكاردى مونتمول ووليم السبرانى ، ومضوا ثابتى الجنان شطر الميناء .

ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن البقية ، وصادفوا سبعائة رجل من العرب والترك والشرقيين الذين فى جيش خليفة مصر ، فاشتد فرسان المسيح فى الهجوم عليهم ، غير أن تفوق العدو العددي ممكنه من الإحداق برجالنا من جميع الجهات ، وقتل أكاردى مونتمول وغيره من المشاة الفقراء .

أحداق برجالنا ، وأخذوا ينتظرون الموت حين وفد رسول على ريموند بيليه يقول له « ماذا فعلت هناك بهؤلاء الفرسان ؟ هؤلاء رجالنا فى قبضة العرب والترك والشرقيين ، ولعلمهم الآن قد قتلوا عن آخرهم ، ألا هب فأنقذهم ، فلما استطار هذا النبأ بين رجالنا بادروا بالرحيل ، وأعدوا السير حتى أدركوهم والظبي ملتحمه ، فلما رأى الشعب الوثني فرسان المسيح انقسم إلى كتيبتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وكروا على أولئك الكفرة كرة عنيفة التحم فيها كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الأعداء ان لا قبل لهم بمقاومة بطش الفرنجة استبد بهم الذعر العظيم وولوا مدبرين غير مقبلين ، ورجالنا فى آثارهم يتعقبونهم مسافة تقرب من أربعة أميال ، وقتلوا جمعا غفيرا منهم ، كما أخذوا

فريقاً آخر حياً ليدلوهم على الطريق ، واستولوا على ثلاثمائة حصان .
وفي أثناء هذا الحصار كابدنا وطأة الظمأ ، حتى لقد كنا نخطط جلود الثيران
والجاموس لنحمل فيها الماء مسافة ستة أميال ، وكان الماء الذى احتملناه معنا
فى الأواني قد أفسن و نتن ، واقتصر طعامنا اليومى على خبز الشعير مما صار مثار
حزننا ومبعث أسانا ، والواقع أن الشرقيين عملوا من ناحيتهم سرا على إيذاء
رجالنا بإفساد الينابيع والعيون ، كما كانوا يجمعون كل ما يجدونه ويخفون
أنعامهم فى الكهوف والمغارات .

٣٨ — وقف سادتنا إذ ذاك على الوسائل التى يهاجمون بها المدينة بواسطة
الكباش حتى يتمكنوا من دخولها لأداء فروض العبادة عند قبر مخلصنا ،
فبنوا برجين من الخشب ، وبعض آلات لا بأس بها . وأقام الدوق جودفروى
حصنا جهزه بالآلات ، وفعل الكونت ريموند مثل فعله ، وكانوا يجلبون
الأخشاب من آفاق قاصية ، فلما رأى الشرقيون ما نصبه رجالنا من تلك
الآلات حصنوا المدينة تحصيناً عجيباً ، وأخذوا فى الدفاع عن الأبراج أثناء الليل .
فلما تبين لسادتنا أضعف جوانب المدينة وهو الناحية الشرقية منها ، أخذوا
فى ليلة السبت [٣ يوليو] فى نقل الآلات ونقل حصن من الخشب ، فلما
تنفس النهار نصبوا الكباش واستعدوا للقتال ، وشغلوا أنفسهم أيام الأحاد
والاثنين والثلاثاء بتجهيز الحصن . أما الناحية الجنوبية فقد أخذ الكونت
سنتجيل فى ترميم آلاته بها ، وفى هذه اللحظة بالذات كابدنا الظمأ المميت ، حتى
لقد كان الرجل منا يعجز عن أن يجد جرعة كافية من الماء تروى غلته لقاء
دينار .

وفى يومى الأربعاء والخميس [١٣ ، ١٤ يوليو] حملنا حملة عنيفة فى الهجوم
على المدينة من جميع نواحيها ، ولكن قبل أن نشرع فى الهجوم أعلن
الأساقفة والقساوسة بمواعظهم وخطبهم وجوب القيام بتطواف احتفالى حول

أسوار بيت المقدس تمجيدا لله ، وأن يصحب هذا التطواف الصلوات والحسنات والصيام .

وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة [١٦ يوليو] قننا بهجوم عام على البلد دون أن نتناول طعاما ما ، وكنا في ذهول شديد . ولما دنت اللحظة التي تحمل فيها سيدنا يسوع المسيح العذاب من أجلنا برفعه على الصليب أخذ فرساننا الواقفون على الحصن في القتال بعنف ، وكان بينهم الدوق جودفروى وأخوه الكونت استاش ؛ وفي هذه اللحظة تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار إلى داخلها ، وتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم يقتلونهم ويذبجونهم إلى أن بلغوا هيكل سليمان ، وجرت مذبحة هائلة ، حتى لقد كان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى .

أما الكونت ريموند الذى كان مرابطا في الوسط فقد قاد جيشه ، ودفع حصنه الخشبي حتى دانى السور ، إلا أنه كان يوجد خندق بين الحصن والسور ، وأعلن منحه دينارا لكل من يلقي بثلاثة أحجار في الخندق ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا ، فلما تمت تسويته بالأرض جذبوا السكبش ودفعوه إلى السور ينطحه .

أما فى الداخل فقد حى وطيس القتال بين المدافعين عن المدينة وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونهم بالنار الإغريقية والأحجار ، فلما علم الكونت بأن الفرنجة داخل المدينة قال لرجاله « ماذا تنتظرون وقد دخل الفرنسيون بأجمعهم البلد ؟ » .

أما القائد الذى كان يقوم بحراسة برج دواذ فقد مضى إلى الكونت ، وفتح له الباب الذى اعتاد الحجاج أن يؤدوا الجزية عنده ، فلما ولج حجاجنا المدينة جدوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفضع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد

فاض المعبد كله بدمائهم ؛ ولما تم لرجالنا إغراق السكفرة عثروا في المعبد على جماعة كبيرة من الرجال والنساء فقتلوا البعض وأبقوا على الآخرين الذين أحسنوا بهم الظن ، وكان قد هرب إلى فوق معبد سليمان فريق كشيء من السكفرة من الجنسين ، متوسلين لرفع راية تنكريد وجاستون بيرون فأعطوهم إياها ، وأما الصليبيون فقد انطلقوا في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء ، واستولوا سيوفهم وقتلواهم ، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، فتلظى تنكريد غيظا حين رأى هذا المنظر.

٣٥٩ - وحينذاك اجتمع رجالنا وانعقد إجماعهم على قيام كل منهم بالصلوات وتوزيع الصدقات كي يختار الله من بينهم واحداً يكون له الحكم على الباقيين وعلى المدينة ، وصدر الأمر أيضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلد لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم . فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالى أكداسهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تآنى لأحد قط أن يسمع أو يرى مذبحه كهذه المذبحة التي أملت بالشعب الوثني ، وجمعت أكوام من الحطب كأنها الأعلام ، ولا يعلم أحد أبداً غير الله عددها ، أما السكونت ريموند فقد ساق الأمير [جناح الدولة] ورفاقه حتى عسقلان ، وأبلغهم ما منهم سالمين . وفي اليوم الثامن من استيلائنا على المدينة [أعني يوم ٢٢ يوليو ١٠٩٩] وقع الاختيار على الدوق جودفروي فانتخب أميراً للبلد قصد محاربة السكفرة والدفاع عن النصارى ، وفي يوم عيد « القديس بطرس في الأصفاذ » انتخب القوم أرنول بطركا للمدينة ، وكان رجلا عاقلا

شريفا ، ولقد تم لنصارى الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو .

وفي هذه الأثناء وفد على تنكريد والسكونت استاش [أخي جودفروى] رسول يدعوهما للتأهب والقُدوم لاستلام مدينة نابلس ، فرحلا على رأس فئة كثيرة من الفرسان والمشاة ، وبلغوا البلدة التى سرعان ما استسلم لهم سكانها . بعدئذ طلب إليهم الدوق [جودفروى دى بويون] أن يغذوا السير لصد الهجوم الذى يشنه [الأفضل] وزير مصر على عسقلان ، فأسرعوا باقتحام الجبل مفتشين عن الشرقيين بغية مقاتلتهم ، وبلغوا شيزر ، ثم ساحلوا سيف البحر حتى وصلوا الرملة ، فعثروا بها على جمهور غفير من العرب قادم لنفض المكان ، فانطلقوا فى آثارهم وألقوا القبض على الكثيرين منهم ، وحملوهم على الإفضاء إليهم بتصريحات تتعلق بموقفهم وعددهم وبالناحية التى يعتزمون أن يقاتلوا النصارى منها ، فلما أحاط تنكريد بذلك علما هب لساعته ، وأنفذ رسولا إلى الدوق جودفروى وإلى البطريك [أرنول] وإلى جميع الأمراء (بيت المقدس) يقول لهم « ليكن معلوما لديكم أن القوم يعدون العدة فى عسقلان لمهاجمتنا ، فبادروا بالمجيء بجميع القوات التى تستطيعون جمعها . »

وإذ ذاك أمر الدوق بدعوة جميع الرجال ، كما أمر بسرعة تجهيزهم وتوجيههم آمنين إلى عسقلان لصد أعدائنا وقتالهم ، وخرج هو ذاته مع البطرك وروبرت كونت فلاندر من المدينة يوم الثلاثاء ، وصحبهم الأسقف « مارتيانو » ، غير أن كونت صنجيل وروبرت النرمندى جاها بأبنيهما لن يأخذا فى المسير إلا إذا تأكد لهما خبر الهجوم ، ولذلك أمرا فرسانهما بالتقدم قبل الرحيل ليروا إن كان حقا ما قيل من استعداد [المصريين] للهجوم ، ثم العودة على جناح السرعة لأنهم كانوا على وشك المسير ، فمضى هؤلاء واتضح لهم صدق خبر زحف العدو ، وبادروا إلى العودة يقصون على القوم ما شاهدوه بأعينهم .

وما لبث الدوق — وقد اختار الأسقف «مارتيرانو» — أن بعثه إلى بيت المقدس حتى يتجهز الفرسان الذين كانوا بها ويمضوا في الزحف للقتال . فلما كان يوم الأربعاء ، تحرك هؤلاء الأمراء وساروا للمعركة ، وعاد الأسقف «مارتيرانو» حاملاً الرسائل إلى البطرك وإلى الدوق ، فهب الشرقيون لمقابلته ، وألقوا القبض عليه ، ورجعوا به .

أما بطرس الناسك فقد بقى في بيت المقدس لاتخاذ ما تتطلبه الحال من التدابير والاستعدادات اللازمة ، ولدفع الإغريق واللاتين والسكينة إلى تمجيد الرب وإقامة الصلوات وتوزيع الصدقات حتى يؤتى الله شعبه ما وعد به من النصر ، ولما فرغ السكينة والقسس من ارتداء ملابسهم السكينية قاموا بالوعظ في هيكل السيد ، وترتل القداس والصلوات عسى أن يدافع الرب عن شعبه . وأخيراً اجتمع البطرك والأساقفة والسادة الآخرون عند شاطئ نهر في ناحية من نواحي عسقلان ، وتمسكوا باجتماعهم في هذه الضاحية من الاستيلاء على عدد كبير من الضأن والثيران والجمال والنعاج وشتى ضروب الغنائم ، وكان العرب يناهزون ثلاثمائة رجل ، فوثب عليهم رجالنا وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا جيشهم ، فلما جاء المساء نادى البطرك في جميع رجال الجيش بالتأهب في الصباح الباكر للمعركة ، وأصدر قرار الحرمان ضد كل رجل يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنيمة قبل انتهاء الواقعة ، فإذا تم لهم النصر استطاعوا العودة فرحين للاستيلاء على كل ما هيأه لهم الرب .

وفي الصباح الباكر دخلوا وادياً خصيباً قريباً من ساحل البحر وضربوا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الدوق إلى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت زمنديا وكونت صنجيل ، ثم تانسكريد وجاستون برجالهما ، كما أرسلوا جماعة من المشاة ورماة النشاب أمام الفرسان ، ولما أتموا ذلك كله شرعوا في القتال مستفتحيه باسم السيد يسوع المسيح .

كان على الجناح الأيسر الدوق جودفروى بقواته ، أما السكونت صنجيل فكان على الجناح الأيمن وقد أخذ يذرع الأرجاء المجاورة للبحر ، ووقف في الوسط كل من كونت فلا ندر وكونت زماندى وبقية الآخرين . وأخذ رجالنا في التقدم باستمرار .

أما الوثنيون فكانوا هم الآخرون متأهين للقتال ، وقد عانق كل منهم وعاء شربه إلى عنقه ، كي يسهل عليهم تناول الماء ورشفه وهم مجدون في آثارنا ؛ غير أن مشيئة الرب لم تدع لهم من الوقت فترة يحققون فيها ما يبتغون . فقد رأى كونت نورمانديا علم القائد محلى بكرة ذهبية ومرفوعا على طرف رحم فضى ، وإذا ذاك تقدم غير هيب ، ووثب على حامله وضربه ضربة أردته قتيلا يتخبط في دمه ، كما قام تانكريد بغارة على معسكر العدو الوثني الذي ما كاد يراه حتى انطلق هاربا ، وكان الجند كثيرين لا يحصيهم العد ولا يعرف عددهم سوى الرب ، وحى وطيس القتال ؛ غير أن قوة إلهية عاونتنا وكانت من الضخامة والبأس بالدرجة التي جعلت النصر يواتينا في أقصر وقت .

غشى الله أبصار أعدائه وأذهلهم ، ورغم شدة إبصارهم وغيونهم المجددة إلا أنهم كانوا يحدقون في فرسان المسيح وكأنهم لا يرون شيئا ما أمامهم ، ولم يعودوا يجرءون على رفع أبصارهم إلى النصارى ، لأن القوة الربانية روعتهم ، وحملهم جزعهم على تسلق الأشجار للاختفاء وراءها ، لكن رجالنا طرحوهم أرضا وقتلوهم رميا بالسهم والحراب والسيوف ، واختفى البعض الآخر من الأعداء بالارتقاء على الأرض دون أن يجرءوا على الوقوف أمامنا ، بيد أن رجالنا ذبحوهم ذبح الأغنام في السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جمعا غفيرا منهم على كشب من البحر الذى ارتقى فيه بعضهم ، وانطلق آخرون على وجوههم هائمين هنا وهناك .

أما القائد [الأفضل] الذى وصل أمام المدينة حزينا يائسا فقد أخذ يبكى

ويقول « يا أرواح الأرباب ، إن العين لم تبصر مثل ما جرى ، ولا سمعت الأذن بمثل ما حدث ! أيتها الأرواح : يا من لا تعادللك قوة ، ولا يماثللك بأس ، ولا تضاهيك فروسية قط ، يا من لم تهزى أبداً أمام أية أمة ولسكنك غلبت على أمرك على يد هذا الشعب المسيحي الصغير ، ما أبلغ الحزن وما أشد الأسى ! ماذا أقول وماذا أعيد ؟ أترانى أهزم على أيدي شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ! هؤلاء هم الذين تتبعوا الشعب المصرى الذى طالما وزع عليهم الصدقات حين كانوا يجوبون بلادنا ملتجئين الإحسان . لقد قدت مائتى ألف فارس ، ولسكنى رأيهم يثنون أعنة جيادهم ويوجهونها شطر مصر هرباً ، وانطلقوا لا يلوون على الوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإنتى لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا ^(١) أنتى لن أقود أية جماعة من الفرسان بعد الآن ما دمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الأجنبي . لقد أحضرت جميع أنواع السلاح والآلات لمحاصرة الفرنجة فى بيت المقدس ، لسكنهم هم الذين هاجموني وتعقبوني مدة يومين . واأسفاه ! ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لقد ضاعت هيبتى إلى الأبد فى مصر ! » .

استولى رجالنا على راية [الأفضل] ، فاشتراها كونت نرمنديا بهشرين دينار فضى ، ثم وهبها للبطررك تمجيذاً للرب وللضريح المقدس ؛ وتقدم غيره فاشتري سيف [الأفضل] بستين بيزنطية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعاً كما شاءت إرادة الرب . وكانت جميع سفن البلاد الوثنية موجودة هناك [فى عسقلان] ، فلما أبصر من بها انطلاق [الأفضل] هارباً بجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم وتسييرها بأقصى سرعة .

(١) هذا مثال من جهل كاتب الحواريات ، وهو شبيه بما أورده على لسان أم كربوغا مع أن جوهر الاسلام هو التوحيد .

ولما عادت بقية رجالنا إلى معسكر العدو جمعوا غنيمة هائلة من الذهب والفضة ، واستولوا على أكداش من الأموال ، وعلى كثير من شتى أنواع الحيوان والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا الاستحواذ عليه ، وأضرموا النار فيما تبقى .

وعاد رجالنا إلى بيت المقدس حاملين معهم كل ما هم في حاجة إليه . وقد جرت هذه الواقعة يوم الجمعة [١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ م] حسب مشيئة سيدنا يسوع المسيح ، الذي له المجد والشرف إلى الأبد وعلى مر القرون . آمين .

ملحق^(١)

وصف مدينة أنطاكية .

مدينة أنطاكية رائعة عظيمة ، إذ يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة شاذخة الذرى ، ويقوم على أعظمها ارتفاعا حصن حصين قوى جيد البناء ، وعلى السفح تمتد المدينة الرائعة المحبوبة ، قد ازدانت بكل ضروب الفتنه ، لما تحويه من الكنائس العدة التى تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة ، كما تضم ستين ديراً ، ويشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً .

والمدينة محاطة بسورين : أكبرهما شديد الارتفاع ، عجيب البناء ، مشيد تشييداً عجيباً ، ففيه أربعائة وخمسون برجاً ، وأينما ولى المرء وجهه شاهده جمال المدينة .

وتحيط بها من الشرق أربعة جبال عظيمة ، ويجرى فيها من الناحية الغربية نهر يسمى بنهر فرفر [وهو العاصى] ، حيث ينطلق على مقربة من أسوارها .

وهذه المدينة بالغة الشهرة ، فقد تولاها في مبدأ الأمر خمسة وسبعون ملكا ،
أولهم « أنتيوكس » الذي سميت المدينة باسمه . وقد أقام الفرنجة على حصارها
مدة ثمانية أشهر ويوم واحد ، ثم حاصروهم الترك وغيرهم من الوثنيين مدة
ثلاثة أسابيع ، إلا أن الغلبة كانت للمسيحيين بفضل معونة الرب والضريح
المقدس ، وأقمنا مطمئنين راغدين مدة خمسة أشهر وثمانية أيام .

المؤلف

- ١ - الحرب الصليبية الأولى
دراسة تاريخية تليها الترجمة العربية للحوليات الفرنجية اللاتينية .
(طبع دار الفكر العربي)

تحت الطبع

تأليف :

- ٢ - السلطان نور الدين والصليبيون .
بحث قدم لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ونال به مؤلفه
درجة الماجستير بمرتبة الشرف .
٣ - العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في القرن الثاني
عشر الميلادي .

٤ - A Transition Period in Byzantine Antioch.

ترجمة :

- ٥ - تاريخ العرب الأدبي ، للدكتور رينولد نيكلسون ، أستاذ اللغة
العربية وآدابها بجامعة كامبردج سابقاً (بإذن من المؤلف) .
٦ - تاريخ الأندلس ، للمستشرق الهولندي رينهرت دوزي ، ويقع
في أربعة مجلدات .

ÉTUDE HISTORIQUE
de la
PREMIÈRE CROISADE

Suivie par la traduction Arabe des
GESTA FRANCORUM

PAR
Hasan Habashy

à la Faculté Supérieure Normale de Baghdad.
M. A. (Honrs.) ; Dip.ès Ed. et Psych.

1^{ère} ÉD.

DAR-eL-FIKR el-ARABY

Le Caire

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

